

خير الأنام وصحبه الكرام

الجزء الرابع
حياة الصحابيَّات

تأليف:

د. حسن عشاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

٢٠١٩م / ١٤٤٠هـ

توزيع مؤسسة الأهرام



الإدارة العامة للتوزيع

ت: ٢٧٧٠٤٢١٣ - ٢٧٧٠٣١٩٥

إهداء

إلى مَنْ علّمني حبَّ العطاء، وحبَّ الإيثار على النَّفس، حتى ولو كنتُ لا
أملك له إلا القليل، رحمه الله؛ والدي.

وإلى مَنْ علّمتني أصولَ ديني، وكيف أؤدّي فروضي إلى الله، بل وكيف
أحبُّ أن أكون عبداً لله، رحمها الله؛ والدي.

اللهم ربِّ ارحمهما كما ربياني صغيراً.

وإلى مَنْ كانت لي عوناً وداعماً في كلِّ ما أقوم به من أعمالٍ لخدمة ديني، وفي
إخراج هذا العمل المتواضع؛ إلى زوجتي العزيزة.

د. حسن عشاوي

مقدمة فضيلة مفتي دولة زيمبابوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على خير خلق الله، سيّدنا ومولانا محمّد، وعلى آله وصحبه الكرام.

إنّه لمن دواعي سُرونا وسعادتنا أن نرى ثمار الجهد المبذول من صديقنا العزيز وأخينا الأكبر، الدكتور حسن عشاوي، تصدُر الآن في صورة كتاب "خير الأنام وصحبه الكرام"، بعد عُقودٍ من العمل المخلص والدؤوب للتعريف بالتاريخ الإسلامي، بدءاً من السيرة النبويّة العطرة.

فقد قام الدكتور حسن عشاوي بإلقاء العديد من المحاضرات في مساجدٍ مختلفةٍ بالبلاد، وتمّ تسجيلها وتوزيعها على نفقته الخاصّة، وقد لاقَتْ هذه التسجيلاتُ إقبالاً كبيراً واستحساناً من المسلمين بدولة زيمبابوي والبلاد المحيطة بها؛ في زامبيا وبوتسوانا وجنوب أفريقيا... وغيرها، ولا تزال تُلاقى إقبالاً كبيراً.

وها نحن اليوم نرى هذا العمل يظهر في صورة كتاب "خير الأنام وصحبه الكرام"؛ فهذا فضلٌ من الله ومنّته، وعلامة من علامات القبول إن شاء الله.

وقد قام الدكتور حسن عشاوي بهذا الجهد وتلك التضحيات إلى جانب عمله كطبيبٍ وجراح، وما قام به من جهد مشكور لمساعدة أبناء وطننا في زيمبابوي،

وفي هذا الصَّدَد أسَّس الجمعية الطَّبيَّة الإسلاميَّة بدولة زيمبابوي، والتي تُعنى بمساعدة الفقراء والمحتاجين وعلاجهم بالمجان، والحمد لله أصبح لها فروع في معظم محافظات البلاد.

فنسأل الله تعالى أن يحفظ أخانا الدكتور حسن عشاوي، وأن يجزيه خيرًا على ما قام به من جهد وعمل مُضِنٍ لخدمة الإسلام والمسلمين، وإني لعلِّي يَقينُ أن هذا الكتاب سيكون فيه الفائدة والنَّفع العظيم لنا جميعًا، لعلَّ الله يتقبَّل هذا الجهد، ويكتب له الاستمرار؛ آمين.

الشيخ / إسماعيل موسى منك

مفتي دولة زيمبابوي

الجمعة ٢٦ شعبان ١٤٣٤ هـ - الموافق ٥ يولييه ٢٠١٣ م

مقدمة الجزء الرابع

الحمد لله حمداً كثيراً، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد:

فبفضلٍ من الله ومَنَّهُ تَمَّ نَشْرُ ثلاثة أجزاء من سلسلة «خير الأنام وصحبه الكرام»: «حياة خير الأنام ﷺ»، و«حياة العشرة المبشرين بالجنة»، و«حياة الصحب الكرام». والحمد لله لاقت قبولاً واستحساناً من القراء؛ لبساطة الأسلوب وسلاسة العرض، وقد نَفَدَتِ الطبعة الأولى منها، وقمنا بنشر الطبعة الثانية، والله المِنَّة والفضل، وله الحمد من قبلُ ومن بعدُ.

ولقد كانت النية عند بداية كتابة هذه السلسلة المباركة أن يكون الصحابة والصحابيَّات في جزء واحد، ولكنَّ سيرة الصحب الكرام أكبر من أن يجويها كتابٌ واحد، وتتابع الكتب، وآثرتُ في ختام هذه السلسلة أن

يكون هناك جزءٌ خاصٌّ بالصحابيات الكرييات؛ نظرًا لحاجة أخواتنا الفضليات إلى قبس من نور يهديهن، وأسوة حسنة يقتدين بها، ومن أحسن قدوة وأعظم أسوة من نساءٍ عاصرنَ خير الأنام ﷺ، وتعلمنَ على يديه، فأجدر بهؤلاء الصحابيات أن يكنَّ قدوةً ونجومًا تهتدي بهن أخواتنا المؤمنات على مرَّ الأزمان.

إنَّ المرأة -كما هو معلوم- تُشكِّل نصف المجتمع من حيث العدد، فإذا أخذنا في الاعتبار أنها تلدُّ النصف الآخر؛ علمنا أهميتها القصوى ودورها العظيم في بناء المجتمع؛ وإنَّ إعداد المرأة المسلمة إعدادًا جيدًا يسهم في رُقِّي الأُمَّة المسلمة وتمسُّكها بدينها، ونجاح الأسر واستقرارها، وصدق الشاعر في قوله:

الأم مدرسةٌ إذا أعددتها *** أعددت شعبًا طيب الأعراق

فالمرأة هي الأم، والأخت، والابنة. لذلك رأينا أن نخصِّص جزءًا ليسلِّط الضوء على «حياة الصحابيات».

وكما كان حالنا في اختيار «الصحب الكرام»، وجدنا نفس الصعوبة في اختيار الصحابيَّات اللاتي يجدر ذكرهن في هذا الجزء من السلسلة؛ فلكل واحدة منهن رحيقٌ وعبيرٌ خاصٌّ. فلما كان من الصعب أن نُغطِّي حياة كل الصحابيَّات في هذا الكتاب؛ فقد اخترنا من كلِّ بستان زهرة، وإن كن جميعاً -سواء من ذكرنا في هذا الكتاب، ومن لم نذكر-؛ كلهن من رسول الله ﷺ مُرْتَحِقٌ.

فنسأل الله -تعالى- أن يقبلنا، ويتقبل منا هذا العمل المتواضع، والذي لا نريد به إلا وجه الله -سبحانه وتعالى-، فنسأل الله الإخلاص والقبول. والآن أعزائي، أدعوكم إلى الاستمتاع بصحبة «حياة الصحابيَّات».

د. حسن عشاوي

مَن هي الصحابيَّة؟

أجمع العلماء على تعريف الصحابي بأنه: " كل من لقي رسول الله ﷺ في حياته وهو مُسلم، وعاش ومات على إسلامه".

فكثير من النَّاس من الرجال والنساء شاهد رسول الله ﷺ في حياته، ولكنهم لم يُسلموا، وبعضهم أسلم، ولكنه ارتدَّ عن الإسلام، فلا يلحق أمثال هؤلاء بالصحابة.

وهذا التعريف كما ينطبق على الرجال من الصحابة، فإنه ينطبق كذلك على النساء من الصحابيَّات. وعليه فتكون الصحابيَّة: هي كلُّ من لقيت رسول الله ﷺ في حياته، وهي مسلمة، وعاشت وماتت على إسلامها.

الهدف من سرد سيرة الصحابة

لسنا بصدد كتابة وسرد قصص للتسلية، ولكن هناك أهداف هامة لهذا العمل، منها:

١ - القدوة:

إن الأمة تعيش هذه الأيام حالة من التخبط والشتات، فما أحوجنا الآن إلى أن نجد من يكون لنا قدوة ومثالاً يُتذى به! فإنك إن أردت أن تتعلم السباحة، أو الطب، أو الهندسة، أو الرسم، أو أيًا من مناحي الحياة - فإنك دائماً ما تبحث عن الأفضل في هذا المجال أو ذاك؛ ليكون لك معلماً ودليلاً. ومن يكون لنا معلماً ودليلاً خيراً من هؤلاء الذين تعلموا وتربوا وتخرجوا في مدرسة الحبيب المصطفى ﷺ؟! فهي أعلى وأرقى مدرسة عرفها التاريخ، وعرفتها البشرية.

فهم كما قال حبيبي ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته» أخرجه البخاري ومسلم.

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-، عن النبي ﷺ، قال: "يأتي زمان يغزو فنام من الناس، فيقال: فيكم من صحب

النبي ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح عليه، ثم يأتي زمان، فيقال: فيكم من صحب أصحاب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح، ثم يأتي زمان فيقال: فيكم من صحب صاحب أصحاب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح".

ففيهم القدوة التي علينا أن نحتدي بها في كل مناحي الحياة؛ وهذا هو السبيل الوحيد لرقية هذه الأمة، ونشر صحيح الإسلام.

٢ - حب الصحابة:

أردنا من هذا العمل أن نصنع حالة من الحب والعشق لهؤلاء الصحابة؛ لعل الله - سبحانه وتعالى - أن يحشرنا معهم. كما قال حبيبي ﷺ: «يُحْشَرُ المرء مع من يُحِبُّ».

فنسأل الله أن يرزقنا حبهم، وحب من يحبهم، وأن يجعلنا على خطاهم، ويحشرنا معهم؛ إنه ولي ذلك ومولاه.

فضائل الصحابة

إنَّ لصحابة رسول الله ﷺ من الفضائل ما لا يُعدُّ ولا يُحصى، وسنحاول أن نُلخِّصها فيما يلي:

أولاً - تزكية الله - سبحانه وتعالى -:

لقد ذكَّر الله - سبحانه وتعالى - صحابة رسول الله ﷺ وزكَّاهم في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وقد جاء ذكرهم على ثلاثة أشكال:

١ - آيات تشير إلى عموم الصحابة وتزكيهم، كما في قوله تعالى:

* {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح: ٢٩].

* {لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ٨٨، ٨٩].

وهناك العديد والعديد من الآيات والتي تزكي صحابة رسول الله ﷺ، قد

لا يتسع المجال لذكرها جميعاً.

٢ - آيات تشير إلى مجموعة بعينها من الصحابة، كما في قوله سبحانه:

* {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح: ١٨]. وهي تشير إلى أهل بيعة الرضوان.

* {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} * مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب: ٢٢، ٢٣].

وهي تُشير إلى أهل الخندق "غزوة الأحزاب".

وهناك غيرها من الآيات تشير إلى أهل بدر، وحُنين... وغيرها من المشاهد.

٣ - آيات تشير إلى صحابي بعينه:

أ - بدون ذكر اسمه، كما في قوله تعالى:

* {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ

عَزِيزٌ حَكِيمٌ { [التوبة: ٤٠].

إشارة إلى أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -.

ب - بذكر اسمه:

وحدث ذلك مرّة واحدة في قوله تعالى:

*** {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا } [الأحزاب: ٣٧].**

في إشارة إلى زيد بن حارثة - رضي الله عنه -.

وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا؟! فَأَيُّ فَضْلٍ وَأَيُّ شَرَفٍ أَعْلَى مِنْ أَنْ يُذَكَرَ
الإنسان في كتاب يُتلى ويتعبّد به إلى يوم الدين؟!!

ثانيًا - تزكية رسول الله ﷺ لصحابته:

وقد زكّى رسولُ الله ﷺ أصحابه في كثير من الأحاديث، نذكر منها على
سبيل المثال لا الحصر:

١ - قال رسولُ الله ﷺ: «خير أمتي قرني، ثمّ الذين يلونهم، ثمّ الذين
يلونهم» أخرجه البخاري ومسلم.

٢ - قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدَّ أحدهم أو نصيفه» أخرجه البخاري. (والمُدُّ: هو ضربٌ من المكيال؛ وهو رُبُع صاع).

والمعنى: أنه لا ينال أحدكم بإنفاقه مثل أحد ذهباً - من الفضل والأجر - ما ينال أحدهم بإنفاق مدٍّ من طعام أو نصيفه.

٣ - قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُ اللهُ في أصحابي! لا تتخذوهم غرضاً من بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم» رواه أحمد في المسند.

فهذه الأحاديث بعضٌ من أحاديث كثيرة تُزكِّي صحابة رسول الله ﷺ كافة، فضلاً عن كثير من الأحاديث التي زكَّى فيها رسول الله ﷺ كثيراً من الصحابة بأعينهم، وسنأتي إلى ذكر ذلك في معرض حديثنا عن كلِّ صحابي.

ثالثاً - ما قاله ابن مسعود - رضي الله عنه - في أصحاب رسول الله ﷺ:

فعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: "إنَّ الله نظرَ في قلوب العباد، فوجد قلبَ محمدٍ ﷺ خيرَ القلوب، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثمَّ نظر في قلوب العباد بعدَ قلبِ محمدٍ ﷺ، فوجد قلوبَ أصحابه خيرَ قلوب العباد، فجعلهم وزراءً نبيِّه يقاوتون على دينه"؛ (أخرجه أحمد في المسند).

رابعاً - مميزات صحابة رسول الله ﷺ:

والسؤال الذي قد يطرح نفسه في هذا المقام هو: لماذا هذا التَّكْرِيْمُ القرآني والنبوي لَصْحَابَةِ رسول الله ﷺ؟

والإجابة تتلخَّصُ في الآتي:

فقد امتاز أصحابُ رسول الله ﷺ عَمَّن سَبَقَهُمْ من أتباع الرُّسل، ومَن لحِقَهُمْ من أُمَّة الإسلام بمميِّزات متعدِّدة بلَّغوا فيها الدَّرَجَات العُلا، منها:

١ - الرِّبَانِيَّة:

فقد كانوا موصولين بالله، قلوبهم متعلِّقة به وحده، يُحِبُّهُمْ ويحبُّونَه، يَشْتاقون إليه، فإذا دَعَوْه جعلوا ألسنتهم من وراء قلوبهم، وكانوا عند ذِكره خاشعين مطمئنِّين، وإذا قاموا بين يديه قاموا قيامَ الدَّلِيلِ الوَجِلِ.

٢ - المِثَالِيَّة:

بلغ صحابةُ رسول الله ﷺ الدَّرَجَةَ العُليا في عباداتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم.

أ - فبلغوا من الخشوع درجة التفوُّق، وذروة الإخلاص، فكانوا بحقَّ كما وصفهم الله - سبحانه وتعالى - : { وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى

أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ [المائدة: ٨٣].

ب - كانت قلوبهم تلين، وجلودهم تقشعر، وعيونهم تهطل بالدموع عند قراءة القرآن الكريم.
وهاك بعض الأمثلة:

* كان صديق الأمة - رضي الله عنه - كثير البكاء، وكان إذا بكى لا تُعرف قراءته من كثرة البكاء.

* وهذا هو الفاروق عمر - رضي الله عنه - لما قرأ: **{إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ}** [الطور: ٧، ٨] ظل يبكي، وانتابته حالة من الخوف لمدة عشرين يوماً.

* ولما نزلت آية: **{أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ}** [النجم: ٥٩، ٦٠] بكى أصحاب الصفة حتى جرت دموعهم على خدودهم، فلما سمع رسول الله ﷺ صوت بكائهم بكى معهم.

ج - كانوا إذا أنزلت الآية يعملون بها ويطبِّقون شرعها فور سماعها، والأمثلة كثيرة، سنعرض لها بالتفصيل إن شاء الله.

٣ - التوازن بين الدنيا والدين:

حقَّق أصحابُ رسول الله ﷺ هذا التَّوازنَ بدون إفراطٍ ولا تفریط. وهذا أمرٌ ما أَحوجنا إليه هذه الأيام! فترى مِنَ النَّاسِ مَنْ أُغْرِقَ في أمور الدين ونسي حظَّهُ من الدنيا، والعكس صحيح؛ فكثيرٌ مِنَ النَّاسِ أُغْرِقَ في أمور الدنيا ونسي حظَّهُ من الآخرة. أمَّا صحابة رسول الله ﷺ فقد حقَّقوا هذا التوازنَ بين ما يَحتاجه الجسد وما يَحتاجه الرُّوح.

والأمثلة على ذلك كثيرة، نذكر منها:

* إقبالهم على تَعَلُّم ما يَنفَعهم ويساعدهم في الحياة؛ فهذا ابن الزُّبير كان يتكلَّم بأكثرَ من لغَةٍ "قيل: مائة لغة"، وهذا زيدُ بن ثابت أرسله رسولُ الله ﷺ لتعلُّم العِبرية والسُّريانية.

* كانوا يجمعون بين العلم (تعلُّم أمور دينهم) والكسب:

- فهذا عمر بن الخطَّاب يقول: "كنتُ أنا وجاري مِنَ الأنصار نَتناوب التَّزولَ على رسول الله ﷺ؛ يَنزل يوماً وأنزل يوماً، فإذا نزلتُ جئتُه بخبرٍ ذلك اليومِ من الوحي وغيره، وإذا نزلَ فعَل ذلك؛" أي: إنَّ أحدهما يَنزل لرسول الله ﷺ يَسْمَع منه ويتعلَّم، والآخر يذهب للعمل والكسب... وهكذا.

- وعن البراء - رضي الله عنه - قال: "ليس كلُّنا سَمِعَ رسولَ الله ﷺ؛ كانت لنا ضَيْعَةٌ وأشغال، ولكن النَّاس كانوا لا يَكْذِبون يومئذ، فيُحدِّثُ الشاهدُ الغائبَ"؛ (أخرجه أحمد).

* كثيرٌ من الصحابة، أمثالُ عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان بلغوا من النَّجاح في تجارتهم ومن الغنى مبلَّغهُ، إلا أنَّهم جعلوا الدُّنيا وسيلةً ولم يجعلوها غاية، فأخذوا منها ما يُصلح الجسد، وصيَّروا همَّهم وهدفهم إلى الآخرة.

٤ - الشجاعة:

تميّز صحابة رسول الله ﷺ بالتضحية الفذة بالنفس والمال، وقد شهد تاريخهم شجاعة لم يُعرف لها نظير، وكانت دائماً ما تظهر وقت الشدَّة، ووقت الحاجة لها، والأمثلة على ذلك كثيرة، سنعرض لها بالتفصيل مع سرد سيرة كل صحابي.

٥ - العدالة:

كانت العدالة جزءاً أصيلاً من شخصيَّة الصحابة، وقد عرفوا بها، وأقرَّها الأعداء قبل الأصدقاء؛ ولهذا كانت لهم الغلبة والسيادة، "فالعدل أساس المُلك"؛ كما يقال، والأمثلة كثيرة، سنعرض لها بالتفصيل في سرد سيرة كل صحابي.

٦ - الإنفاق والكرم:

أحبَّ أصحابُ رسولِ الله ﷺ معاليَ الأمور ومكارمَ الأخلاق، فجادوا بأفضلِ ما يملِكون، وأنفقوا خيرَ ما يجدون، فكانوا يُنفقون ممَّا يُحبون لينالوا البرَّ؛ عملاً بقوله تعالى: **{لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}** [آل عمران: ٩٢]، وقد يجود الواحدُ منهم بكلِ ما يملك، ولا يخشى من ذي العرشِ إقلالاً.

وسنعرض بالتفصيل لكل هذه الأمثلة في معرض حديثنا عن كل صحابي.

٧ - الإيثار:

لم يذكر التاريخُ أحدًا مات جوعاً في عصر الصحابة، وكيف يكون ذلك والله عزَّ وجلَّ قد أثنى عليهم بقوله: **{وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** [الحشر: ٩]!

والأمثلة من حياة الصحابة كثيرة، سنعرض لها بالتفصيل إن شاء الله.

٨ - حب الصحابة لرسول الله ﷺ:

تميّز صحابة رسول الله ﷺ - فوق كلِّ ما تقدّم، وقبل كلِّ ما تقدّم - بحبهم

لرسول الله ﷺ؛ فكان حبهم له ﷺ حباً جمّاً، أكثر من حبهم لأولادهم وأموالهم وأنفسهم، فكانوا لا يترددون في بذل الغالي والنفيس فداءً لرسول الله ﷺ.

وقد ذكرنا في الجزء الأول "حياة خير الأنام" بعض الأمثلة من حب صحابة رسول الله ﷺ له وحرصهم عليه؛ وذلك تصديقاً لقوله تعالى: {النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} [الأحزاب: ٦].

وسنعرض لمزيد من الأمثلة في معرض حديثنا عن كل صحابي إن شاء الله. فكان هذا أعزائي جزءاً يسيراً من صفات ومميزات كثيرة لصحابة رسول الله ﷺ، وقد أفردت لها كتب ومجلدات يصعب حصرها في هذا المقام.. فكانوا بحق أهلاً لتزكية الله - سبحانه وتعالى - لهم، وتزكية رسول الله ﷺ لهم، وأن ينالوا هذا الشرف العظيم، أن اختارهم الله - سبحانه وتعالى - ليكونوا في صحبة خير خلقه سيدنا محمد ﷺ.

قد يبدر للأذهان سؤال: هل لنا من الوصول إلى هذا المقام الرفيع في الرقي والقرب من الله؟ أم أن هؤلاء الصحابة عاصروا رسول الله ﷺ وتعلموا على يديه، فأنتى لنا اللحاق بهم؟!!

والإجابة: أن رسول الله ﷺ قال: «الخير فيّ وفي أمّتي إلى يوم القيامة»؛ أو كما قال، فالأمل موجود، والطريق إلى الله ممهد، والهداية والقدوة التي تُنير لنا الطريق مُيسرة، فعلينا أن نُخلص النية إلى الله، ونسأله -سبحانه- أن ينير أبصارنا وبصائرنا؛ لتتبع الهدى والنور الذي منّ الله به علينا، فننعم بصحبة "خير الأنام وصحبه الكرام".

والآن أعزائي فلنستمع بصحبة هذه الكوكبة من «الصحابيات الكريهات»، مع الصفحات التالية من هذا الكتاب.

خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

لنبدأ هذه الكوكبة الطاهرة بالطاهرة، أول من أسلم من العالمين، وأول من بُشِّرَتْ بالجنة، ووصفَ لها قصرها في الجنة تفصيلاً؛ إنها أول أمهات المسلمين، وأعظمن شأنًا، وأقربهن إلى قلب الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم. إنها خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

نسبها ونشأتها

هي: خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى - أخو عبد مناف - بن قُصي بن كلاب. يلتقي نسبها مع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند جدها الرابع «قُصي بن كلاب».

وأمها: فاطمة بنت زائدة العامرية.

أما أبوها: «خويلد بن أسد»، فقد كان سيّد قومه، وكان رجلاً ذكي الفؤاد، واسع الغنى، ملتزمًا بالأخلاق الفاضلة، ومعروفًا بالصدق والأمانة والوفاء.

أما ابن عمها: «ورقة بن نوفل بن أسد»؛ فقد كان أحد أربعة من حكماء العرب في زمانهم، لم يرضهم ما يقومهم من عبادة الأوثان التي ينحتونها

بأيديهم ثم يَخْرُوا لها سُجَّدًا. ففترقوا في البلاد يلتمسون الحنيفية؛ دين إبراهيم - عليه السلام -.

وبعد بحث طويل اعتنق ورقة بن نوفل النصرانية، وتعلم من كتبها مكارم الأخلاق. فلم يكن يشرب الخمر، ولا يلعب الميسر، ولا يسجد لصنم. وكان يرحم الموءودة، فإذا هَمَّ أبوها بدفنها؛ كان يأخذها ويرعاها ويربها عنده، حتى إذا كبرت ورفض أبوها استعادتها أبقاها عنده.

هكذا نعلم أن خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من أعرق بيوت العرب شرفاً ونسباً وتديناً، وبُعداً عن الانغماس في الشهوات.

وُلِدَتْ خديجة قبل عام الفيل بخمس عشرة سنة، فورثت من هذا البيت حُسن السيرة وجمال الخلق والخُلُق.

زواجها:

لما بلغت سنّ الزواج تزوجها «أبو هالة النباش بن زُرارة التميمي»، فولدت له ولدين: هند ثم هالة. وهذان الاسمان من أسماء الإناث، ولكن العرب كانت تُسمِّي الذكور أحياناً تسمية الإناث!!

لكن هذا الزواج لم يدم طويلاً، فقد توفي زوجها تاركاً لها ولولديها وثروة طائلة.

ثم تزوجت من بعده «عتيق بن عائذ المخزومي»، فولدت له بنتاً يُقال لها: هند أيضاً. ولم يستمر زواج خديجة من عتيق طويلاً أيضاً.

بنو الطاهرة:

كان يُطلق على هذه الذُرِّيَّة «بنو الطاهرة»؛ لأن أمهم «خديجة» كانت تُلقَّب بالطاهرة؛ لما تتمتع به من الذكرى العطرة، والمكانة الطيبة وحُسن الخلق.

- أما هند ابن أبي هالة: فقد عاش مع أمه في كنف رسول الله ﷺ. وكانت له صحبة ورواية عن رسول الله ﷺ، وكان بليغاً فصيحاً.

- أما هالة ابن أبي هالة: فقد عاش وأسلم، وكانت له أيضاً صحبة ورواية عن رسول الله ﷺ.

- أما هند بنت عتيق: فقد شَبَّت وترعرعت، ثم تزوجت من ابن عمها، وولدت له محمداً. وعاش هذا الولد وكانت له ذرية أقامت في المدينة المنورة بعد الهجرة.

في رحاب رسول الله ﷺ

شمسٌ تهبط في دار خديجة:

في ذات ليلة رأت خديجة فيما يرى النائم شمسًا عظيمة مضيئة أشد ما يكون الضوء جمالاً وجلالاً تهبط من سماء مكة لتستقر في دارها، وتملاً الدار نوراً وبهاءً، ومن دارها يفيض ذلك النور ليغمر كل ما حولها بضياء يُبهر النفوس.

فلما كان الصباح هرعت إلى ابن عمها «ورقة بن نوفل» لتُقصَّ عليه رؤيتها، وكان - كما أسلفنا - عاكفاً على قراءة صُحف السابقين من يهودية ونصرانية. فما أن انتهت من كلامها حتى تهلل وجهه وقال: «أبشري يا ابنة العم، فهذه الشمس المضيئة علامة على ظهور النبي الذي أظَلَّ زمانه، ودخولها في دارك دليل على دخول نور النبوة في دارك، وإنك ستزوجين من خاتم النبيين، وسيفيض نوره من دارك.

ترفض سادات قریش:

لقد كان لتأويل هذه الرؤيا وَقَعٌ طيبٌ في نفس وقلب خديجة. وظلت بعدها تعيش على عبير هذا الحلم، وتتمنى أن تتحقق رؤياها. فكان إذا تقدم لها

سيِّد من سادات قريش لخطبتها، تقيسه بمقياس الحلم الذي رأته، والتأويل الذي سمعته من ابن عمها. فلما كانت لا تنطبق صفات خاتم النبيين على هؤلاء الذين تهافتوا على خطبتها، فكانت تردهم ردًّا جميلاً. فكانت تحسُّ إحساسًا غامضًا أن القدر الإلهي يُجِبُّ لها شيئًا رائعًا، لا تدري ما هو؟ لكنها تشعر أن فيه ما يُدخل الطمأنينة على قلبها.

النور يقترب من الطاهرة:

ويبدأ هذا النور يقترب من الطاهرة رويدًا رويدًا.. فقد كانت خديجة ذات مال وفير، فعملت بالتجارة بواسطة الأُمَنَاء من شباب مكة. فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه، وعظيم أمانته، وكرم أخلاقه؛ دَعَتْهُ إلى بيتها لتعرض عليه أن يخرج في تجارتها إلى الشام. فلما قابلته وجدته أهلاً للقيام بهذه المهمة، وقد رأت فيه أضعاف ما سمعت عنه من حلو الشائل؛ الأمر الذي بعث في نفسها الثقة والاطمئنان. فقالت له: دعاني إلى طلبك ما بلغني من صدق حديثك وعظيم أمانتك، وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومي. فاستجاب لها رسول الله ﷺ بعد أن استشار عمّه أبا طالب الذي بارك هذا العرض، وقال له: هذا رِزْقٌ ساقه الله إليك.

بشائر النبوة:

تهيأت العير للخروج بتجارة خديجة، وخرج معهم الصادق الأمين ﷺ،
ومعه غلام لخديجة يُقال له «ميسرة»، وقد أمرته ألا يعصي لرسول الله ﷺ
أمراً.

وتمضي القافلة في طريقها إلى الشام، وفي الطريق تظهر علامات وبشائر
النبوة:

* فقد رأى ميسرة غمامة تُظِلُّ رسولَ الله ﷺ منذ غادر مكة؛ فتقيه حرارة
الشمس.

* وفي الطريق نزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب
من الرهبان. فاطلع الراهب إلى ميسرة، الذي كان يعرفه من قبل، فقال له:
من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال له ميسرة: هذا رجل من
قريش من أهل الحَرَم. فقال الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبيّ.

* وفي الطريق ضعُف بعيران من الإبل التي يتعهدها ميسرة، وحاول عبثاً
أن يحملهما على مسابرة الركب فلم يستجيبا له.

فرفع أمرهما إلى رسول الله ﷺ الذي توجه إليهما، ومسح بيده على
أخفافهما، ثم أمسك عقودهما وقادهما، فسارا خِفَافاً في نشاط ظاهر، كأن لم
يكن بهما شيء.

وتمضي القافلة بقيادة رسول الله ﷺ الذي باع واشترى، وربحت التجارة على يديه أضعاف ما كانت تربح. وما كان ذلك إلا لما كان له من حُلُو الشمائل الذي أهر ميسرة ومن معه.

تربط بين الماضي والحاضر والمستقبل:

تتحرك القافلة عائدة إلى مكة بما تحمل من خير وريح وفير، فلما كانت بمرّ الظهران قريباً من مكة اقترح ميسرة على رسول الله ﷺ أن يسبق القافلة لِيُسِّرَ السيدة خديجة بالربح الوفير الذي جاءها.

فلما وصل ميسرة إلى سيدته وقصَّ عليها ما رأى وما سمع، فحدّثها عن قول الراهب عن رسول الله ﷺ، وما كان من غمامة تُظِلُّه، وصدقه وأمانته، وحُلُو حديثه، وما كان من ربح وفير وخير كثير عادت به القافلة على يديه.

بعدها يدخل رسول الله ﷺ بعد ما طاف بالبيت الحرام..

ومضى يقصُّ على خديجة أبناء رحلته، وربح تجارته..

وما جاء به من خيرات من الشام، وهي تُنصت مُغْتَبِطَةً مأخوذة.

ويغادر رسول الله ﷺ دارها ليلقى أعمامه..

إلا أنه لم يغادر فِكر وعقل وقلب خديجة، وقد كانت امرأة حازمة شريفة

لبية، فخلت إلى نفسها وأخذت تربط الماضي بالحاضر، وأخذت تنظر بعين البصيرة إلى المستقبل.

فقد شغلت بها مضي من الرؤيا التي رأت فيها الشمس التي تهبط في دارها، وتأويل ابن عمها ورقة بن نوفل بأن هذا نور النبوة سيدخل دارك وتتزوجين من خاتم النبيين. وبالحاضر وما سمعت من ميسرة عن رسول الله ﷺ، وما رأت فيه من علامات وآيات تؤكِّد أنه النبي المنتظر، والشمس التي ستهبط في دارها.

فخفق قلبها حُبًّا له، بعد أن اجتمعت الدلائل والقرائن عندها أنه هو الرحيق الذي سيُختم به الأنبياء.

وباتت تنظر إلى المستقبل، وترجو أن تكون زوجًا له.. ولكن أنى الطريق إلى ذلك؟!

مُهَمة نَفيِسة بنت مُنَّبِه

وفي غمرة الحيرة والاضطراب تدخل عليها صديقتها «نفيسة بنت مُنَّبِه»، وكانت تحبها وتُبيح لها بعض أسرارها، فأسرت إليها بما تُكنُّه في صدرها نحو رسول الله ﷺ من حب ورغبة في الزواج منه.

وأفضت إليها بما يتابها من خَجَلٍ من كهولتها بالقياس إلى رسول الله ﷺ في شبابه، وكذلك تفكيرها في قومها، فقد ردَّت عن بابها الحُطَّاب من سادة قريش.

فهدأت نفيسة من روع خديجة، وهَوَّنت الأمر عليها..

وقالت لها: إنك أوسط قريش نسباً، وأعظمهم شرفاً، وأكثرهم مالاً وجمالاً، وإن كل قومك حريصٌ على الزواج منك لو قدَر على ذلك.

وتخرج نفيسة من عند خديجة، وتنطلق إلى رسول الله ﷺ، فما أن رأته حتى سألته:

ما يمنعك أن تتزوج، وقد تزوج مَنْ هُم في مثل سنِّك، وأصبح لكل واحد منهم الولد؟

فقال لها ﷺ: «ما بيدي ما أتزوج به».

فقالت: فإذا كُفيت ذلك، ودُعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة، فهل تُجيب؟

فرد متسائلاً: «ومن هي؟»

قالت: خديجة بنت خويلد.

فقال ﷺ: «إن وافقت فقد قبلت».

فانطلقت نفيسة لتزفَّ البشري إلى خديجة.. وهكذا نجحت نفيسة بنت مُنَّبه في مهمتها.

وبعد أن رضي الطرفان فيما بينهما -رسول الله ﷺ، وخديجة- ذهب رسول الله ﷺ إلى عمه أبو طالب وأخبره برغبته في الزواج من خديجة.

الزواج المبارك:

فرح أبو طالب، واستبشر وذهب مع رهط من بني هاشم إلى عمِّ خديجة «عمرو بن أسد»؛ ليخطبوا إليه ابنة أخيه لابن أخيهم، وقد ساقوا إليه الصداق (عشرين من الإبل)، وهناك وجدوا قومها من بني أسد ينتظرون وكل شيء مُهيأً للزواج.

ونض أبو طالب ليُلقي خطبة الزواج؛ فقال فيما قال: الحمد لله الذي جعلنا ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل.. ثم استطرده يقول: إن ابن أخي هذا «محمد بن عبد الله» لا يُوزَن به رجل إلا رجح عليه برًّا وفضلًا وشرفًا وعقلًا ونُبلاً.. وإن كان في المال قَلٌّ، فإن المال زائل، وأمر حائل،

وعارية مُسترجعة. ومحمد من عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد، وبذل لها من الصداق آجله وعاجله عشرين بكرة.

ثم قال أبو طالب: وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم.
ولما انتهى أبو طالب، نهض «عمرو بن أسد» عم خديجة فردَّ على أبي طالب ردًّا جميلاً وأثنى على رسول الله ﷺ فقال حسناً، وأعلن تزويجه من ابنة أخيه خديجة.. وبذلك تمَّت مراسم عقد هذا الزواج المبارك.
وكان ذلك بعد عودة رسول الله ﷺ من الشام بشهرين وخمسة عشر يوماً.
وكان عمره آنذاك خمسة وعشرين عاماً، وكانت خديجة قد بلغت الأربعين عاماً.
ولما انتهى العقد نُجِرَت الذبائح ووزَّعَت على الفقراء. وفُتِحَت دار خديجة للأهل والأصدقاء.

في بيت رسول الله ﷺ

حب الزوجة وحنان الأم

وتبدأ خديجة صفحة جديدة من حياتها مع رسول الله ﷺ. فكانت له الزوجة الوفيَّة في حبِّها، والأم الرُّوم في حنانها وعطفها.
فعاشت تشمله بحب الزوجات وحنان الأمهات. وقد وجد رسول الله ﷺ فيها عوضاً عن أمِّه التي حُرِّمَ منها وهو في السادسة من عمره، فكانت هي

اليد اللطيفة الرقيقة التي كانت تأسو الجرح القديم في حنان غامر، فكانت له عوضاً جميلاً عما قاساه من طول حرمان.

خير الأزواج

وترفرف السعادة بأجنحتها على بيت الطاهرة «خديجة»؛ فقد وجدت في رسول الله ﷺ كل ما تبغيه الزوجة من زوجها، فوجدت فيه خير الأزواج، ورأت فيه عن قرب سموًا في الخلق، فكان لها زوجًا مُخلصًا، وأخًا كريماً، وصديقاً وفيًا. فأحبتته من أعماق قلبها وبادلته وفاءً بوفاء.

وسعد الزوجان بالمودة والرحمة التي قامت بينهما، واستمرت خمسة وعشرين عامًا، لم يتزوج رسول الله ﷺ سواها؛ رغم اعتياد العرب على تعدد الزوجات. فقد كانت خديجة له بمنزلة السمع والبصر والفؤاد؛ فهي امرأة جمع الله فيها مكارم النساء كلها.

يقول رسول الله ﷺ: «خير نساء العالمين أربعٌ مريمُ بنتُ عمرانَ وآسيةُ بنتُ مُراحِمَ امرأةُ فرعونَ وخديجةُ بنتُ خويلدٍ وفاطمةُ بنتُ محمدٍ ﷺ»
أخرجه الترمذي (٣٨٧٨).

والآن أعزائي فلنعش لحظات داخل هذا البيت المبارك الذي تحفُّه المودة
والحب والوفاء:

كرم ووفاء

لقد كان الكرم والوفاء من أهم السمات التي تميز بها أهل هذا البيت
المبارك.

وهاك بعض الشواهد على ذلك:

- حليلة السعدية

لما علمت مَرُضعة رسول الله ﷺ «حليلة السعدية» بزواج ابنها جاءت من
البادية لتشارك ابنها فرحته، فلما رآها رسول الله ﷺ رحَّب بها، وفرش لها
رداءه، وتألقت في عيناه الفرحة والسعادة. وسعدت خديجة بلقاء مَرُضعة
زوجها، وقد أحبَّتها قبل أن تراها. فطالما حدَّثها عنها
رسول الله ﷺ حديثاً يَقْطُرُ حُبًّا ورحمة ودفئاً.

فلما سأل رسول الله ﷺ حليلة عن حالها، راحت تشكو إليه قسوة الحياة
والجدب الذي نزل ببادية بني سعد، فأفاض عليها من كرمه. ولما حدَّث
زوجته عما ألمَّ بمرضعته من ضيق؛ أعطتها أربعين رأسًا من الغنم، كما
وهبتها بغيرًا لتحمل عليه الماء، وزوَّدتها بما تحتاجه.

- بركة «أم أيمن»

كانت بركة جارية حبشية ورثها رسول الله ﷺ عن أبيه، وكانت حاضنته، فقد رَعَتْهُ واحتضنته خاصَّةً بعد وفاة أمه «آمنة بنت وهب»، فكانت له أُمًّا بعد أمِّه. فلما تزوَّج رسول الله ﷺ من خديجة أعتقها وزوَّجها. وقد أكرمتها خديجة عند زفافها، وأنجبت ولدها «أيمن» فكانت تُكَنَّى به. فعاشت هي وابنها في كَنَف رسول الله ﷺ وزوجته «الطاهرة».

- زيد بن حارثة

كان زيد قد بيعَ في سوق عكاظ، فاشتراه «حكيم بن حزام»، ووهبه لعمته «خديجة». وقد تعلق زيد برسول الله ﷺ وأحبه، وكذلك تعلق رسول الله ﷺ بزید وأحبه. وقد فَطِنَتْ خديجة إلى هذا الحب الأبوي، فوهبت زيداً لزوجها فأعتقه، ليس ذلك فحسب بل شرفه ونسبه إلى نفسه فكان يُدعى «زيد بن محمد».

* للاستزادة من حياة «زيد بن حارثة» ارجع إلى الجزء الثالث «حياة الصحب الكرام» للمؤلف.

- علي بن أبي طالب

كانت السيدة خديجة تُحِبُّ كُلَّ ما يُحِبُّ رسول الله ﷺ. وتضحِّي بكل ما

تملك من أجل سعادة زوجها. فلما كفل رسول الله ﷺ ابن عمه «علي بن أبي طالب» وانتقل إلى هذا البيت الطاهر، وجد في بيت الطاهرة الرحيمة «خديجة» قلبًا صافيًا وأُمًّا عطوفًا، جعلته يشعر أنه مع أمه التي ولدته، فكانت تُحسن إليه غاية الإحسان.

- أبناء خديجة

ولقد عاش أبناء خديجة من زواجها السابق معها في بيتها بعد زواجها من رسول الله ﷺ. وقد فاض قلبه الكبير على أبناء خديجة، وعاشوا في حب وسعادة في كنف خير الأنام ﷺ. - أسلفنا ذكرهم بالتفصيل -.

أبناء رسول الله ﷺ من خديجة

لقد وهب الله - سبحانه - رسول الله ﷺ من خديجة البنين والبنات، وهم:

- القاسم

كانت خديجة تتوق إلى أبناء من رسول الله ﷺ يُزيدون رابطة المحبة بينها وبين زوجها، فكانت تتضرع إلى الله أن يهبها الولد، فكانت إجابة الله لها. فبعد عامين من زواجها حملت خديجة في أول مولود لها من رسول الله ﷺ فسعدت بهذا الحمل، وسعد به رسول الله ﷺ. فوهبها الله «القاسم»، ومنذ ذلك الوقت أصبح رسول الله ﷺ يُكنى «أبا القاسم»، وكان رسول الله ﷺ يومئذ قد بلغ ثمانية وعشرين عامًا.

وفي اليوم السابع من مولد القاسم ذبحت شاتين ابتهاجًا بمقدمه. وشاء الله - عز وجل - أن يموت القاسم قبل أن يُتمَّ الرضاعة، فحزنت عليه خديجة حزناً شديداً، فواساها رسول الله ﷺ رغم شدة حزنه على ولده.

- زينب

وبعد عام من ولادة القاسم حملت خديجة زينب، وهي ابنة رسول الله ﷺ الكبرى، وفرح بها وشكر الله على هذه النعمة. وقد كان سنه ﷺ يومئذ قد قارب الثلاثين من عمره.

- رقية

وبعد عامين من ولادة زينب، حملت خديجة برقية. ولما وُلدت كان رسول الله ﷺ يومئذ يُقارب الثلاثة والثلاثين من عمره.

- أم كلثوم

وقد وُلدت بعد رقية، وهي الثالثة من بنات رسول الله ﷺ.

- عبد الله (الطاهر)

ثم بعد أم كلثوم رزقها الله - على ما قيل - بابنها «عبد الله»، وهو الملقب «بالطيب» و«الطاهر». ولكن هذا الوليد لم يعيش طويلاً، فمات قبل الفطام، فحزنت خديجة حزناً شديداً لموته؛ لأنها كانت ترجو أن يكون لها من رسول الله ﷺ ولد يحمل اسمه، وتقرّ به عينه، ولكن مشيئة الله قضت بذلك لحكمة يعلمها الله - سبحانه -.

- فاطمة

وكانت فاطمة آخر الإنجاب من خديجة، وكان رسول الله ﷺ قد بلغ السابعة والثلاثين من عمره. وقد رأت خديجة فيها شبهاً كبيراً من أبيها، فزادها ذلك الشبه فرحاً وسروراً.

أفراح بعد أحزان

وكل بنات رسول الله ﷺ أدركن الإسلام، فأسلمن وهاجرن.
وكما كان للحزن نصيب في البيت المحمدي على فراق ابناهما القاسم وعبد
الله، فقد كان لهذا البيت المبارك أفراحه.
فقد زُفت ابنتها الكبرى زينب إلى ابن خالتها «أبي العاص بن الربيع»،
وكان ذلك في حياة خديجة.
أما رقية وأم كلثوم فقد تزوجتا من «عثمان بن عفان» واحدةً بعد الأخرى.
وكان ذلك بعد أن طلقها ابنا أبي لهب «عُتْبَة وَعُتْبِيَّة» قبل أن يدخلها بهما
-وسنأتي لذكر ذلك تفصيلاً-.
أما فاطمة فقد تزوجت من عليّ بن أبي طالب.
وقد حدث كل هذا بعد وفاة السيدة خديجة. وقد أدركتهن الوفاة في حياة
رسول الله ﷺ إلا ابنته فاطمة فقد توفت بعده بستة أشهر.

بداية الوحي

وبعد خمسة عشر عامًا من هذا الزواج المبارك، تُشرق الأرض بنور ربها وتتنزل الرحمات والنفحات على المبعوث رحمة للعالمين.

بشائر الوحي

كان رسول الله ﷺ دائم الصمت، كثير التفكُّر فيمن حوله وما يعبدون. فعاشر الناس على بصيرةٍ من أمره وأمرهم، فما وجدَه حسنًا شارك فيه، وما كان سيئًا ابتعد عنه. فكان لا يشرب الخمر، ولا يأكل ما ذُبِحَ على النُّصب، ولا يحضر للأوثان عيدًا ولا احتفالاً.

وقد وجد رسول الله ﷺ خير ما يُمكنه في الإمعان فيما شُغِلت به نفسه من تفكُّر وتأمل، وهو الابتعاد عن الناس في مكان بعيد للتفكُّر والتدبُّر.

فوجد غارًا بأعلى جبل حراء على بُعد ميلين من مكة وهو «غار حراء»؛ فكان يذهب إليه طول شهر رمضان من كل عام، وفي هذا الغار وجد رسول الله ﷺ ضالته. فكان يتعبَّد فيه، ويصقل قلبه، ويقترَب إلى الحق ويتعد عن الباطل. وقد أَلَفَ الخلوة في غار حراء، واستطاب رياضته الروحية التي يشعر خلالها أنه يدنو من الحقيقة الكبرى، ويستجلي السرَّ الأعظم.

لا تضيق بالخلوات

وما كانت خديجة في وقار سنّها وجلال أمومتها لتضيق بهذه الخلوات التي تُبَعِّدُ عنها أحياناً، أو تُعَكِّرُ صفو تأملاته، كما هو معهود من فضول النساء، بل حاولت ما وَسِعَهَا الجهد أن تحوطه بالرعاية والهدوء ما أقام في البيت. فإذا انطلق إلى غار حراء زوّدته بالزاد، وظلّت عيناها تراقبه من بعيد، وربما أرسلت وراءه من يجرسه ويرعاه.

أول نزول الرحمات

فلما تكامل لرسول الله ﷺ أربعون سنة، وهي رأس الكمال، وعليها تُبَعِّثُ الرُّسُلَ. فإذا هو بالغار في شهر رمضان على عادته، آتاه جبريل فضمّه حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله وقال: اقرأ. فقال: «ما أنا بقارئ»، فأخذه جبريل وضمّه الثانية، وقال: اقرأ. فقال: «ما أنا بقارئ»، فأخذه فضمّه الثالثة، ثم أرسله، وقال: { **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** } [العلق: ١-٥].

وكانت بداية نزول الوحي وتنزل الرحمات على قلب رسول الله ﷺ.

لا يُخزيك الله أبدًا

وينطلق رسول الله ﷺ مذعورًا من الغار بعد ما سمع وما رأى، حتى انتهى إلى بيته. فكان أول من طالعها وطالعه زوجته الحبيبة. فقال لها: «زَمِّلُونِي.. زَمِّلُونِي، دَثِّرُونِي، وَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا». فرحبت به وأوسعت له، واستقبلته استقبالًا يكلِّله الحب والحنان. فسارعت إلى توفير سُبُل الراحة له، فزَمَلته وهو يرتعد كأن به حُمى. ولم تشأ أن تسأله عما حدث، فبحكمتها وذكائها عرفت أن لكل حال ما يناسبها من القول والفعل.

فلما أخذ قسطًا من الراحة وذهب عنه الرَّوع سألته عما أصابه، فقصص عليها ما حدث، وأفضى إليها بمخاوفه أن يكون به جنَّة.

فما كان من هذه الزوجة العظيمة، ملاك الرحمة وملاذ السلام لهذا القلب الكبير الخائف إلا أن تُطمئنه وتهدئ من روعه، فلم تُبد أي خوف أو ريبة، بل نظرت إليه بنظرة إكبار وضمته إلى صدرها، وقد آثار مرآه أعمق عواطف الأمومة في قلبها. وقالت بطمأنينة وثبات: «الله يرعانا يا أبا القاسم، أبشر يا ابن عم واثبت، والله لا يُخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتقرِّي الضيف، وتعين على نوائب الحق».. فتتزل كلماتها على رسول الله ﷺ بردًا وسلامًا، فيحس بالراحة والطمأنينة وهي تطمئنه بصوتها الأليف المريح.

أول مَنْ طبق مبدأ القياس في الإسلام

لما كان رسول الله ﷺ عظيمًا، وكانت مهمته عظيمة، فاختار الله - سبحانه وتعالى - له الزوجة العظيمة لتكون له عونًا ورفيقًا في هذه المرحلة الدقيقة مع بداية الدعوة. فكانت سيدة نساء العالمين، أم المؤمنين الأولى؛ السيدة خديجة رضي الله عنها.

فبكلماتها الحكيمة التي هدأت بها من روع رسول الله ﷺ؛ فإنها تقيس الأمور بمقياس صحيح، وترد كل شيء إلى أصله، فتحكم بالحكم الذي تستسيغه الفطرة السليمة، وترتضيه العقول المستقيمة. فالله - عز وجل - لا يُجزِي رجلاً هذا شأنه؛ لأنه حَكَمَ عدل، يُجازي المحسن بإحسانه. يقول الشيخ الشعراوي - رحمه الله - عن مقولتها هذه لرسول الله ﷺ: «لقد وصلت السيدة خديجة بالمقدمات إلى النتيجة، فكانت بحق أول مَنْ طبق مبدأ القياس في الإسلام».

رسالة من أم المؤمنين إلى المؤمنات

فيا لها من سيدة عظيمة، كانت سندًا وعونًا لزوجها. فيا ليت أخواتنا وبناتنا يتعلمن من أمهن؛ أم المؤمنين «السيدة خديجة»، كيف تكون الزوجة عونًا

وداعماً لزوجها عند الشدائد، وألا تكون عبئاً ثقيلاً عليه يزيد همومه همماً، بل تُعين وتصبر وتصابر، وتجعل من البلاء رحمة، ومن الكرب فرجاً.. هذه رسالة أم المؤمنين إلى المؤمنات.

مقالة ورقة بن نوفل

عوداً إلى رسول الله ﷺ

فبعد كلمات خديجة هذه أحسَّ رسول الله ﷺ بأن جسده مُتعباً وفي حاجة إلى النوم فنام. وظلت خديجة ترقبه، واستراحت عيناها عليه برهة وحدقت فيه، وقد امتلأ قلبها إشفاقاً وأملاً لهذا الذي سمعت.

فلما رآته استغرق في نومه مطمئناً هادئاً انطلقت إلى ابن عمها «ورقة بن نوفل»، فلما أخبرته بما رأى وما سمع رسول الله ﷺ قال لها: «قُدُّوس... قُدُّوس، والذي نفس ورقة بيده لئن كنتِ صدقتيني يا خديجة فلقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبيُّ هذه الأمة، فقولي له: فليثبت». فلم تنتظر خديجة مزيداً من قول ابن عمها، بل أسرعَت إلى زوجها الحبيب تحمل إليه البشري، فإذا به لا يزال نائماً كما تركته. فعزَّ عليها أن توقظه، فجلست بالقرب منه تنتظره في لهفة وحبٍّ وحنان، حتى استيقظ وبشَّرتة.

وفي رواية السيدة عائشة عن بدء الوحي قالت: «فانطلقت به خديجة حتى أتت إلى ابن عمها «ورقة بن نوفل»، وكان امرأً تنصّر في الجاهلية، يكتب من الإنجيل بالعبرانية، وكان شيخاً كبيراً قد عمي. فقالت له: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى وما سمع. فقال له ورقة: «هذا الناموس الذي نزل على موسى، يا ليتني فيه جذعاً، ليتني أكون حيّاً إذ يُخْرِجُك قومك»، فقال رسول الله ﷺ: «أو مُخْرِجِي هم؟» قال: «نعم، لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودِي، وإن يُدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً».

أول من آمن من العالمين

ويأمر الله - سبحانه - نبيه أن ينهض من ساعته لتبليغ أمر ربه. فلما رآته خديجة وهو ينظر إلى فراشه، زادت إشفاقاً عليه، وطلبت منه أن يعود إلى فراشه لينام ويستريح. فقال لها: «انقضى عهد النوم والراحة، فقد أمرني ربي أن أُنذِر النَّاسَ، وأن أدعوهم إلى عبادته، فمن ذا أدعو ومن يستجيب؟».

فكانت خديجة أول مَنْ دُعِيَ للإسلام، فقالت في حماس وبلا تردّد: «أنا أستجيب وأؤمن بك وبما أنزل عليك». فأعلنت بلسانها كلمة التوحيد،

وإن كانت هي مسلمة بقلبها قبل أن يدعوها إليه. فشعر رسول الله ﷺ بسكينة وراحة وأمان.

وهكذا تكون السيدة خديجة أول من آمن من العالمين.

يقول ابن إسحاق: «كانت خديجة أول من آمن من العالمين بالله ورسوله، وصدقت بما جاء به، فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ».

بداية الدعوة.. دور خديجة ومعاناتها

رغم ما سمعته خديجة من ابن عمها «ورقة بن نوفل» من أن رسول الله ﷺ سيلاقي من العدا والبلاء والإخراج، إلا أن السيدة خديجة رضي الله عنها قررت الصمود في وجه العاصفة المتوقعة. وظلت -وفي إصرار- كبير السند والداعم لرسول الله ﷺ، وقبلت أن تتحمل الأذى والمشقة لتؤازر زوجها ﷺ.

وهاك بعض الصور من دورها ومعاناتها في سبيل الدعوة:

البيت المبارك

ولنبداً من هذا البيت الذي وجد فيه رسول الله ﷺ كل الدعم وكل الحب، وكان محفوظاً بالبركات والرحمات.

* ففي هذا البيت كان إسلام خديجة، وكانت أول من أسلم من العالمين - كما أسلفنا -.

ولما عَلَّمَ جبريل رسول الله ﷺ الصلاة، كانت خديجة أول مَنْ صَلَّى خلف رسول الله ﷺ.

* وفي هذا البيت أسلم «عليّ بن أبي طالب»، وكان أول مَنْ أسلم مِنَ الغلمان، وكان له من المواقف الداعمة للدعوة الكثير، وهو من العشرة المبشرين بالجنة.

* وفي هذا البيت أسلم «زيد بن حارثة»، وكان أول من أسلم من الموالي.

* وفي هذا البيت أسلم بنات رسول الله ﷺ كلهن. وبذلك أصبح أفراد كل هذا البيت مسلمين.

* وفي هذا البيت كانت خديجة تدعو إلى الله، حتى امتلأت دارها من النساء يسألن عن هذا الخبر الذي ذاع، وأخذت تُخبرهن بقصته، وتؤكد لهن صحته في سرّية تامة وهدوء كامل.

* وفي هذا البيت تحمّلت خديجة مسؤولية أسرة كبيرة العدد، وتحملت أعباء بيت له همومه واحتياجاته، وهي سعيدة راضية. دون أن تُرهق زوجها بأيّ من هذه الأعباء، فأخذت تُشرف على تربية أولادها، وأداء كل ما يحتاجه البيت، حتى يتفرغ رسول الله ﷺ لأمر الدعوة.

* وفي هذا البيت وجد المستضعفون المضطهدون الذين يفرون بدينهم من قسوة الكفار وظلمهم وجدوا الملجأ والمأوى؛ فقد كانت السيدة خديجة تدهم بها ما بعدها طردهم الكفار وحرموهم العمل. فكانت تعتق العبيد، وتواسي المظلوم، وتُطعم الجائع. فكانت دارها ملجأ للخائف والمكروب، فيها طعام الجائع، ومأوى الطريد.

* وعن هذا البيت يقول المحب الطبري: «إن دار خديجة أفضل الأماكن بمكة بعد المسجد الحرام، لعل ذلك يرجع لطول سُكنى رسول الله ﷺ به، ونزول الوحي عليه فيه».

خديجة... النصره والدعم لرسول الله ﷺ

وأندر عشيرتك الأقربين

ويبدأ رسول الله ﷺ في حمل عبء الدعوة إلى الله، والتي ظلت سراً لمدة ثلاث سنوات. ثم أمره الله بأن يُنذر عشيرته الأقربين { **وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** } [الشعراء: ٢١٤]. فدعا عشيرته من بني هاشم، وكانوا نحو ٤٥ فرداً إلى بيت خديجة التي أعدت لهم الطعام، وأحسنّت ضيافتهم. فلما فرغوا من طعامهم حدثهم رسول الله ﷺ داعياً إياهم إلى دين الله، إلا أنهم قاموا وتركوه دون أن يُسلم منهم أحد، فحزن لذلك. وكانت خديجة بجواره توأسيه وتهون عليه.

اصدع بما تؤمر

ثم كان الأمر بالجهر بالدعوة { **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** } [الحجر: ٩٤]، وتصل الدعوة مُدوية إلى آذان المشركين من قريش لتكون الحرب الضارية على رسول الله ﷺ ومن تبعه من المسلمين.

وكان الإيذاء النفسي والجسدي لرسول الله ﷺ وصحبه الكرام.

* ذكرناه تفصيلاً في الجزء الأول «حياة خير الأنام ﷺ» من هذه السلسلة.

خديجة الملاذ والمأوى

وفي خِصَم هذه الأحداث الجسام، والمعاناة التي لاقاها رسول الله ﷺ وصحبه كانت أم المؤمنين خديجة هي الملاذ والمأوى:

* فكان رسول الله ﷺ لا يسمع شيئاً يكرهه من الرد عليه والتكذيب له، فيُحزنه ذلك إلا فرَّج الله عنه بخديجة، إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه، وتهوّن عليه أمر الناس.

* لما انقطع الوحي عن رسول الله ﷺ، واشتد به القلق والحزن، فوقفت خديجة بجانبه، تشجّعه وتُقوي فؤاده، وكأنها تقول له: لا تحزن يا رسول الله، فما شدة إلا وتزول، وما ضيق إلا وبعده فرج.

وظلت هكذا حتى عاود الوحي النزول. وكان قوله تعالى: **{ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى }** [الضحى: ١ - ٥].

إيذاؤها في بناتها

كان رسول الله ﷺ قد زوّج ابنته الكبرى «زينب» من ابن خالتها «أبي العاص بن الربيع» - كما أسلفنا -، كما زوّج ابنتيه رقية وأم كلثوم لعُتبة وعُتبية ابني أبي لهب.

ورأى زعماء قريش أن أشد الأمور إيذاءً لرسول الله ﷺ أن تُردَّ بناته عليه. فجأوا أبا العاص وسألوه أن يفارق زوجته زينب، فرفض ذلك. أما ابنا أبي لهب فوافقا على فراق رقية وأم كلثوم قبل أن يدخلها بهما. واكتفى عتبة بطلاق رقية، أما عتيبة فلم يكتفِ بذلك، بل زاد عليه أن ذهب إلى رسول الله ﷺ وأسمعه ما يكره. وتحملت الصابرة المثابرة خديجة رضي الله عنها ذلك الأذى في بناتها، وهونت عليهن، وعلى رسول الله ﷺ.

الهجرة إلى الحبشة.. وداع للاقاء بعده

ثم جاء عثمان بن عفان فخطب رقية وتزوجها. ولما أذن رسول الله ﷺ للصحابة بالهجرة إلى الحبشة، كان عثمان وزوجته فيمن هاجروا إلى الحبشة. ووقفت الأم الحنون خديجة تودّع ابنتها رقية وزوجها ودموعها تقطر على وجنتيها والحزن يملأ قلبها، لكنها كانت تصبر وتحسب. فلقد كانت تتمنى من أعماق قلبها أن تُضحّي بكل شيء في سبيل نصره هذا الدين. وقد كان وداع رقية لأُمها وداعاً لا لقاء بعده، فقد توفيت خديجة قبل عودة ابنتها من الحبشة.

كان هذا أعزائي قدر يسير من معاناة وتحديات كثيرة واجهتها أم المؤمنين «خديجة» رضي الله عنها في صبر واحتساب لنصرة زوجها، ونشر دين الحق، حتى كانت المعاناة الكبرى وكانت المقاطعة..

المقاطعة

فلما زادت حيرة المشركين، ونفذت بهم الحيل، ووجدوا بني هاشم وبني عبد المطلب كلهم - إلا أبا لهب - مُصمِّمين على حفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقرروا فرض حصار على بني هاشم وبني عبد المطلب: ألا يُنكحوهم، ولا ينكحوا إليهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، ولا يجالسوهم، ولا يُجالطوهم، ولا تأخذهم بهم رافة حتى يُسلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل. وكتبوا بذلك صحيفة وعلَّقوها في جوف الكعبة.

فرأى أبو طالب أن الحرب قد أُعلنت على عشيرته، فجمع بني هاشم وبني عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا في شِعبه «شعب أبي طالب»، وانحاز كل بني هاشم وبني عبد المطلب مسلمهم وكافرهم إلا أبا لهب، ودخلوا الشَّعب، ودخل معهم أيضاً العديد من المسلمين طواعية للاشتراك في حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم، مع أنهم لم يكونوا من بني هاشم أو بني عبد المطلب.

خديجة في الشعب

لم تتردد خديجة رضي الله عنها في الخروج مع زوجها، وتخلت عن دارها الحبيبة، مغنى صباها، ومجمع هواها ومثابة ذكرياتها. فقامت تتبع زوجها ورفيقها، وقد علت بها السنّ وناءت بأثقال الشيخوخة والاضطهاد. وأقامت هناك في شعب أبي طالب ثلاث سنين. وتحملت فيها شظف العيش والحرمات من نعم الحياة، حتى بلغ الجهد منها كل مبلغ. ولكنها مع ضعف جسدها ووهن صحتها وتغيير ما اعتادت عليه من نعومة العيش وطيب المأكل والمسكن، لم تعبأ بذلك في سبيل نصره الحق والدين. ليس ذلك فحسب، بل كانت تشتري بها لها خفية طعاماً للمحاصرين حتى نغد أكثر مالها، فعرف لها رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الإحسان والكرم، فوفأها حقها، وشكر لها سعيها، ودعا لها دعاءً كثيراً حتى استجاب الله له.

سيدة نساء العالمين

عاشت أم المؤمنين الأولى «خديجة» رضي الله عنها في كنف زوجها الحبيب ربع قرن من الزمان، كلها خير وبركة ورحمة. فسعدت بفجر الإسلام ينبثق من غار حراء مشرقاً بنور الله، فاستقبلته بصدر منشرح مطمئن.

وعاشت مع الدعوة بحُلُوها ومُرّها. فسعدت كل السعادة حين رأت الناس يدخلون في دين الله واحداً بعد الآخر، وانتابها الحزن الشديد حين رأت المشركين يُغالون في الكيد برسول الله ﷺ وأصحابه. فقد كانت خديجة كُفناً لرسول الله ﷺ موافقةً له في خلائقه وطباعه، فكانت له ملء السمع والبصر. لهذا لم يتزوج عليها بأخرى حتى ماتت، وقد كان تعدد الزوجات فاشياً في شبه جزيرة العرب، فمثلها لا تُضار بأخرى، وهي ما هي كمالاً وسماحةً وطهرًا... فكانت بحق سيدة نساء العالمين.

فعن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «حُسْبُكَ من نساء العالمين: مَرْيَمُ ابنةَ عِمْرَانَ، وخديجةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ، وفاطمةُ بنتُ مُحَمَّدٍ، وآسيَةُ امرأةُ فِرْعَوْنَ» (رواه الترمذي ٣٨٧٨، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣١٤٣).

بيت في الجنة

ويستجيب الله - سبحانه - لدعاء رسول الله ﷺ لخديجة، وليكون الجزاء من جنس العمل. لتنال خديجة البشرية العظمى بالجنة، وما ينتظرها من نعيم.

فمن أبي هريرة أنه قال: «أتى جبريل رسول الله ﷺ فقال: هذه خديجةُ قد أتتك، معها إناءٌ فيه إدامٌ أو طعامٌ أو شرابٌ؛ فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلامَ من ربها -عزَّ وجلَّ-، ومَنِّي، وبشِّرها بيتٍ في الجنةِ من قصبٍ، لا صخبَ فيه ولا نصبَ» (صحيح البخاري ٣٨٢٠).

فيا لها من بشرى عظيمة وفريدة! انفردت بها أم المؤمنين «خديجة رضي الله عنها»، فهذا بيت أعدّه الله - سبحانه - لها، من قصب - أي: من لؤلؤة مجوفة - فهو فريد من نوعه، ومن طراز خاص وصفه الله وصفًا يُقرب صورته للأذهان. وفي رواية أخرى: «بيت من لؤلؤة مجوفة».

وقوله: "لا صخب فيه"، أي: لا صياح فيه ولا منازعة برفع الصوت. "ولا نصب"، أي: لا تعب.

قال السهيلي: مناسبة نفي هاتين الصفتين - المنازعة والتعب -؛ أن رسول الله ﷺ لما دعا خديجة للإسلام أجابته طوعاً، فلم تُحوجه إلى رفع صوت أو منازعة ولا تعب في ذلك. بل أزالته عنه كل نصب، وأنسته في وحشته، وهونت عليه كل عسير. فكان الجزاء من جنس العمل بحق.

الفصل الأخير

وبعد ثلاث سنوات عجاف في شعب أبي طالب، ينتهي هذا الحصار الظالم، ويخرج رسول الله ﷺ وعشيرته وأصحابه بعد أن أنهكهم هذا الحصار. وكان من أشد الناس تأثراً عمّه أبو طالب الذي ناهز الثمانين من عمره، وزوجته خديجة التي ناهزت الخامسة والستين من عمرها. فبعد ستة أشهر من انهيار الحصار مات أبو طالب الذي كان كافلاً ومانعاً لابن أخيه من بطش وجبروت المشركين من قريش.

فراق الحبيبة

ولم يمض وقت طويل على وفاة أبي طالب حتى كانت أم المؤمنين الأولى في فراش الموت تودّع الدنيا، بعد أن أوهنتها المعاناة، وخاصة ما لاقت في الشعب، وهي التي عاشت حياة مُرْفَهَة ميسرة. فترقد في فراشها وزوجها ﷺ إلى جانبها يرعاها ويؤنس وحشة احتضارها، ويشيرها بما أعد الله لها في الجنة من بيت من قصب لا صخب فيه ولا نصب. ويتزود منها لفراق لا لقاء بعده في هذه الدنيا، فراق الزوجة والحبيبة والداعمة والمؤنسة.

وكانت بناتها يلازمَن فراشها ساهرات على راحتها، يبذلن كل الجهد في خدمتها، كما كانت هي تسهر مِن قبل على راحتهن.

وبعد ثلاثة أيام تُسَلِّم الطاهرة روحها الطاهرة إلى بارئها، وهي بين يدي رسول الله ﷺ، ورأسها على صدر الزوج الذي تفانت في حبه منذ لقيته، وآمنت برسالته، وجاهدت معه حتى الرمق الأخير من حياتها. فكانت له سكنًا وملاذًا.

وتسيل دموع رسول الله ﷺ وبناته، ويحملها المؤمنون إلى أرض الحجون؛ حيث يُضَجِّعُها رسول الله ﷺ في قبرها.

وكانت وفاتها بعد شهر وخمسة أيام من وفاة أبي طالب، وكان ذلك قبل الهجرة بثلاث سنين، وقد بلغت من العمر خمسة وستين عامًا.

عام الحزن

ويعود رسول الله ﷺ إلى بيته، فإذا بالدار من بعدها موحشة، وقد انطفأ السراج الذي كان يُضيء البيت، ويهدي بنوره في أحلك الظلمات.

ويفقد رسول الله ﷺ في أيام معدودات الرجل الذي كان ينتقل في ظل حمايته ليؤدِّي رسالة ربه، وبعدها بأيام يفقد المرأة التي كانت أول مَنْ آمَن به، وهوَّون عليه الخطوب، وشدَّ من عزيمته عند الكروب. فلزم رسول الله

ﷺ بيته، وأقلَّ من خروجه، ونالت منه قريش ما لم تكن تنال ولا تطمع به.

ولأجل توالي هذه الآلام والأحزان في هذا العام، من وفاة أبي طالب، ثم خديجة وما تلاه من اشتداد الأسى على رسول الله ﷺ سُمِّي هذا العام حقاً «عام الحزن».

شعاع من ضياء

ووسط هذه الغيوم والأحزان، يبدو في الأفق شعاع من ضياء، وتخبب ظنون الأعداء الذين ظنوا أن الظفر برسول الله ﷺ أصبح قريباً..

* فلم تمضِ خديجة، إلا وأمين الوحي «جبريل عليه السلام» يرعى رسول الله ﷺ غادياً رائحاً، يزود عنه البأس والإعياء. والسابقون من الأولين المؤمنين يُحيطون بنبيهم مستبسلين.

* ولم تَمُتْ خديجة، إلا والدعوة جاوزت مكة إلى أطراف الحجاز، ثم إلى ما وراءها من بلاد العرب.

* ولم تَمُتْ خديجة، إلا وموسم الحج بمكة يأتي وبه رجال من يثرب، لن يلبثوا أن يُبايعوا رسول الله ﷺ؛ ليكونوا نواة للنصرة والهجرة. ثم يكون الفتح العظيم.

هل ماتت خديجة حقاً؟

فارقت خديجة الدنيا، ولكنها لم تفارق قلب ولا عقل رسول الله ﷺ. فلم تَمُتْ في وجدانه، ولا في ذاكرته، بل ظلت ماثلة في حياته ما طالت به الحياة.

وهاك بعض الشواهد على ذلك:

روحها تُلهمه الطاقة

كان رسول الله ﷺ بعد وفاتها كلما وجد صدوداً أو إعراضاً من المشركين، رجع إلى بيت خديجة فيشعر كأنها معه فتعطيه طاقة أخرى تدفعه إلى تبليغ رسالة ربه، حتى دخل الإسلام رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

لم يزحزح أحدٌ مكانها في قلب رسول الله ﷺ

وفد بعد خديجة على بيت رسول الله ﷺ زوجات أخريات، فيهن ذوات الصبا والجمال والحسن والجاه، ولكن واحدة منهن لن تستطيع أن تزحزح خديجة من مكانها في قلب وعقل رسول الله ﷺ. مكانها الذي انفردت به، وقد ظلت شريكة حياته ربع قرن من الزمان لم تشرکها فيه أخرى.

رُزقت حُبِّها

تقول السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: ما غرتُ على نساءِ النبيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلا على خديجةَ، وإني لم أدركها. قالت: وكان رسولُ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذا ذبح الشاةَ فيقول «أرسلوا بها إلى أصدقاءِ خديجةَ» قالت: فأغضبتهُ يوماً فقلتُ: خديجةُ؟ فقال رسولُ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إني قد رُزقتُ حُبِّها» (صحيح البخاري: ٣٨١٦).

كانت تغشانا في عهد خديجة

جاءت أم زفر ماشطة خديجة إلى المدينة المنورة، فأحسن رسول الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ استقبالها، وبالغ في إكرامها. وقال: «هذه كانت تغشانا في عهد خديجة، وإنَّ حُسن العهد من الإيمان» [السلسلة الصحيحة ١ / ٤٢٤].

والله ما أبدلني الله خيراً منها

تقول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: استأذنت هالة بنتُ خويلدٍ، أختُ خديجةَ، على رسولِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. فعرف استئذانَ خديجةَ فارتاح لذلك. فقال " ! هالة بنتُ خويلدٍ " فغرتُ فقلتُ: وما تذكرُ من عجوزٍ من عجائزِ قريشٍ، حمراءِ الشدقينِ، هلكت من الدهرِ، فأبدلك اللهُ خيراً منها! فتغير وجه رسول الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقال:

«والله ما أبدلني الله خيراً منها؛ قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبتني الناس، وواستني بماها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء».

قالت: قلت: يا رسول الله اعفُ عني، ولن تسمعني أذكر خديجة بعد هذا اليوم بشيء تكرهه.

قلادة خديجة

بعد انتصار المسلمين في بدر، كان من بين الأسرى «أبو العاص بن الربيع» صهر رسول الله ﷺ وزوج ابنته الكبرى زينب، ابنة زوجته الوفية «خديجة»، فبعثت زينب فداءً لزوجها، وكان فيما بعثت قلادة كانت قلّدتها بها أمها يوم زفافها. فلما رآها رسول الله ﷺ رفق لها رقة شديدة، وتذكر زوجته الوفية خديجة. فقال لأصحابه: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردّوا عليها ماها فافعلوا».

فما كان من أصحابه إلا أن سارعوا بالاستجابة لرسول الله ﷺ الذي حرّكته مشاعر الذكرى للزوجة الصديقة الوفية الطاهرة «خديجة».

يوم الفتح.. تؤنسه روح خديجة

ولما كان يوم الفتح، وقد مضى على موت خديجة أكثر من عشر سنين، حافلةً بأحداث جسام، يُعطي رسول الله ﷺ الراية إلى الزبير بن العوام، ويأمره أن يغرزها بالحجون إلى جوار القبر الذي دُفنت فيه خديجة. وهناك ضُربت لرسول الله ﷺ قبته ليُشرف من هناك على فتح مكة، تؤنسه روح خديجة، ثم تصحبه بعد الفتح، وهو يطوف بالكعبة، ويحطم الأصنام. ملتفتاً بين الحين والحين إلى بيتها الحبيب؛ حيث نهل من نبع الحب والحنان ما تزود به لذاك الكفاح المصني الطويل.

أوليات أم المؤمنين الأولى

تقول بنت الشاطيء: «وسوف يدخل الإسلام بعد خديجة ملايين النساء، ولكنها ستظل منفردة دونهن بلقب «المسلمة الأولى»، التي آثرها الله سبحانه بالدور الأجلّ في حياة رسول الله ﷺ.

وهاك بعض أوليات أم المؤمنين الأولى:

- * أول من تزوج رسول الله ﷺ.
- * أول من طبق مبدأ القياس في الإسلام؛ كما قال الشيخ الشعراوي -رحمه الله-.

- * أول من آمن بالله ورسوله في العالمين.
 - * أول من صلى خلف رسول الله ﷺ.
 - * أول من رزق منها ﷺ الأولاد.
 - * أول من بشرها الله بالجنة، ووصف لها بيتها في الجنة.
 - * أول من أقرأها من ربها السلام.
 - * أول زوجات رسول الله ﷺ وفاءً.
 - * أول قبرٍ نزل فيه رسول الله ﷺ كان قبرها بمكة.
- وهكذا أعزائي كان هذا عرض لحياة أمنا أم المؤمنين الأولى؛ «السيدة خديجة بنت خويلد»، والتي لها دَينٌ كبير في عنق كلِّ مسلمٍ ومسلمة.

فرحمة الله وبركاته عليك يا من آمنتِ برسول الله ﷺ

حين كفر الناس وصدَّقْتِه حين كذَّبَه الناس

يا أم المؤمنين الأولى

ورضي الله عنك وأرضاكِ يا «خديجة بنت خويلد».

سودة بنت زمعة رضي الله عنها

والآن أعزائي، نحن على موعد مع زهرة جديدة فاح عبيرها على الكون كله. إنها صاحبة الهجرتين، إلى الحبشة وإلى المدينة. أول زوج لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خديجة... إنها المتأسية برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ أم المؤمنين «سودة بنت زمعة».

نسبها

هي: سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد وُدّ القرشية، العامرية.

وأماها: الشموس بنت قيس بن زيد بن عمرو بن عدي.

السابقون الأولون

وما أن ظهر نور الحق، وبدأت الدعوة إلى الإسلام حتى انشرح قلب هؤلاء السابقين الأولون، واستجابوا لدعوة الحق.

وكان من بين هؤلاء «السكران بن عمرو» أخو الصحابي الجليل «سهيل بن عمرو»، وقد أسلمت معه زوجته وابنة عمه «سودة بنت زمعة».

وهكذا كان هو وزوجته من السابقين الأولين الذين أسلمت قلوبهم وجوارحهم لله.

الهجرة إلى الحبشة

وما أن شاع خبر إسلام «السكران بن عمرو» وزوجته حتى استشاط كفار قريش غضبًا، وصبُّوا عليه هو وزوجه العذاب ألوانًا.

فلما رأى رسول الله ﷺ ما يُصيب أصحابه من البلاء أمرهم بالهجرة إلى الحبشة. وهاجر السكران بن عمرو وزوجته «سودة بنت زمعة» مع من هاجروا، وكان من بين المهاجرين «رقية» بنت رسول الله ﷺ وزوجها عثمان بن عفان.

وفي الحبشة، عاشوا في كنف النجاشي «الملك العادل». ونشأ «بين سودة بنت زمعة» و«رقية بنت رسول الله ﷺ» مودة وحب.

وفاة زوجها

ويعود السكران بن عمرو هو وزوجته «سودة بنت زمعة» إلى مكة لينعما بصحبة رسول الله ﷺ.

وتمر الأيام وهما يتعايشان في حلاوة الإيمان، رغم ما يلقون من العذاب، حتى جاءت اللحظة التي نام فيها السكران على فراش الموت، وفاضت روحه الطاهرة إلى بارئها. فحزنت زوجه عليه حزناً شديداً، وكانت قد بلغت السادسة والستين من عمرها.

وأصبحت سودة وحيدة في هذه الدنيا، ولكنها صبرت صبراً جميلاً، ورضت بقضاء الله، وهي على يقين أنه أرحم بعباده من الأم برضيعها. ولكنها لم يخطر ببالها أنها ستكون في يوم من الأيام أمّاً للمؤمنين، وزوجاً لسيد المرسلين، رسول الله ﷺ.

في رحاب رسول الله ﷺ

فراغ لا يملأه إلا خديجة

لقد تركت خديجة رضي الله عنها فراغاً هائلاً في قلب رسول الله ﷺ. وقد خلا البيت النبوي ممن يسوسه، ويُدبر شأنه، وفيه من بناته أم كلثوم وفاطمة. وهما صغيرتان ليس لهما أم ترعى شئونهما.

وعاش رسول الله ﷺ بعد خديجة سنتين أو قريباً من ذلك يُعالج أمر بيته بنفسه. فلم يفكر في امرأة تكون له سكناً في هذه الأيام العصيبة..

ومن هي التي تقوم مقام خديجة؟ فمكان خديجة لا يملأه إلا خديجة.

الصحابة وخوفهم على رسول الله ﷺ

وكان أصحاب رسول الله ﷺ من حوله يقومون بواجبهم نحوه بقدر طاقتهم، ويقدمون له بعض ما يحتاج إليه من عون ومواساة. ولكن لم يكن أي واحد منهم يجرؤ أن يشير عليه بالزواج؛ لأنهم كانوا يعرفون قدر خديجة عند رسول الله ﷺ. فكانوا يرجون أن يرزقه الله بما يخفف عنه آلامه وأحزانه.

خولة بنت حكيم.. ونفيسة بنت منبه

فلما بلغ الأمر مبلغاً لا ينبغي الصبر عليه، فشاء الحق أن تتجرأ واحدة من فضليات نساء الصحابة، ألا وهي «خولة بنت حكيم السلمية» زوج «عثمان بن مظعون الجُمحي».

فأتت رسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله، ألا تتزوج؟ فنظر رسول الله ﷺ إلى هذه الخاطبة نظرة حانية، تذكر خلالها تلك المرأة التي خطبت له خديجة، وذكرت له من محاسنها ما شاء أن تذكر، وهي «نفيسة بنت منبه». فهذا هو

التاريخ يعيد نفسه، ولكن في صورة أخرى، غير تلك التي كانت تدور في ذهنه في أول عهده بالزواج.

فقال رسول الله ﷺ لخولة: «ومن يا خولة؟» قالت: إن شئت بكرًا وإن شئت ثيبًا. قال: «من البكر ومن الثيب؟». قالت: أما البكر، فابنة أحب خلق الله إليك؛ عائشة بنت أبي بكر وكانت عائشة آنذاك في السادسة أو السابعة من عمرها، فهي صغيرة ولا تقوم بحوائج البيت.

فقال لخولة: «إنها لا تزال صغيرة»، وهي تعلم ذلك، وفي نفسها ما تريد أن تصرح به، وهو اختيارها الثاني «سودة بنت زمعة»، لكنها قدمت عائشة لعلمها أن رسول الله ﷺ لا يستطيع أن يرد خطبتها لما بينه وبين أبيها من حب ومودة. فإذا ما رضي بهذا العرض، عرضت عليه الثاني ليكون لديه البكر والثيب.

فقالت له: أما الثيب فسودة بنت زمعة. فقد آمنت بك واتبعتك على ما أنت عليه. فأذن لها بخطبتها، وقال ﷺ: «فاذهبي فاذكريها علي». فقامت بذلك على أتم وجه.

وسنرجع الحديث عن خطبة عائشة إلى أن نعرض لقصتها كاملة - إن شاء الله -.

خولة تخطب سودة لرسول الله ﷺ

كانت سودة قد بلغت السادسة والستين من عمرها - كما أسلفنا -، وهي السنّ التي ماتت فيه خديجة، فرضي رسول الله ﷺ بها زوجاً له لصالحها وتقواها، وليخفف عنها حزنها على زوجها، وليقوم بكفالتها. فقد كان أبوها شيخاً كبيراً لا يقوى على الكسب.

فتوجهت خولة إلى «سودة» وأبيها «زمعة»، فدخلت على سودة تقول: ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة يا سودة؟ فسألت سودة في دهشة: وما ذاك يا خولة؟. قالت: أرسلني رسول الله ﷺ إليك لأخطبك عليه. وحاولت سودة تمكُّ نفسها من فرط العجب والدهشة، ودموع الفرح تبلل وجهها وروحها. فقالت في صوت مرتجف: ادخلي إلى أبي فاذكري ذلك له.

فدخلت خولة عليه فحيَّته بتحية الجاهلية، وقالت: أنعم صباحاً، ثم قالت: إن محمداً بن عبدالله بن عبد المطلب أرسلني أخطب عليه ابنتك سودة. فصاح الشيخ متهللاً: إن محمداً كفءٌ كريم، ولكن ماذا تقول صاحبتك سودة؟

أجابت خولة: إنها تحبّ ذلك. قال: فادعيها لي. فلما أتت تلقاها قائلاً: أي

سودة، زعمت هذه أن محمداً بن عبد الله بن عبد المطلب أرسل يخطبك، وهو كفاءٌ كريم، أتحيين أن أزوجهك منه؟ قالت سودة: نعم. وهنا التفت زمعة إلى خولة، وقال لها: ادعي لي محمداً فليأتيا. فجاء رسول الله ﷺ وعقد عليها، فزوجه إياها بعد أن أصدقها أربعمائة درهم.

في بيت رسول الله ﷺ

وتنقل سودة بنت زمعة إلى بيت رسول الله ﷺ، فكانت أول من تزوج بعد وفاة خديجة. ومكثت عنده وحدها نحو ثلاث سنوات، حتى تزوج عائشة. وظلت سودة ملازمة للحبيب ﷺ تقتبس من هديه وأخلاقه وحلمه. وقد عرفت من اللحظة الأولى التي جمعتها بزوجها، أن الذي تزوجها هو «الرسول» ﷺ لا «الرجل» الذي لم تجرده النبوة من بشريته. لكن ذلك لم يرعها، بل حسبها أن رفعها رسول الله ﷺ إلى تلك المكانة، وأن جعل منها من أرملة «السكران بن عمرو» أمماً للمؤمنين. فرضيت كل الرضا أن تأخذ مكانها في بيت رسول الله ﷺ وأن تخدم بناته.

فكانت دائماً تبحث عن أي شيء يدخل الفرح والسرور على قلب رسول الله ﷺ وبناته.

فلما قدمت «رقية» بنت رسول الله ﷺ مع زوجها عثمان بن عفان من الحبشة، قدمت عليها سودة ترحب بها وبزوجها. وقد هبت ذكريات سودة عن هجرتها إلى الحبشة، فقد كانت سودة تقضي أغلب أوقاتها في الحبشة مع رقية وخولة بنت حكيم، وبعض النسوة يتذاكرن أمر الإسلام وأمر رسول الله ﷺ.

الهجرة إلى المدينة

ولما اشتد أذى الكفار بالصحب الكرام، أذن لهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة؛ حيث نزلوا في رحاب الأنصار الذين آووهم ونصروهم. وبعدها هاجر رسول الله ﷺ، ليقوم للإسلام دولة. ولما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة، بعث زيداً ومعه أبا رافع وأعطاهما بعيرين وخمسة درهم ليأتوا له بأهله، فخرجوا جميعاً. وخرج زيد وأبو رافع بفاطمة وأم كلثوم وبسودة بنت زمعة، وبأم أيمن وابنها أسامة. واستقرت سودة في بيت النبي ﷺ بالمدينة. هذا البيت الكريم الذي أذهب الله عن أهله الرجس وطهره تطهيراً.

مناقبها وفضائلها

نقيّة السريرة

لقد كان لسودة بنت زمعة الكثير من المناقب والفضائل. وكان خير وصف وإيجاز لتلك الفضائل والمناقب، أنها كانت «نقيّة السريرة»؛ فهي لا تحمل في قلبها ضغناً لأحدٍ، ولم يُذكر أنها أسأت أو آذت أحداً طول حياتها.

علاقتها بأزواج رسول الله ﷺ

فقد عاشت سودة مع رسول الله ﷺ نحو ثلاث سنوات الزوجة الوحيدة التي تقوم على بيت النبي ﷺ حتى جاءت «عائشة بنت أبي بكر»، فأفسحت لها «سودة» المكان الأول في البيت، وحرصت كل الحرص على أن تتحرّى مرضاة العروس الشابة، وأن تسهر على راحتها.

ثم وفدت على البيت أزواج أخريات؛ منهن حفصة بنت عمر، وزينب بنت جحش، وأم سلمة بنت أبي أمية المخزومي، فما تردّدت سودة في إثارة عائشة بإخلاصها ومودتها، وإن لم تُظهر ضيقاً بهؤلاء الزوجات؛ فكانت تُعاشرهن بالمعروف، ولا تدّخر وسعاً في خدمتهن، وتشاركهن الآلام والآمال. وكانت تُفطنهن، وتوجههن خيراً، وتُعطينهن من تجاربها ما ينفعهن في الدنيا والدين.

ومن جانبهن كانوا يبادلونها حباً بحُبٍّ ومودة بمودة. فكانت لهن بمثابة الأم الحنون، أو الأخت الكبرى.

ويؤثرون على أنفسهم

لقد كانت سودة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تعمل قدر طاقتها لإرضاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فلما كبرت وخشيت أن يُطلقها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا تُحشَر مع أمهات المؤمنين، ولا تكون في الجنة معهم، فوهبت ليلتها لعائشة؛ لأنها تعلم أنها أحب نسائه إليه، وقبِل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك. فكانت حقاً ممن يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

عائشة تُثني على سودة

وفي هذا الموقف العظيم من الإيثار الذي يندر وجوده في دنيا النساء جعل عائشة تُثني على سودة بنت زمعة. فعن عائشة قالت: «ما رأيت امرأة أحب إليَّ أن أكون في مسلاخها -أي: في مثل هديها وطريققتها - من سودة بنت زمعة، امرأة فيها حِدَّة -أي: قوة وعمق تفكير-، فلما كبرت جعلت يومها من النبي لعائشة.

خفة ظلها

لقد منح الله - سبحانه - سودة جمالاً في الروح. فكانت خفيفة الظل، رقيقة المشاعر، سمحة الوجه، طيبة الحديث. فكان يسعدنا أن ترى رسول الله ﷺ يأنس لخفة ظلها أو يستملح عبارة من عباراتها.

قالت مرّة لرسول الله ﷺ: «صليت خلفك البارحة يا رسول الله، فركعت بي حتى أمسكت بأنفي مخافة أن يقطر الدم». فتبسم رسول الله ﷺ ضاحكاً من قولها.

وقد كانت نساء النبي ﷺ يمازحنها، حباً لها ورغبة في دعابتها.

جودها وزهدا

لقد كانت «سودة بنت زمعة»، كما كان جُلُّ صحابة وصحابيَّات رسول الله ﷺ، لا تميل إلى حطام الدنيا، وتجوّد بكل شيء في سبيل مرضات الله وسبقاً للخيرات.

وإليك عزيزي القارئ هذا الموقف الذي يُلخّص كل هذه الصفات مجتمعة؛ فعن ابن سيرين: أن عمر بعث لسودة بقرارة من دراهم. فقالت: ما هذه؟ قالوا: دراهم. قالت: في القرارة مثل التمر!! يا جارية بلغيني القنع - أي: الطبق - ففرقتها، ولم تُبق شيئاً.

حرصها على طاعة الله ورسوله

لقد كانت «سودة بنت زمعة» رضي الله عنها تُسارع دائماً إلى طاعة الله ورسوله في كل وقت وحين.

وهناك بعض الأمثلة:

* لما خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحج، كانت تتسابق إلى طاعة الله سبحانه.

فعن عائشة قالت: نزلنا المزدلفة، فاستأذنت النبي صلى الله عليه وسلم سودة أن تدفع قبل حُطمة الناس - أي: قبل زحام الناس-، وكانت امرأة بطيئة فأذن لها، فدفعت قبل حُطمة الناس. وأقمنا حتى أصبحنا نحن، ثم دفعنا بدفعه.

فلئن استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما استأذنته سودة، كان أحب إليّ من مفروح به -أي: ما يفرح به كل شيء-.

فهكذا كانت عائشة تغبطها على مسارعته في طاعة الله.

* كانت سودة رضي الله عنها حريصة على اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد مماته.

فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن نساءه عام حجة الوداع: «هذه ثم ظهور الحُصر». والحُصر: جمع حصير، والمقصود أن يلزمن بيوتهن، ولا يخرجن منها. فكانت سودة تقول: «لا أُحجّ بعدها»؛ حرصاً على اتباع أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

راوية للحديث

وبالإضافة إلى كل ما سبق من مناقب وفضائل؛ فقد كانت «سودة» محدّثة راوية. فقد روت عن رسول الله ﷺ الكثير من الأحاديث.

الفصل الأخير

وظلت «سودة بنت زمعة» تعيش في كنف رسول الله ﷺ، وتنهل من نوره حتى مات وهو راضٍ عنها.

وكان الخلفاء من بعده؛ أبو بكر وعمر، وكذلك سائر الصحابة، يعلمون قدرها ومكانتها، ويحسون إليها غاية الإحسان.

وفي آخر خلافة عمر بن الخطاب نامت أم المؤمنين «سودة بنت زمعة» على فراش الموت، وفاضت روحها الطاهرة إلى بارئها. لتكون في صحبة رسول الله ﷺ في الجنة، كما كانت له زوجًا ورفيقًا في الدنيا.

فرحمة الله وبركاته عليك يا أم المؤمنين

يا نقيّة السريرة، كثيرة الصدقة، مُعطية المساكين

ورضى الله عنك وأرضاك يا «سودة بنت زمعة».

عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها

والآن أعزائي، نحن على موعد مع زهرة من أزاهير الصحبة العطرة. ولكنها ليست كسائر الأزاهير، فلها عطر خاص، وعبير ملاء الدنيا كلها علمًا وفقهًا وزهدًا وورعًا. إن زوجها هو خير الأنام، وأباها هو أحب خلق الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فهي الصديقة بنت الصديق «عائشة بنت أبي بكر» رضي الله عنها.

نسبها ونشأتها

هي: عائشة بنت أبي بكر (عبد الله) بن أبي قحافة بن عمرو بن سعد بن تيم بن مرة.

وقد عُرف قوم عائشة «بنو تيم» بالكرم والشجاعة والأمانة وسداد الرأي. كما كانوا مضرب المثل في البر بنسائهم، والترفق بهن، وحسن معاملتهن. **أما أبوها:** «أبو بكر الصديق» فكان له إلى جانب هذا الميراث الطيب، ما عُرف عنه من دماثة الخلق، وحسن المعاشرة، ولين الجانب. وقد كان أنسب

قريش لقريش - أي: يعلم أنساب قريش -.

وكان رجلاً تاجراً ذا خُلُق معروف، يأتيه رجال قومه، ويألفونه لعلمه وخبرته وحسن مجالسته.

ولما بُعث رسول الله ﷺ، أضاف أبو بكر إلى هذا كله شرف السبق إلى الإسلام، فكان أول من أسلم من الرجال. وأسلم على يديه الكثير من كبار الصحابة أمثال: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف. وكلهم من العشرة المبشرين بالجنة.

يقول رسول الله ﷺ: «ما دَعَوْتُ أَحَدًا إِلَى الْإِسْلَامِ إِلَّا كَانَتْ لَهُ كَبُورَةٌ، غَيْرَ أَبِي بَكْرٍ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَتَلَعَّمْ».

ثم كان ثاني اثنين إذ هما في الغار... وغيرها من المناقب التي لا يتسع المجال لذكرها.

* للاستزادة من حياة أبي بكر، ارجع إلى الجزء الثاني «حياة العشرة المبشرين بالجنة» للمؤلف.

أما أمها: أم رومان بنت عامر بن عمير الكنانية، فكانت من الصحابيَّات الجليلات. كانت قد تزوجت في الجاهلية من «عبد الله بن الحارث الأسدي»، فلما تُوفِّي عنها زوجها، تزوجها أبو بكر فولدت له: عائشة وعبد

الرحمن. وقد أسلمت أم رومان بمكة، وهاجرت إلى المدينة مع أهل رسول الله ﷺ وأهل أبي بكر.

وكان رسول الله ﷺ راضياً عنها؛ لما لها من حلم، وحُسن معاملتها وتبعتها لزوجها. فلما ماتت بالمدينة في السنة السادسة من الهجرة نزل رسول الله ﷺ قبرها، واستغفر لها، وقال: «اللهم لم يخف عليك ما لقيت أم رومان فيك وفي رسولك». ولما ذُليت أم رومان في قبرها، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى امْرَأَةٍ مِنَ الْحُورِ الْعَيْنِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى امْرَأَةِ رُومَانَ».

في رعاية أبوين كريمين

وُلِدَتْ عائشة بمكة في الإسلام، بعد أربع سنين من البعث، وأسلمت في طفولتها. تقول عائشة: «لم أعقل أبويَّ إلا يدينان بدين الإسلام». فهكذا نشأت عائشة بين هذين الأبوين الكريمين نشأة إسلامية، فنهلت من أبيها وأمها خير ما لديهما من علم، وحكمة، وفطنة، وفراسة. وقد كان عقلها يسبق سنّها، وقد حباها الله بذكاء مُفرط أعانها على استيعاب الكثير مما يصعب فهمه على مَنْ هم في سنّها.

في رحاب رسول الله ﷺ

زواجها من رسول الله ﷺ

كنا قد أسلفنا أن خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون كانت قد أتت رسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله، ألا تتزوج؟ وعرضت عليه أن تخطب له إن شاء بكراً، وإن شاء ثيباً. أما البكر فكانت «عائشة بنت أبي بكر» وأما الثيب فكانت «سودة بنت زمعة»، فوافق رسول الله ﷺ وطلب منها أن تقوم بهذه المهمة.

أنت أخي في الإسلام

فذهبت خولة بنت حكيم إلى بيت أبي بكر، فوجدت زوجته «أم رومان»، فقالت: يا أم رومان، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة. أرسلني رسول الله ﷺ أن أخطب عليه عائشة.

ففرحت أم رومان بهذا فرحاً كبيراً، وقالت: انتظري أبا بكر، فإنه آتٍ. فلما جاء أبو بكر قالت: يا أبا بكر، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة. أرسلني رسول الله ﷺ أن أخطب عليه عائشة. فقال: هل تصلح له، إنها ابنة أخيه؟ فرجعت خولة إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له. فقال ﷺ:

«ارجعي إليه فقولي له: أنت أخي في الإسلام، وأنا أخوك، وابنتك تصلح لي». أي: إن هذه الأخوة أخوة إيمان وليست أخوة دم ونسب.

الوفاء بالوعد

فلما سمع أبو بكر قول رسول الله ﷺ: «إنها تصلح لي»، سعد بذلك، لكنه كان قد خطبها منه المطعم بن عدي على ابنه. فقال أبو بكر في نفسه: والله إن رسول الله ﷺ أحب إليّ منه ومن أهل الأرض أجمعين، لكنني لا أخلف وعداً قط.

فأتى أبو بكر المطعم وقال له: ما تقول في أمر هذه الجارية؟ -يقصد ابنته عائشة- فأقبل المطعم على امرأته وقال لها: ما تقولين؟ فأقبلت على أبو بكر فقالت: لعلنا إن نكحنا هذا الصبي إليك تصيبه وتدخله في دينك.

فأقبل أبو بكر على المطعم، وقال له: ما تقول أنت؟ فقال إنها لتقول ما تسمع. فسعد أبو بكر بهذا الرد، وقام وليس في نفسه من الوعد شيء. وعاد إلى بيته ليجد خولة هناك فقال لها: قولي لرسول الله فليأت. فجاء رسول الله ﷺ فزوّجها له أبوها.

فاجتمع لأبي بكر مع الصحبة المصاهرة، فكان بذلك أسعد الناس.

عائشة زوجاً لرسول الله ﷺ

وهكذا أصبحت عائشة زوجاً لرسول الله ﷺ، وكان عمرها آنذاك ست سنوات، فلم يرض رسول الله ﷺ أن ينزع الصبية اللطيفة المرححة من ملاهي حداتها، أو يُثقل كاهلها بأعباء الزوجية، بل تركها حيث هي في بيت أبيها ترح مع صواحبها وأتراها خالية البال.

رغم أنها كانت تعرف معنى الزواج، وتدرك حقوق الزوجية على صغرها؛ لأن الكثير من أتراها كن يُخطبن في هذا السن، وكانت أمهاتهن تعلمهن وهن في هذا السن، ما يجب لهن من حقوق وما عليهن من واجبات.

وكان رسول الله ﷺ يأتي بيت أبيها فيكلمها وتكلمه، ويداعبها وتداعبه، وقد بادلها حباً بحب. وطاب لعائشة أن ترى رسول الله ﷺ في عظمته ووقاره يرتاح إليها ويأنس إلى صحبتها، ويجد في عالمها المرح ما يخفف عنه.

الهجرة إلى المدينة

لما أذن لرسول الله ﷺ في الهجرة، واختار أبا بكر صاحباً، فذهب رسول الله ﷺ إلى أبي بكر ليخبره بالنبأ. فلما أخبره أحست عائشة ضيقاً وقلقاً من الفراق الوشيك. وتطلعت إلى الحبيب المصطفى ﷺ ثم إلى أبيها، فما راعها

إلا أن رأته يبكي من الفرح. وما شعرت قط في سنها هذه قبل اليوم أن أحداً يبكي من الفرح، حتى رأت أباها يفعل ذلك.

وأخذ المهاجران طريقهما إلى غار ثور، وبقيت عائشة في الدار قَلِقَةً مع أختها أسماء، وقد غاب عنها أحب اثنين إلى قلبها؛ زوجها ﷺ وأباها. وبقيا المهاجران في الغار ثلاث ليال، وقد كان عبد الله بن أبي بكر وأخته أسماء يذهبان إليهما في الغار كل ليلة. فكان عبد الله يخبرهما بخبر قريش، وكل ما يرصده طوال يومه، أما أسماء فكانت تدبر لهما طعاماً تحمله إليهما كل ليلة.

وكانت مشغلة عائشة كل ليلة، أن تُحْمَلَ أختها أسماء سلامها ودعواتها للمهاجرين العزيزين. وتنتظرها حتى تعود لتسمع منها ما رأت من حالها. فلما كانت الليلة الثالثة، ووقفت عائشة ترقب عودة أختها في لهف وشوق وشجون، حتى أقبلت أسماء أخيراً تسير على عجل، مضطربة الخطوات متلاحقة الأنفاس، لتُخْبِرَ عائشة نبأ خروجها سالمين من الغار.

ومضت أيام وليال، لم يكن لمكة فيها حديث إلا عن مطاردة المهاجرين، وتضاربت الأنباء في وجهتهما، حتى جاء خبر من يثرب أن رسول الله ﷺ وصاحبه قد وصلا إلى هناك. وقد خرج الناس فرحين مُهلِّلين لاستقبالهما. فعرفت عائشة مكان الحبيب وهدأت نفسها.

استقدام عائشة وأهل بيت رسول الله ﷺ إلى المدينة

وبعد أن استقر رسول الله ﷺ في المدينة، أرسل زيد بن حارثة ومولاه أبو رافع ليأتيا بأهله، وأرسل أبو بكر معها برسالة إلى ابنه عبد الله يطلب إليه أن يلحق به، مصطحبًا زوجته أم رومان وابنتيه أسماء وعائشة.

وخرج الجمع في صحبة واحدة: سودة بنت زمعة، وابنتي رسول الله ﷺ أم كلثوم وفاطمة، وأهل أبي بكر: أم رومان، وابنتيه أسماء وعائشة. ومضت الأيام وعائشة فرحة مبهجة، فلما كانوا ببعض الطريق نفرَ بعيرها فاستغاثت أمها؛ أم رومان مذعورة: «وابنتاه واعروساه»، فأسرع عبد الله بن أبي بكر وزيد بن حارثة وأبو رافع فردوا البعير النافر. ومن ثمَّ سكنت عائشة فوق راحلتها، وأسبلت عينيها مُتثنية بقرب لقاء الأحباب.

اكتمال الزواج

وتستقر عائشة في بيت أبيها بالمدينة، وقد أصبح رسول الله ﷺ أكثر قربًا لها من ذي قبل لما كانت بمكة وهو بالمدينة.

فلما كان يوم بدر، وكتب الله النصر للمؤمنين. ويمضي شهر رمضان ويحيى شهر شوال من السنة الثانية للهجرة، فتحدث أبو بكر إلى رسول الله ﷺ في

إتمام الزواج الذي عُقدَ بمكة قبل ثلاث سنوات. فلبي رسول الله ﷺ، وقد بلغت عائشة يومئذ تسع سنين.

يوم العرس

وكان يوم العرس الذي كان يوماً مشهوداً. فقد ذهب رسول الله ﷺ إلى بيت أبي بكر؛ حيث اجتمع رجال ونساء من الأنصار والفرجة تعلقو وجوههم وتملاً قلوبهم.

وتصف عائشة يوم عرسها فتقول: «جاء رسول الله ﷺ بيتنا فاجتمع إليه رجال ونساء من الأنصار، فجاءتني «أم رومان» وأنا في أرجوحة بين عذقين، فأنزلتني ثم سوت شعري، ومسحت وجهي بشيء من ماء. ثم أقبلت تقودني حتى إذا كنت عند الباب وقفت بي حتى ذهب عني بعض نفسي. ثم أدخلتني الدار، فإذا بنسوة من الأنصار في البيت فقلن: «على الخير والبركة»، فأسلمتني إليهن فأصلحن من شأني. ثم أدخلتني على رسول الله ﷺ وقالت: «هؤلاء أهلك، فبارك الله فيهن، وبارك لهن فيك»، فوثب القوم والنساء فخرجوا، وبنى بي رسول الله ﷺ في بيتي. ما نُحِرْتُ عليَّ جزوراً، ولا ذُبِحَتْ من شاة. وأنا يومئذ ابنة تسع سنين، حتى أرسل

إلينا سعد بن عبادة بجفنة كان يُرسل بها إلى رسول الله ﷺ، وحمل إلينا قدح من لبن شرب منه رسول الله ﷺ، ثم تناولته فشربت منه على استحياء».

عائشة وشهر شوال

وكان ذلك في شهر شوال.. تقول السيدة عائشة: «تزوجني رسول الله ﷺ في شوال وبنى بي في شوال». تقصد يوم زواجها من رسول الله ﷺ بمكة كان في شهر شوال، وكذلك يوم بنى بها في المدينة كان أيضًا في شوال. قال عروة بن الزبير: كانت عائشة تستحب أن تُدخِل نساء قومها في شوال تفاعلاً وتيمناً بهذا الشهر.

زوجك في الدنيا والآخرة

لقد كان زواج رسول الله ﷺ بعائشة بوحى من السماء، فلقد رآها في منامه ثلاث ليال، وكان جبريل يأتيه بصورتها، ويقول: «هذه زوجتك في الدنيا والآخرة».

فعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «أريتك في المنام ثلاث ليالي، جاءني بك الملك في سَرْقَةٍ -أي: قطعة- من حريرٍ، فيقول: هذه امرأتك».

فأكشف عن وجهك، فإذا أنت هي، فأقول: إن يك هذا من عند الله، يُمضه» (أخرجه البخاري ٣٨٩٥، ومسلم ٢٤٣٨).
وفي رواية تقول عائشة: «إن جبريل جاء بصورتها في خرقة حرير خضراء إلى النبي ﷺ فقال: هذه زوجك في الدنيا والآخرة».

في بيت رسول الله ﷺ

وتنتقل عائشة من بيت أبيها إلى بيت رسول الله ﷺ، وما كان هذا البيت سوى حجرة من الحجرات التي شُيِّدت حول المسجد من اللبن وسقف من نخيل، وضع فيه فراش من آدم حشوه ليف، ليس بينه وبين الأرض إلا الحصير، وعلى فتحت الباب أسدل ستار من الشعر.

وفي هذا البيت المتواضع بدأت السيدة عائشة حياة زوجية حافلة، ستظل حديث التاريخ إلى يومنا هذا، وإلى يوم الدين. وفي هذا البيت اكتمل نمو عائشة، ونضجت شخصيتها، وتدرجت بين عيني رسول الله ﷺ من صبية يأتيها زوجها بصواحبها ليلعبن معها إلى شابة ناضجة مجربة، ثم إلى مرجع مهم في الفقه والحديث.

وقد كانت السعادة ترفرف على بيوت النبي ﷺ على الرغم من بساطتها

وتواضعها، وحياة التقشف التي عاشها رسول الله ﷺ وأهله. فقد كانت تمرّ الأيام والأسابيع ولا تُوقَد في بيوت النبي ﷺ نار. وإنما كانوا يأكلون الأسودين: التمر والماء.

عائشة وخديجة

ولقد كان لعائشة مكانة خاصة في قلب رسول الله ﷺ، ولكن أوفى الأوفياء ﷺ كان مخلصًا لخديجة. فزواجه من عائشة لم يُنسه خديجة بنت خويلد، فكان يذكرها دائمًا بكل الخير ويدعو لها، ويرحب بمن كانت تزوره في بيتها.

وقد شغل عائشة هذا الحب العميق الذي ظفرت به خديجة من زوجها ﷺ، وتلك المكانة التي احتفظ بها لمن استأثرت بكل عواطفه نحو ربع قرن من الزمان. ليس ذلك فحسب، بل بقيت خديجة تشاركها عواطف زوجها وهي راقدة في مثواها بالحجون من ثرى مكة.

وعبثًا حاولت عائشة أن تُباهيها بشبابها، وتفآخرها بأنها زُفت بكرًا لرسول الله ﷺ دون غيرها من النساء، وأن الله أبدله من هي خير منها. ولكن رسول الله ﷺ كان يقول لها في ثباتٍ ونبرة غضب: «والله ما أبدلني الله خيرًا

منها؛ قد آمنت بي إذ كفر بي النَّاسُ، وصدَّقْتَنِي إذ كذَّبَنِي النَّاسُ، وواستني
بِهَا إذ حَرَمَنِي النَّاسُ، ورزَّقَنِي اللهُ منها الولد دون غيرها من النساء».
هنا أدركت عائشة رضي الله عنها مكانة خديجة رضي الله عنها، وظلت بعدها لا تذكرها إلا
بخير. ورضيت أن تحتل المكانة الثانية في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خديجة.

أم عبد الله

وزاد من شدة الموقف أن الشهور مضت والسنون، وعائشة لا تُنجب
لزوجها ولدًا. وكانت تحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وترجو أن يكون لها ولد منه، كما
كان لخديجة.
والتفت عائشة حولها تلتمس من أبناء إخوتها من تفيض عليه عوطف
أمومتها، فأنزلت «عبد الله بن الزبير» ابن أختها أسماء منزلة الابن.
فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اكتني بابن أختك؛ عبد الله بن الزبير»؛ فكانت
كُنيتها «أم عبد الله». ولما مات أخوها «عبد الرحمن بن أبي بكر» ضمت إليها
ابنه القاسم، وابتته الطفلة. يقول القاسم بن عبد الرحمن: «فما رأيت والدة
قط أبر منها».

حادثة الإفك

وتمر الأيام وتنعم السيدة عائشة بنور الحبيب المصطفى ﷺ، وعاشت معه تسع سنين عيشة راضية، وإن كانت كفافاً، وسعدت بنظرها إليه وحديثها معه. لا تجد مما يُعكّر صفو حياتها ذا بال، حتى لقي رسول الله ﷺ ربه.. إلا حادثة الإفك، أو قل «محنة الإفك» كما يجب البعض أن يسميها. تلك الحادثة التي زلزلت كيانها، وأقلقت مضجعها، وأصابتها في مقتل، لولا عناية الله بها لهلكت حزناً وكمداً.

فماذا حدث؟ وماذا كانت دوافع ونتائج تلك الحادثة؟.. هذا ما سنعرضه عليك عزيزي القارئ في السطور القادمة.

عائشة مع النبي ﷺ في بني المصطلق

كان من عادة رسول الله ﷺ عند خروجه لغزوة من الغزوات يُتوقع طول مدتها أن يُجري قرعة بين نساءه، ومن يخرج سهمها تصحبه.

وعندما تأهب لغزو بني المصطلق خرج سهم عائشة، فخرجت معه.

وكانت عائشة نحيفة خفيفة، فكانوا إذا جاءوا بالهودج إلى بابها خرجت إليه وجلست فيه، ثم يأتي الرجال فيحملونه ويضعونه على ظهر البعير، وهم لا

يكادون يشعرون بها لخفة وزنها، ثم يأخذون برأس البعير وينطلقون به. وكذلك يفعلون في كل مرة حين يُنسخون للراحة. فلما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة بني المصطلق فسار ومن معه عائداً إلى المدينة، حتى إذا كان قريباً منها نزل منزلاً بات فيه بعض الليل، ثم أذن في الناس بالرحيل. وكانت عائشة قد خرجت من خيمة النبي ﷺ لبعض حاجتها، والهودج أمام الخيمة في انتظار دخولها فيه.

تخلف عائشة عن الركب

وكان لعائشة عقد ثمين سقط من عنقها وهي في بعض حاجتها، فلما عادت إلى مكانها حيث الهودج التمسست العقد فلم تجده، فرجعت أدراجها تبحث عنه، حتى وجدته.

وفي هذه الأثناء كان الرجال الموكِّلون بهودجها قد حملوه ظانين أنها به، ولم يلمسوا فرقاً في ثقل الهودج لنحافتها وخفة وزنها، فلم يتتبع الرجال إلى غيابها فوضعوا الهودج على ظهر البعير وارتحلوا.

فلما عادت إلى مكان القافلة لم تجد أحداً، فالتفت في جلبابها، واضطجعت في مكانها، وهي لا تشك أنهم إذا افتقدوها فلم يجدوها، رجعوا إليها.

فخيرٌ لها أن تبقى مكانها من أن تضرب في الصحراء على غير هدى فتضل السبيل.

عودتها إلى المدينة مع صفوان

وبينما هي مضطجعة؛ إذ مر بها «صفوان بن المُعطى»، وكان قد تخلف عن الركب لبعض حاجته. فلما رآها قال: «إنا لله وإنا إليه راجعون، ظعينة - أي: زوجة - رسول الله، ما خلفك رحمك الله؟ فلم ترد عليه حياءً، فقرب إليها البعير الذي كان معه، واستأخر عنها فركبت وأخذ برأس البعير وانطلق سريعاً ليلحق بالناس، فلم يدركهم في الطريق. وبعد وصولهم للمدينة بساعات معدودة، وصل صفوان وهو يقود ناقته وعليها عائشة.

وكان ذلك وضح النهار بأعين الناس، فلما كانت عند منزلها بين منازل نسوة رسول الله ﷺ نزلت إليه، ولا يجول بخاطر أحد أن يُحدث في أمرها قولاً، أو يُثير حول تأخرها شبهة، ولا في صفوان المؤمن حسن الإيمان.

حديث الإفك

لما رأى المنافقون وأعداء الإسلام المُحدقون به أن قبضتهم العسكرية ومواجهة المسلمين في ميادين القتال لا جدوى منها، وقد انهارت عزائمهم، عمدوا إلى أسلوب جديد في الحرب، وهي الحرب النفسية وإطلاق الشائعات.

فلما كان من قدوم عائشة وقد تأخرت عن المعسكر مع صفوان على بعيره، تكلم الناس كلُّ منهم بشاكلته وما يليق به، ووجد رأس النفاق «عبد الله بن أبي» مُتنفِّسًا يتنفس فيه كرب النفاق والحسد، فجعل يحكي الإفك ويُشيعه ويُذيعه قدر طاقته.

الخبير يبلغ رسول الله ﷺ

وكان أكثر من خاضوا في هذا الحديث إلى جانب عبد الله بن أبي، مسطح بن أثاثة - ابن خالة أبي بكر - وحمنة بنت جحش - أخت زينب بنت جحش - زوج رسول الله ﷺ، أما زينب نفسها فلم تتكلم عن عائشة إلا خيرًا. وكانت حمنة تجد من حسان بن ثابت عونًا. فلما بلغت هذه الأنباء رسول الله ﷺ ظل صامتًا لا يتكلم، إلا أنه كان في حيرة من أمره.

مرض عائشة

أما عائشة، فلم يجرؤ أحدٌ أن يبلغها من هذا الحديث شيئاً، ثم إنها مرضت بعد ذلك مرضاً شديداً فلاحظت من رسول الله ﷺ جفاءً لم تعرفه منه، فكان إذا دخل عليها وأمها تُرضعها لم يزد عن قوله: «كيف تبيكم؟». فضاقت عائشة من هذا، وبلغ من ضيق ذرعها بجفاء رسول الله ﷺ إياها، أن قالت له يوماً: «لو أذنت لي فانتقلت إلى بيت أمي فمررتني». فوافق رسول الله ﷺ وانتقلت إلى أمها، وفي نفسها من الدهشة ما آذاها وآلمها، وهي لا تعرف من كل ما يدور حول اسمها من حديث الناس شيئاً.

تأذي رسول الله ﷺ من حديث الناس

أما رسول الله ﷺ، فبلغ من تأذيه بترامي هذه الأخبار إليه أن قام يوماً في الناس يخطبهم فقال: «أيها الناس، ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عني غير الحق، والله ما علمت عنهم إلا خيراً، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتي إلا معي».

فقام أسيد بن حُضير - سيد الأوس - فقال: يا رسول الله، إن يكونوا من إخواننا من الأوس نكفيكهم، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمُرنا

بأمرك، فوالله إنهم لأهل أن تُضرب أعناقهم. فردَّ عليه سعد بن عبادة - سيد الخزرج - فقال: إنما تقدم بهذه المقالة لأنه يعرف أنهم من الخزرج ولو كانوا من الأوس ما قالها، وكادت تحدث الفتنة لولا حكمة رسول الله ﷺ وحسن مداخلته حتى سكتوا.

الخبر يبلغ عائشة

وظلت عائشة في بيت أمها حتى نقيت، بعد بضع وعشرين ليلة. وذات يوم خرجت إلى الخلاء لقضاء حاجتها وكانت معها أم مسطح - خالة أبي بكر - وبينما هي تمشي إلى جوارها عثرت أم مسطح في ثوبها، فدعت على ابنها مسطح، فاستنكرت عائشة ذلك منها. فأخبرتها أم مسطح الخبر، فلما عرفته كاد يُغشى عليها من هولته. وانطلقت تبكي وذهبت إلى أمها، وقالت لها والعبرة تخنقها: يغفر الله لك يا أمه! تحدث الناس بما تحدَّثوا به، ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً. ورأت أمها ما بها من همٍّ، فحاولت أن تخفف عنها فقالت: «يا بُنيَّة، هوَّني علي نَفْسِك الشَّان، فوالله لقلِّمًا كانتِ امرأةٌ قطُّ وضيئةٌ عند رجلٍ يُحبُّها ولها صرَّائرٌ إلا أكثرنَ عليها».

إلا أن عائشة لم تهتم بردّ أمها، ولم يشف ما بها من ألم. وزادها ألماً أن ذكرت جفاء رسول الله ﷺ إياها، وأن شعرت بأنه وقع في نفسه من هذا الحديث أثر، وقامت بنفسه منه ريبة، لكن ما عساها أن تفعل؟

رسول الله ﷺ يشاور أسامة وعليّاً

ولم يكن رسول الله ﷺ خيراً منها مكاناً، فقد آذاه ما يتحدث به الناس حتى اضطر إلى أن يتشاور مع خُصائه ماذا يصنع؟

فدعا رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب، وأسامَةَ بْنَ زَيْدٍ، حين استلبت الوحي، يستشيرهما في فراق أهله؛ فأما أسامة فأشار عليه بما يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه من الودّ لهم، فقال أسامة: هم أهلك يا رسول الله، ولا نعلم والله إلا خيراً.

وأما عليّ بن أبي طالب فقال: يا رسول الله، لم يُضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وسلّ الجارية تصدّقك، فدعا رسول الله ﷺ بريدة -جارية عائشة-، فقال: أي بريدة، هل رأيت فيها شيئاً يريبك؟ قالت له بريدة: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت منها أمراً أغمصه عليها أكثر من أنّها جارية حديثه السنن، تنام عن عجين أهلها، فيأتي الداجن فيأكله» (صحيح البخاري ٣٩١٠).

مواجهة رسول الله ﷺ مع عائشة

أخيراً لم يبقَ أمام رسول الله ﷺ إلا أن يواجه زوجته ويعرف منها حقيقة الأمر، فدخل عليها وعندها أبوها وأمها وامرأة من الأنصار وهي تبكي، فجلس وحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، يا عائشة، فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنتِ بريئة فسيبرئكِ الله، وإن كنتِ ألمتِ بذنبٍ فاستغفري الله، وتُوبي إليه، فإنَّ العبدَ إذا اعترف بذنبه، ثم تابَ تابَ الله عليه».

صبرٌ جميلٌ والله المستعان على ما تصفون

فما أن أتمَّ رسول الله ﷺ حديثه، حتى جفَّ في عينها الدمع وتلفتت ناحية أبويها، وقالت لهما: ألا تُجيبان رسول الله؟ فقالا: والله ما ندرى بما نُجيبه. وهنا وجَّهت عائشة الكلامَ إلى رسول الله ﷺ وقالت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرتُ أبداً، والله إني لأعلم لئنُ أقررتُ بما يقول الناس -والله يعلم أني منه بريئة - لأقولن ما لم يكن، ولئنُ أنكرت ما يقولون لا تصدقونني، ولكن سأقول كما قال أبو يوسف: { فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ } [يوسف: ١٨].

ما كنت أظن أن الله مُنزل في شأني وحيًا يُتلى

تقول السيدة عائشة: «ثم تحوّلتُ، فاضطجعتُ على فراشي، وأنا والله حينئذٍ أعلم أني بريئةٌ، وأنَّ الله مُبرِّئِي بِرَءَاتِي، ولكن والله ما كنت أظنُّ أن الله يُنزل في شأني وحيًا يُتلى، ولشأني في نفسي كان أَحقرَ من أن يتكلَّم اللهُ فيَّ بأمرٍ يُتلى، ولكن كنتُ أرجو أن يَرى رسولُ اللهِ ﷺ في النوم رؤيا يُبرِّئني اللهُ بها» (صحيح البخاري ٣٩١٠).

نزول الوحي ببراءة عائشة

فلم يبرح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشاه من الوحي ما كان يتغشاه، فسجى بثوبه، ووَضعتُ له وسادة من آدم تحت رأسه، فلما سُرِّي عنه جلس يتصبَّب عرفًا، فجعل يمسحه عن جبينه ويقول: «أبشري يا عائشة قد أنزل اللهُ براءتك». فقالت أمها: قومي إليه، فقالت عائشة -دلالة لبراءة ساحتها وثقة بمحبة رسول الله ﷺ-: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله.

وخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فألقى على المسلمين هذه الآيات التي نزلت لتبرئ ساحة عائشة: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ

وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ
 مِنْكُمْ لَا تحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ
 الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلَا إِذ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ
 الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِنَفْسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ * لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ
 بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ * وَلَوْلَا
 فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ
 عَظِيمٌ * إِذ تَلَقَّوْنَهُ بِالِاسْتِتْكَامِ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ
 وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَا إِذ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ
 نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ
 كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ
 تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
 وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ {

[النور: ١١ - ٢٠]

والإفك: هو ممتهى الكذب والزور والبهتان

رمي المحصنات.. تنفيذ حكم الله في رماة عائشة

وفي هذه المناسبة كذلك نزلت عقوبة رمي المحصنات: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور: ٤].

وتنفيذاً لحكم القرآن أمر بمسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش فُضرب كل منهم ثمانين جلدة.

وهكذا عادت عائشة رضي الله عنها إلى مثل مكانتها الأولى في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن قلبه.

وما كان يستطيع النبي صلى الله عليه وسلم أن يُبرئ عائشة وصفوان من تلقاء نفسه، فإن ذلك لا يُزيل الشك في نفوس بعض المؤمنين، فضلاً عن المنافقين والمشركين، فلبث ينتظر من الله البراءة، وإنه ليعلم أنها بريئة، وأن صفوان بريء، ولكنه يريد أن تكون البراءة من الله مباشرة، وفي قرآن يُتلى حتى لا يكون هناك ريبة لمرتاب في أي زمان وفي أي مكان.

مكانتها في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم

وتمر هذه الحادثة، وتعود السيدة عائشة إلى البيت النبوي، لتأخذ مكانها

الطبيعي بين أزواج رسول الله ﷺ ومكانتها في قلب رسول الله ﷺ، وقد نصرها الله نصرًا إلهيًا. جعل براءتها من الإفك الأثيم قرآنًا يُتَعَبَّدُ به إلى يوم الدين. ولقد كانت السيدة عائشة رضي الله عنها تحتل مكانة عالية في قلب رسول الله ﷺ.

وهاك بعض الشواهد على هذا الحبّ وتلك المكانة:

من أحب الناس إليك؟

يقول عمرو بن العاص: قلت: يا رسول الله، من أحبُّ الناس إليك؟ قال: عائشة، قلت من الرجال؟ قال: أبوها. (صحيح البخاري ٤١٠٠).

ما أهجر إلا اسمك

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت عليّ غضبي». فقلت: ومن أين تعرف ذلك؟ قال: «أما إذا كنت عني راضية، فإنك تقولين: لا ورب محمد! وإذا كنت غضبي، قلت: لا ورب إبراهيم». قلت: أجل والله يا رسول الله! ما أهجر إلا اسمك. (صحيح البخاري ٤٩٣٠).

لا تؤاخذني فيما لا أملك

كان رسول الله ﷺ يفضّل السيدة عائشة على سائر أزواجه في نطاق الحبّ، ويعدل بينهن فيما سوى ذلك. فكان يقول حين يقسم بينهن: «اللَّهُمَّ هَذَا قَسَمِي فِيمَا أَمْلِكُ فَلَا تَلْمَنِي فِي مَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ» (مستدرک الحاکم ٢٧٦١ وصححه ووافقه الذهبي).

كان هذا أعزائي قدر يسير من كثير ذكّر في هذا الباب لا يتسع المجال لذكرها جميعًا.

الوداع.. فراق الحبيب

وتمر السنوات التي تلت حادثة الإفك والسيدة عائشة مع الحبيب المصطفى ﷺ تشهد انتصاراته، وترى دعوته وهي تنتشر وتمتد كنور الفجر يغزو الظلمات.

مقدمات الوداع

ثم آن للجسد أن يستريح بعد أن أتم الله - سبحانه - لرسوله ﷺ النصر والفتح المين، ودخل الناس في دين الله أفواجًا. فلما تكاملت الدعوة وانتشر الإسلام في كل أرجاء الجزيرة أخذت مقدمات الوداع تطلع من مشاعره

ﷺ وتنضح بعباراته وأفعاله. فإن الأحداث العظيمة دائماً يسبقها من الإرهاصات والعلامات التي تشير إلى قرب وقوعها. فكانت مقدمات الوداع ومنها:

* لما بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن، خرج معه يوصيه ويودّعه. فلما فرغ قال: « يَا مُعَاذُ ، إِنَّكَ عَسَى أَنْ لَا تَلْقَانِي بَعْدَ عَامِي هَذَا ، أَوْ لَعَلَّكَ أَنْ تَمُرَّ بِمَسْجِدِي هَذَا وَقَبْرِي ، فَبِكِّي مُعَاذُ حَشَعًا لِفِرَاقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ التَّمَّتْ ، فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ نَحْوَ الْمَدِينَةِ ، فَقَالَ : «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِی الْمُتَّقُونَ ، مَنْ كَانُوا وَحَيْثُ كَانُوا» (أخرجه أحمد ٢٢٤٠٢).

* كان رسول الله ﷺ يعتكف كل سنة عشرًا من رمضان، فاعتكف في السنة الأخيرة عشرين ليلة. وكان جبريل يدارسه القرآن مرة في رمضان، فدارسه مرتين في السنة الأخيرة.

* لما خرج رسول الله ﷺ في حجة الوداع قال: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ ، لَا أُدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ» (صحيح مسلم ١٢٩٧).

* لما كان بعرفات في حجة الوداع نزلت عليه الآية {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣]؛ فبكى أبوبكر وقال: ما اكتمل شيء إلا نقص، فقال له رسول الله ﷺ: «صدق».

اخترت لقاء ربي

وفي آخر شهر صفر سنة ١١ هجرية خرج رسول الله ﷺ إلى البقيع ولم يسطحب معه إلا مولاه أبو مؤيَّبه. فعن أبي مؤيَّبه مولى رسول الله ﷺ قال: بعثني رسول الله ﷺ من جوف الليل، فقال: يا أبا مؤيَّبه! إني قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع، فانطلق معي، فانطلقت معه، فلما وقف بين أظهرهم قال: السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهن لكم ما أصبختم فيه مما أصبح فيه الناس، لو تعلمون ما نجاكم الله منه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع أولها آخرها، الأخره شر من الأولى، قال: ثم أقبل عليّ فقال: يا أبا مؤيَّبه! إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، وخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي - عز وجل - والجنة. قال: قلت بأبي وأمي فخذ مفاتيح الدنيا والخلد فيها ثم الجنة. قال: لا والله يا أبا مؤيَّبه، لقد اخترت لقاء ربي عز وجل والجنة، ثم استغفر لأهل البقيع ثم انصرف فبدي رسول الله ﷺ في وجعه الذي قضاؤه الله - عز وجل - فيه. (مسند أحمد ١٦٠٤٠ وصححه الأرنؤوط).

بداية مرض رسول الله ﷺ

ويعود رسول الله ﷺ من البقيع إذ أخذه صداع في رأسه، واتقدت حرارة جسده، فلما دخل بيت عائشة وجدها تشكو صداعاً في رأسها وتقول: وارأساه. فقال لها: «بل أنا والله يا عائشة وارأساه»، فكررت عائشة شكواها من الصداع. فقال لها رسول الله ﷺ مداعباً: «وما ضَرَّكَ لو مُتَّ قبلي فقامت عليك وكففتك وصليت عليك ودفنتك» فقالت عائشة: ليكن ذلك حظ غيري! والله لكأني بك قد فعلت ذلك، ورجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك، فتبسم رسول الله ﷺ.

رسول الله ﷺ يُمرِّض في بيت عائشة

وقد زاد الوجع والحُمى على رسول الله ﷺ، فلما سكن عنه الألم بعض الشيء، قام يطوف بأزواجه كما عودهن. وكأنه يودعهن، لكنَّ الألم جعل يعاوده وتزداد به شدته، حتى إذا كان في بيت ميمونة، لم يُطق مُغالبة الآلام. هنالك دعا نساءه إليه واستأذنهن أن يُمرِّض في بيت عائشة، فأذنَّ له. فخرج عاصباً رأسه يسنده عليّ بن أبي طالب والفضل بن العباس، حتى دخل بيت عائشة، ليقضي عندها آخر أيام في حياته.

مُروا أبا بكر فليصل بالناس

فلما ثقلَ المرض برسول الله ﷺ ولم يستطع الخروج إلى المسجد للصلاة فقال: «مُروا أبا بكر فليصل بالناس». وكانت السيدة عائشة رضي الله عنها تحشى أن يتشاءم الناس من أبيها، وكانت تحرص على أن يؤدي النبي ﷺ الصلاة لما في ذلك من مظهر للصحة. فقالت: إن أبا بكر رجل رقيق، ضعيف الصوت، كثير البكاء إذا قرأ القرآن. ورسول الله ﷺ يكرر ما قاله من قبل، فلما راجعته عائشة أكثر من مرة قال: «إنكن صواحب يوسف، مُروا أبا بكر فليصل بالناس». فصلى أبو بكر بالناس تلك الأيام الأخيرة من حياة رسول الله ﷺ (صحيح البخاري ٧٦٨).

كفك خير من كفي

وفي هذه الأيام الأخيرة من حياته ﷺ كان المرض قد اشتد عليه، وكان أهله يُمرّضونه. وكانت السيدة عائشة تقرأ له القرآن في كفّه ثم تمسح به على وجهه، وهي تقول: «كفك خير من كفي».

رسول الله ﷺ يتصدق بهاله

كان عند رسول الله ﷺ أول ما اشتد به المرض سبعة دنانير، فخاف أن

يُقْبَضُ وما تزال هذه الدنانير باقية عنده، فأمر أهله أن يتصدقوا بها. لكنَّ انشغالهم بتمريضه والقيام على خدمته أنساهم تنفيذ أمره. فلما أفاق من إغمائه سألهم: ما فعلوا بها؟ فأجابت عائشة: أنها ما تزال عندها، فطلب أن تحضرها. فوضعها في كفِّه، وقال: «ما ظنَّ محمد بربه لو لقي الله وعنده هذه؟». ثم تصدق بها جميعاً على فقراء المسلمين، وفي ذات اليوم أعتق غلمانه كلهم، ووهب أسلحته للمسلمين. (مسند أحمد ٢٤٦٠٤).

قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي

وتأتى اللحظة التي فُجِعَتْ فيها السيدة عائشة، بل والأمة كلها بوفاة رسول الله ﷺ.

تقول السيدة عائشة: دخل عبد الرحمن بن أبي بكر ومعه سواك طيب، فنظر إليه رسول الله ﷺ حتى ظننت أنه يريد، فأخذه فمضغته، ثم دفعته إليه فاستاك به كأحسن ما يكون الاستياك.

ثم رفع بصره إلى السماء، وقال: «بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى»، وفاضت نفسه. فالحمد لله الذي جمع ريقى بريقه في آخر يوم له في الدنيا، وقُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِي وَرَأْسُهُ عَلَى صَدْرِي بَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي. (صحيح البخاري ٤١٨٤).

تزوره زيارة الأحياء

ودُفن رسول الله ﷺ في حجرة عائشة، وما برحت منذ تلك اللحظة تلازم هذه البقعة الخالدة ولا تفارقها، واتخذت سكنها في الحجرة المجاورة لقبره، وهي لا تحسب أنها فارقت منه غير مشهد جثمانه، فقد كانت تزوره زيارة الأحياء.

وكانت عائشة في أواخر العشرينيات من عمرها. وعاشت بعدها في ذكراه خمسين عامًا، لتكون المرجع الأول في الحديث والسنة، ولتكون الفقيهة الأولى في الإسلام.

مناقبها وفضائلها

والآن أعزائي، وقبل أن نودّع أمنا السيدة عائشة رضي الله عنها، فلنعش لحظات مع بعض من مناقبها وفضائلها.

١ - علمها وفقهها:

لقد عاشت السيدة عائشة رضي الله عنها في بيت رسول الله ﷺ تسع سنين، حصلت فيه من العلم ما لم يُحصّله غيرها من النساء وكثير من الرجال. وعاشت بعد رسول الله ﷺ نحو خمسين عامًا ملأت فيها الدنيا علمًا وفقهًا. حتى

أصبحت مرجعاً في فهم الكتاب والسنة.

* روت السيدة عائشة عن رسول الله ﷺ أكثر من ألفي حديث في مختلف المسائل، يقول الحاكم أبو عبد الله: «حُجِلَ عنها رُبْعُ الشريعة».

* قال أبو موسى الأشعري -رضي الله عنه-: «ما أشكل علينا أصحاب رسول الله حديثٌ قط فسألنا عائشة، إلا وجدنا عندها منه علماً».

* قال عروة بن الزبير -رضي الله عنه-: «ما رأيت أحداً أعلم بفقيه، ولا بطبِّ، ولا بشعر من عائشة».

* يقول مسروق بن الأجدع - وهو تابعي فقيه-: «لقد رأيت مشيخة أصحاب محمد ﷺ الأكابر يسألونها عن الفرائض».

وكان إذا حدّث عنها قال: «حدّثني الصّديقة بنت الصّديق».

٢- زهدا وكرمها

لقد كانت هاتان الصفتان ملازمتين جُلَّ صحابة رسول الله ﷺ، وهم فيها يقتدون بمعلم البشرية ﷺ. فكيف بأُم المؤمنين التي عاشت في كنف رسول الله ﷺ في بيته، وتعلمت منه الكثير. فالزهد هو مفتاح الكرم، وهاك بعض الأمثلة على زهد وكرم أمنا عائشة رضي الله عنها:

* تقول السيدة عائشة: جاءني مسكينة تحمل ابنتين لها تسألني فلم أجد

عندي غير تمرة واحدة فأعطيها إياها. فقسمتها بين ابنتيها ثم قامت فخرجت، فدخل رسول الله ﷺ فحدثته فقال: «من يلي من هذه البنات شيئاً، فأحسن إليهن كنَّ له ستراً يوم القيامة» (صحيح البخاري ١٣٥٢).

* تقول السيدة عائشة: «ما شبعنا بعد النبي ﷺ من طعام، وما شبع آل محمد ﷺ حتى قبض». .

* يقول عروة بن الزبير: «رأيت عائشة تتصدق بسبعين ألفاً، وإنما لترقع جانب درعها» - أي: أنه خشن مخلَّق ليس جديداً - .

* تقول أم ذرة: «بعث ابن الزبير إلى عائشة بهال في غرارتين. قالت: أراه ثمانين ومائة ألف، فدعت بطبق، وهي يومئذ صائمة فجلست تقسمه بين الناس، فأمست وما عندها من ذلك درهم. فلما أمست قالت: يا جارية هلمي فطوري فجاءتها بخبز وزيت. فقالت لها أم ذرة: أما استطعت مما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه؟ فقالت: لا تعنيني لو كنت أذكرتيني لفعلت.

* وعن عبد الله بن الزبير قال: «ما رأيت امرأتين قط أجود من عائشة وأسماء، وجُودهما مختلف، أما عائشة فكانت تجمع الشيء حتى إذا اجتمع عندها قسمته، وأما أسماء فكانت لا تمسك شيئاً لغد».

فكان ذلك أعزائي قليل من كثير من صور زهدا وكرمها، لا يتسع المجال لذكرها جميعاً.

٣ - الإيثار

ونسوق إليك عزيزي القارئ هذه القصة التي توضّح مدى ما كان من أم المؤمنين «عائشة» من إيثار وكرم أخلاق.

ففي اللحظات الأخيرة من حياة الفاروق «عمر بن الخطاب» قال لابنه: يا عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-، انطلق إلى أم المؤمنين عائشة، فقل لها: عمر يقرأ عليك السلام، ولا تقل أمير المؤمنين، فإني لست اليوم أميراً للمؤمنين.

وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يُدفن إلى جوار صاحبيه. ثم سلم واستأذن.

فلما دخل عليها عبد الله بن عمر وجدها تبكي، فقال لها: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام، ويستأذن أن يُدفن إلى جوار صاحبيه. فقالت له: كنت أريده لنفسي، ولأوثرنه اليوم على نفسي. (صحيح البخاري ١٣٢٨).

٤ - حياؤها

إن المرأة المؤمنة التقيّة تستحي بفطرتها من أيّ رجل أجنبي. فما ظنك بمن لا تستحي من الأحياء فحسب، بل تستحي من الأموات.

فعن عائشة قالت: «كنت أدخل البيت الذي دُفن فيه رسول الله ﷺ وأبي واضعة ثوبي، وأقول: هذا زوجي وأبي، فلما دُفن عمر، والله ما دخلته إلا مشدودة عليّ ثيابي؛ حياءً من عمر» (مستدرک الحاكم ٦٧٢١ وصححه).

٥ - عبادتها

لقد كانت أم المؤمنین عائشة تقضي يومها صياماً وليلها قياماً، فكانت مثلاً في العبادة المخلصة والخوف من الله.

* يقول القاسم بن محمد بن أبي بكر: «كانت عائشة تصوم الدهر، لا تفطر إلا يوم أضحى أو يوم فطر».

* وعنه قال: «كنت إذا غدوت أبدأ ببيت عائشة، أسلم عليها. فغدوت يوماً فإذا هي قائمة تسبح وتقرأ قول الله تعالى: {فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ} [الطور: ٢٧]، وتدعو وتبكي وتردّها. فذهبت إلى السوق لحاجتي، ثم رجعت فإذا هي قائمة كما هي تصلي وتبكي».

٦ - فصاحتها

كما حلَّقت أم المؤمنين «عائشة» في سماء العلم والفقهِ والزهد والورع؛ حلقت كذلك في سماوات البلاغة والفصاحة. فقد كانت كلماتها تتلألأ بلاغةً وفصاحةً وجمال أسلوب ورِقَّة تعبير وقوة بيان.

فقد أسست على أساس متين من الفصاحة في بيت أبي بكر، الذي كان معروفًا بفصاحته ومعرفته بالأنساب. ثم انتقلت من بيت أبيها إلى كنف رسول الله ﷺ فغدت تتأدب بأدبه وتُرد موارد البيان القرآني لتنهل منه.

* فعن موسى بن طلحة أنه قال: «ما رأيت أحدًا أفصح من عائشة».

* وقال أبو الزناد: «ما رأيت أحدًا أروى لشعر من عروة بن الزبير، فقبل لعروة: ما أرواك؟ فقال: ما روايتي من رواية عائشة؟ ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعرًا».

* سأل معاوية ابنه زيادًا: أي الناس أبلغ يا زياد؟ قال: عائشة بنت أبي بكر «أم المؤمنين». فقال معاوية: إي والله، ما فتحت بابًا تريد أن تغلقه إلا أغلقته، ولا أغلقت بابًا تريد أن تفتحه إلا فتحته».

فلقد كانت ﷺ أديبة تعرف كيف تُجيد إنشاد شعر العرب. وتتمثل به أحيانًا على تحقيق رغبة، أو إثارة فكرة، أو إبداء رأي، ونحو ذلك مما تراه مُصيَّبًا في موضعه جديرًا بأن تحكيه وتتمثل به.

٧ - علمها بالأنساب

لقد كانت عائشة رضي الله عنها، تحذو حذو أبيها في اتباع الأخبار والتعرف على أنساب العرب وأحوالهم، كما تتبعت أشعارهم وحكمهم وأمثالهم. فخلاصة القول: أن عائشة رضي الله عنها كانت دائرة معارف متحرّكة، أينما حلّت أُلقت على الناس علماً.

فله دَرَكٌ يا أم المؤمنين «عائشة» رضي الله عنها!

الفصل الأخير

وبعد حياة طويلة مليئة بالبذل والعطاء والعلم والتضحية، ترقد أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق على فراش الموت. لتسطر آخر سطور في صفحات حياتها، وتستريح لتبدأ رحلتها مع النعيم المقيم.

ابن عباس يُثني عليها

استأذن ابن عباس على أم المؤمنين «عائشة» قبل موتها، فقيل: ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن وجوه المسلمين. فقالت: ائذنوا له. فلما دخل عليها سألتها: كيف تجدينك يا أمه؟ قالت: بخير إن اتقيت. قال: فأنت بخير - إن

شاء الله تعالى-؛ زوجة رسول الله ﷺ، ولم ينكح بكراً غيرك، ونزل عُذرك من السماء.

ثم دخل من بعده ابن الزبير فقالت له **رضي الله عنها**: «دخل ابن عباس فأثنى عليّ، وددت لو كنت نسيّاً منسياً»

دُفنت مع صواحبها بالبقيع

وتفويض روحها الطاهرة ليلة الثلاثاء لسبع عشر خلت من شهر رمضان سنة ثمانية وخمسين للهجرة. وقد بلغت من العمر نحو سبعين عاماً. وكانت قد أوصت ابن أختها عبد الله بن الزبير أن يدفنها مع صواحبها بالبقيع.

وقد صلى عليها أبو هريرة، وحضر جنازتها جمعٌ غفير من المسلمين. ثم شُيِّعت الجنازة في غسق الليل إلى البقيع - كما أوصت - على أضواء مشاعل من جريد مغموس في الزيت، وسارت الجموع من ورائها باكية. فلم تُر ليلة أكثر ناساً منها.

ونزل معها إلى القبر ولداً أختها أسماء: عبد الله وعروة ابنا الزبير، والقاسم وعبد الله ابنا أخيها محمد، وعبد الله ابن أخيها عبد الرحمن.

فرحمة الله وبركاته عليك يا أم المؤمنين
يا من أنزل الله براءتك من فوق سبع سموات
ورضى الله عنك وأرضاك يا أيتها «الصدّيقة بنت الصّدّيق»
يا «عائشة بنت أبي بكر».

حفصة بنت عمر رضي الله عنها

والآن أعزائي، نحن على موعد مع ريحانة من رياحين الصحبة العطرة. هي أمٌّ للمؤمنين، زوج خير خلق الله ﷺ، وبنت من أعزَّ الله به الإسلام، الرجل الكبير في بساطة، البسيط في قوة، القوي في رحمة. إنها الصَّوَّامَةُ القَوَّامَةُ؛ «حفصة بنت عمر بن الخطاب» رضي الله عنها.

نسبها ونشأتها

هي: حفصة بنت عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى العدوي القرشي.

وأبوها: عمر بن الخطاب، أمير المؤمنين، الذي كان إسلامه عزًّا للمسلمين، وفتح الله على يديه بلاد الفرس والرومان، وهو من العشرة المبشرين بالجنة. * للاستزادة من حياة عمر بن الخطاب، ارجع إلى الجزء الثاني «حياة العشرة المبشرين بالجنة» للمؤلف.

أما أمها فهي زينب بنت مضعون، أخت الصحابي الجليل «عثمان بن مضعون».

وقد وُلِدَتْ حفصة قبل البعثة بخمس سنين.

زواجها وإسلامها

ولما بلغت سنّ الزواج تزوجت من خُنيس بن حُذافة بن قيس بن عدي السهمي القرشي. ولما كانت دعوة النور والحق التي جاء بها رسول الله ﷺ كان خُنيس وزوجته «حفصة» من أوائل الذين آمنوا بها. فقد أسلم خُنيس وزوجته قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم. فكانت حفصة وزوجها خُنيس حقاً من السابقين الأولين للإسلام. وهاجر خُنيس هو وزوجته الهجرتين؛ إلى الحبشة مع المهاجرين الأوائل، ثم إلى المدينة.

الأرملة الشابة

وفي المدينة عاش خُنيس وزوجه «حفصة» في رحاب الأنصار، وزادت سعادتهما بهجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة. وشهد خُنيس غزوة بدر، وكان الوحيد من بني سهم الذي شهد بدرًا، وقد قاتل فيها قتال من يبحث عن الشهادة. ثم شهد غزوة أُحُد، ويعود إلى المدينة ليموت فيها متأثرًا بجراحه التي أصابته في أُحُد. تاركًا خلفه زوجته «حفصة بنت عمر» التي ترملت وهي في سنّ الثامنة عشرة من عمرها.

وتألم الفاروق عمر لابنته الشابة التي ترمّلت في هذه السنّ المبكرة، وأوجعه أن يرى الترمّل يقتل شبابها، وبدأ يشعر بحزن شديد كلما دخل البيت ليرى ابنته في حزنها وألمها.

عمر يعرض حفصة على أصحابه

بعد انقضاء عدتها، فكّر عمر في أن يختار لابنته زوجاً قد تأنس إلى صحبتها، فسترد بعض الذي أضاعت في حداد استغرق ستة أشهر أو يزيد. فوقع اختياره على أحبّ خلق الله لرسول الله ﷺ «أبو بكر الصديق»؛ فسعى إليه وحدّثه عن حفصة، ثم عرض عليه أن يتزوَّجها، وفي يقينه أن أبا بكر سيوافق دون أيّ تردّد، لكنّ أبا بكر أمسك ولم يُجب. وهو صمّت معناه الرفض.

فانصرف عمر وهو لا يكاد يصدّق أن أبا بكر رفض حفصة بعد أن عرضها عليه. فسارع عمر إلى عثمان بن عفان، وكان قد فقد زوجته «رقية» بنت رسول الله ﷺ، وتحدّث عمر إليه وعرض عليه حفصة ليتزوجها. وكان جواب عثمان أن استمهله أياماً، وبعدها جاء إلى عمر وقال: ما أريد أن أتزوج اليوم. وهو ما زاد من حزن عمر وزاد من قسوة الموقف عليه.

في رحاب رسول الله ﷺ

حفصة أمًا للمؤمنين

لما اشتد بعمر الحزن ذهب إلى رسول الله ﷺ، يشكو إليه ما لقيه من صاحبيه، وكيف صمت أبو بكر عن الرد، وكيف كان ردَّ عثمان. فلما سمع منه النبي ﷺ تبسم، وقال له: «يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة»، فأشرفت نفس عمر بهجة وفرحاً، وهو لا يكاد يصدق ما سمع. فتزوج رسول الله ﷺ حفصة، وتزوج عثمان بأم كلثوم ابنة رسول الله ﷺ.

ولما تمَّ الزواج قال أبو بكر لعمر: «لا تجِد عليَّ -أي: لا تغضب- يا عمر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يذكر حفصة، فلم أكن لأفشي سرَّ رسول الله ﷺ، ولو تركها لتزوجتها».

وهكذا تزوجت حفصة من هو خير من عثمان لتكون أمًا للمؤمنين، وقد أصدقها رسول الله ﷺ أربعمئة درهم، وكان ذلك أعظم إكرام منه وإحسان لحفصة وأبيها.

في بيت رسول الله ﷺ

ويتهياً بيت النبي ﷺ لاستقبال حفصة، وزُفَّت العروس إلى بيت زوجها.

وكان في بيته «سودة بنت زمعة»، و«عائشة بنت أبي بكر»، فرحبت كل منهما بها.

وعاشت حفصة صديقة لعائشة؛ لأنها كانت تُدانيها في خلقها ونسبها وطباعها، غير أن الأمر لم يخلُ من بعض المشاعر البشرية التي تعترها الغيرة والتنافس.

أين أنت من عائشة؟ وأين أبوك من أبيها؟

كان عمر بن الخطاب يراقب ابنته في تصرفاتها مع النبي ﷺ، ومع ضرائرها؛ حتى يستطيع أن يقومها إذا جانبها الصواب.

سمع يوماً من زوجته أن ابنته تُراجع رسول الله ﷺ، فمضى من فوره حتى دخل عليها، فسألها ما سمعه حقاً؟ فقالت بأنه حق، فزجرها قائلاً: «تعلمين أني أُحذرك عقوبة الله وغضب رسوله. يا بُنية، لا يغرنك هذه التي أعجبها حُسنها وحب رسول الله ﷺ إياها، والله لقد علمت أن رسول الله ﷺ لا يحبك ولولا أنا لطلقك».

وهكذا أراد عمر أن يحذّر ابنته أن تتشبه بعائشة الحبيبة، ويردّها عن جموحها. فكان يقول لها: «أين أنت من عائشة؟، وأين أبوك من أبيها؟».

فظلّت حفصة في كنف رسول الله ﷺ، تنهل من نوره وعطفه، ولا تقصر

في حق من حقوقه. وكفكفت من غيرتها، فلم تعد تؤذي صرّة من ضرائرها بشيء. وظهرت عليها إمارات الهدى والتقوى والزهد في متاع الدنيا، حتى مات رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنها.

فضائلها ومناقبها

والآن أعزائي، فلنعش مع بعض فضائل ومناقب أم المؤمنين «حفصة بنت عمر» رضي الله عنها.

١ - الصوامة القوامة

حدث في يوم من الأيام أن طلقها رسول الله ﷺ فانكسر قلبها، فجاء جبريل الأمين إلى رسول الله ﷺ، وقال له: «راجِعْها، إنها صوامة قوامة، وهي زوجك في الجنة».

وفي رواية: أن رسول الله ﷺ طلق حفصة، فبلغ ذلك عمر فحثا التراب على رأسه وقال: «ما يُعبأ بعمر وابنته بعدها»، فنزل جبريل من الغد وقال لرسول الله ﷺ: «إنَّ الله يأمرُك أن تراجع حفصة؛ رحمةً بعمر».

٢ - علمها وفقهها

وظلت حفصة على عهدا بعد وفاة رسول الله ﷺ، وفي ظل الخلافة

الراشدة صوامة قوامة، لم تخض في أمرٍ من أمور السياسة. ولكنها كانت مرجعاً فقهياً لصحابة رسول الله ﷺ، خاصة في مجال الحديث النبوي الشريف والعبادة. فقد كان أخوها «عبد الله بن عمر» يتلقى عنها ما رآته في بيت رسول الله ﷺ، وروت كثيراً من الأحاديث عن رسول الله ﷺ، وعن أبيها «عمر بن الخطاب».

وقد كانت حفصة تُتقن القراءة في عهدها. وقد كان قليل من الرجال من يعرف القراءة والكتابة، فكيف بالنساء؟ لذا كانت بحق التلميذة النبوية النجيبة التي نقلت كثيراً من الأحكام النبوية إلى الناس.

٣ - أمانة حفظ القرآن

ثم كانت المنقبة الكبرى، لما وقع الاختيار على أم المؤمنين «حفصة» لتتحمل تلك الأمانة، وذلك الشرف الرفيع، فقد تم اختيارها من بين أمهات المؤمنين جميعاً لتحفظ النسخة الأولى للمصحف الشريف. وذلك أنه لما اشتد القتل بالصحابة، وخاصة القراءة وحفظ القرآن في حروب الردة يوم اليمامة؛ أشار عمر على الخليفة أبي بكر الصديق أن يبادر فيجمع القرآن من صحفه قبل أن يبعد العهد بنزوله ويمضي حفظته الأولون.

فاستجاب أبو بكر وأرسل إلى زيد بن ثابت، وكلّفه بالقيام بجمع القرآن. وقد كان القرآن مكتوباً في عصر رسول الله ﷺ، ولكنه كان متفرّقاً في الرقاع والأكتاف وجريد النخل. فأمر أبو بكر بجمعه في مصحفٍ واحدٍ مُرتّب الآيات والسُور. فقام زيد بن ثابت بهذه المهمة الشاقة وجمعه في مصحفٍ واحد. وبقي هذا المصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر طول حياته، ولما أشرف عمر على الموت أوصى أن يكون عند حفصة، فبقي عندها حتى لقيت ربها.

وفي عهد عثمان بن عفان، ولما اتّسعت الفتوحات الإسلامية فخشي عثمان أن يكثُر الخلاف على قراءة القرآن، وخاصّة بعد أن اختلط العرب بالعجم. فأرسل إلى حفصة ليأخذ المصحف من عندها، وأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في عدة مصاحف، ثم ردّ المصحف إلى حفصة. وأرسل إلى الأمصار بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه أن يُحرق.

وهكذا ظلت أم المؤمنين «حفصة بنت عمر» مؤتمنة على المصحف في نسخته الأولى ومُحتفظة به عندها حتى لقيت ربها.

الفصل الأخير

وبعد حياة مليئة بالعبادة والبذل والتضحية، ترقد أمنا «حفصة بنت عمر» رضي الله عنها على فراش الموت لتستعد للقاء ربها. ولم يمضِ غير بضعة أيام من شهر شعبان لسنة واحد وأربعين من الهجرة النبوية حتى رحلت «حفصة» عن الدنيا، وقد بلغت من العمر ثلاثة وستين عاماً. وكان ذلك في عهد معاوية بن أبي سفيان.

وقد شيعها كبار الصحابة، وفي مقدمتهم أبو هريرة وأبو سعيد الخدري. وصلى عليها والي المدينة آنذاك «مروان بن الحكم»، ودُفنت بالبقيع مع أخواتها أمهات المؤمنين. ونزل في قبرها أخواها: عبد الله وعاصم ابنا عمر، وكذلك سالم وعبد الله وحمزة بنو أخيها عبد الله بن عمر.

فرحمة الله وبركاته عليك يا أم المؤمنين

أيتها الصوّامة القوّامة

الحارسة المؤتمنة على كتاب الله

ورضى الله عنك وأرضاك يا «حفصة بنت عمر»

زينب بنت خزيمة رضي الله عنها

والآن أعزائي فلنستقبل هذه الزهرة من أزاهير الصحبة العطرة..
إنها أم للمؤمنين، ولم تكن أمًا للمؤمنين فحسب، بل كانت أمًا للمساكين.
إنها التقية النقية أم المساكين «زينب بنت خزيمة» رضي الله عنها.

نسبها ونشأتها

هي: زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف
الهلالية.

وأماها: هند بنت عوف بن الحارث.

أخواتها: أخت ميمونة بنت الحارث زوج النبي صلى الله عليه وسلم، وأم الفضل «لبابة الكبرى» زوج العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولبابة الصغرى
أم خالد بن الوليد - أخواتها لأماها -؛ فهي شريفة الحسب والنسب.
وقد وُلِدَتْ «زينب بنت خزيمة» في مكة قبل البعثة بثلاث عشرة سنة.

إسلامها

ولما أشرقت الدنيا بنور الإسلام، كانت «زينب بنت خزيمة» من السابقين

الأولين الذين آمنوا ودخلوا في دين الله -تعالى- .

زواجها

لقد اختلف المؤرخون فيمن كانت عنده قبل النبي ﷺ، فقيل: إنها كانت عند الطفيل بن الحارث بن عبد المطلب، فلما مات خلفه عليها أخوه عبيد بن الحارث الذي استشهد في بدر فخلفه عليها رسول الله ﷺ. وفي رواية: أنها كانت عند عبد الله بن جحش، فاستشهد في أحد فخلفه عليها رسول الله ﷺ.

أُمًّا للمؤمنين

لما استشهد زوجها، احتسبته عند الله ورضيت بقضاء الله. فعوضها الله عن فقدان زوجها بأن كانت زوجًا لسيد الأولين والآخرين ﷺ. فقد تزوجها رسول الله ﷺ إكرامًا لسنّها وضنًا بها عن المهانة، ورعايةً للقربة التي تربطه وزوجها الشهيد. وقد أصدقها رسول الله ﷺ أربعمئة درهم، وبنى لها حجرة بجوار حجرات زوجاته عائشة وحفصة. وهكذا أصبحت «زينب بنت خزيمة» أُمًّا للمؤمنين.

أُمَّا لِلْمَسَاكِينِ

وتعيش «زينب بنت خزيمة» في رحاب رسول الله ﷺ، لتنهل من هديه وعلمه وأخلاقه. وكانت علاقتها بأزواج النبي ﷺ على أحسن ما يكون، فلم تستشعر عائشة ولا حفصة نحو الوافدة الجديدة أيّ غيرة.

أما زينب فلم تكن هي الأخرى راغبة في منافسة عائشة وحفصة. ولكن كان شغلها وسعادتها الكبرى في رعاية المساكين والتصدق عليهم؛ فلقد كانت رحيمة بهم حتى قبل البعثة، فلما أسلمت ازدادت بهم رحمةً، وخاصة لما أصبحت زوجًا لرسول الله ﷺ، ورأت ينابيع الرحمة تتدفق من قلبه، فكانت ترى عطفه وإحسانه على الفقراء والمساكين، وكيف كان ﷺ يحضّ المسلمين على الإنفاق على الفقراء والمساكين.

فعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «ما من يوم يُصبح فيه العباد، إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعطِ منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعطِ مُمسكًا تلفًا» (صحيح البخاري ١٣٧٤).

وعن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة عُرفًا يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدّها الله -تعالى- لمن أطعم الطعام، وأفشى السلام، وصلى بالليل والناس نيام» (مسند أحمد ٢٢٩٥٦). فكانت أُمنا زينب بنت خزيمة تسمع هذا الكلام فتسمو نفسها، وتتطلع إلى

النعيم الدائم في الجنة. فكانت لا تدخر درهماً ولا ديناراً، فأحبها المساكين والتفوا حولها فسعدت بهم وسعدوا بها. وقد عرف الناس لها فضلها وكرمها فلقبوا بها «أم المساكين» وهو لقب زادها شرفاً وإكراماً.

الفصل الأخير

ولم يمضِ على مكوثها في بيت النبي ﷺ إلا قليل - قيل شهرين أو ثلاثة أو ثمانية -، وبعد هذه الشهور القليلة ترقد أمنا «زينب بنت خزيمة» رضي الله عنها على فراش الموت لتلقى ربها، وقد بلغت من العمر ثلاثين عاماً. فماتت في سلام كما عاشت في سلام، وصلى عليها رسول الله ﷺ ودفنها بالبقيع. فكانت أول من دُفِنَ فيه من أمهات المؤمنين. ولم يمت منهن في حياة رسول الله ﷺ غير «السيدة خديجة» وقد دفنها بالحجون في مكة، والسيدة «زينب بنت خزيمة» «أم المساكين».

فرحمة الله وبركاته عليك يا أم المؤمنين

يا أم المساكين

ورضى الله عنك وأرضاك يا «زينب بنت خزيمة».

أم سلمة رضي الله عنها

وإليكم أعزائي نقدّم هذه الزهرة من بستان كله عامر بالزهور ذات العطر الجميل الذي ملأ عبيره كل آفاق الدنيا.

أما زهرتنا فهي من صبرت، واحتسبت على مصيبتها، فأخلفها الله خيرًا مما فقدت. فهي ذات العقل الرشيد والرأي السديد.. إنها «أم سلمة» رضي الله عنها، «أيم العرب»، التي لم تبقَ أمًّا لسلمة وحده، بل أصبحت أمًّا للمؤمنين جميعًا.

نسبها ونشأتها

هي: هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشية المخزومية.

أما أمها فهي: عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك بن جذيمة بن علقمة.

فنشأت هند في بيت عريق أصيل جمع المجد من طرفي الجود والشجاعة.

فأبوها: «أبو أمية بن المغيرة» كان من أجود الناس، حتى إنه كان يُقال له:

«زاد الراكب»؛ لأنه إذا خرج مع الناس في سفر لم يتخذوا زادًا معهم، ولم يوقدوا نارًا، فكان هو يكفيهم زادهم طول السفر.

وابن عمها: خالد بن الوليد «سيف الله المسلول».

فقد تأثرت «هند بنت أبي أمية» بهذه البيئة الكريمة التي عاشتها في مطلع حياتها، وما رأته من عزّ، وكرم، وشجاعة بين أهلها. فكانت ذات يد معطاءة ونفس صافية.

زواجها

وحين بلغت سنّ الزواج، تقدّم لخطبتها أحد فتیان قريش المعدودين وشجعانها الأبطال: عبدالله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. وأمه برة بنت عبد المطلب، فهو ابن عمّة رسول الله ﷺ، وأخوه في الرضاع، أرضعتها ثويبة مولاة أبي لهب. وعاشت «هند بنت أبي أمية» حياة النعيم والرخاء مع زوجها.

إسلامها

ولما سطع نور الحق، وجاء رسول الله ﷺ بدعوة الإسلام، كان «عبد الله بن عبد الأسد» هو وزوجته من السابقين الأوائل للإسلام. وما إن شاع نبأ إسلامها حتى هاجت قريش عليهما، ونالا من العذاب صنوفاً. وحاول أبو طالب أن يمنع ابن أخته «عبد الله بن عبد الأسد». حتى إن المشركين من

بني مخزوم جاءوا إلى أبي طالب يقولون له: لقد منعت ابن أخيك، فما لك ولصاحبنا تمنعه؟

فقال أبو طالب: إنه استجارني وهو ابن أختي؛ فإن أنا لم أمنع ابن أختي، لم أمنع ابن أخي.

ورغم هذه الحماية من أبي طالب، لم يسلم هو وزوجه من أذى الكفار والمشركين.

الهجرة إلى الحبشة

فلما اشتد أذى الكفار على أصحاب رسول الله ﷺ، أذن لهم بالهجرة إلى الحبشة.

وكان عبد الله بن عبد الأسد وزوجه أول المهاجرين إلى الحبشة. وهناك ولدت هند ابنتها سلمة، فعُرف عبد الله بن عبد الأسد بأبي سلمة، وهند بنت أبي أمية بأم سلمة.

وعلى الرغم مما لقيته أم سلمة وزوجها من حماية النجاشي، فقد كان الشوق إلى مكة والحنين إلى رسول الله ﷺ يزداد يوماً بعد يوم.

فقررا العودة إلى مكة لينعما بصحبة رسول الله ﷺ.

الهجرة إلى المدينة

ولما أذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة، كان أبو سلمة وزوجه أول المهاجرين إلى المدينة كما كانا من أوائل من أسلموا، وأول المهاجرين إلى الحبشة.

ولكنَّ هجرة أم سلمة وزوجها لم تكن سهلةً مُيسَّرةً كما خيَّل لهما. وإنما كانت شاقَّةً مُؤَلِّةً، فما كان من هذه الأسرة المؤمنة إلا الصبر والاحتساب. والآن أعزائي فلنستمع بأذان صاغية، وقلوب واعية إلى أم سلمة وهي تروي لنا قصة هجرتها هي وزوجها وابنها، وما لاقوا من ألم ومشقة وفراق لا يتحمَّله إلا الصابرون الصادقون.

تشتت شمل الأسرة

تقول أم سلمة: «لما عزم أبو سلمة على الخروج إلى المدينة أعدَّ لي بعيراً ثم حملني عليه، وجعل طفلنا سلمة في حجري، ومضى يقود بنا البعير. وقبل خروجنا من مكة رأنا رجال من قومي (بني المغيرة) فتصدوا لنا، وقالوا لأبي سلمة: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها في البلاد؟ ونزعوا خطام البعير من يده وأخذوني أنا وطفلي.

فغضب عند ذلك قوم زوجي (بنو عبد الأسد)، وقالوا: لا والله لا نترك ابنا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا. فتجاذبوا طفلي (سلمة) بينهم حتى خلعوا يده. وانطلق به رهط أبيه، وحبسني بنو المغيرة عندهم. وتقول أم سلمة عن لحظات تشتت شمل الأسرة: فزوجي اتجه إلى المدينة فأرأ بدينه، وولدي اختطفه بنو عبد الأسد، أما أنا فقد استولى عليّ قومي (بنو المغيرة)، وجعلوني عندهم.

حزن وبكاء

فلما فرّق بيني وبين زوجي وابني، مكثت أخرج كل غداة إلى الأبطح، فأجلس في المكان الذي شهد مأساتي وأظل أبكي حتى يُجِئ عليّ الليل. وبقيت على ذلك الحال سنة أو قريباً من السنة.

إن مع العسر يسراً

وفيا أنا في حالي هذه، إذ مرّ بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة فرأى ما بي فرحمي وذهب إلى بني المغيرة، وقال لهم: ألا تطلقون هذه المسكينة!! فرّقتم بينها وبين زوجها وبين ابنها. وما زال بهم يستلين قلوبهم، حتى قالوا

لي: الحقي بزوجك إن شئت.

ورأى بعض الناس ما أعاني من أحزاني فرقت قلوبهم لي وكلموا بني عبد الأسد في شأني فردوا عليّ ولدي سلمة.

الرحيل إلى المدينة

فأعددت بعيري ووضعت ابني في حجري ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة. وما معي أحد من خلق الله، حتى إذا كنت بالتنعيم -على بعد فرسخين من مكة- لقيت «عثمان بن طلحة» فقال: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ فقلت: أريد زوجي بالمدينة. قال: هل معك أحد؟ فقلت: لا والله، ما معي إلا الله وابني هذا. قال: والله، لا أتركك أبداً حتى تبلغني المدينة. ثم أخذ بخطام بعيري فانطلق يقودني.

ما صحبت رجلاً أكرم منه

فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط كان أكرم منه. كان إذا بلغ منزلاً من المنازل يُنيخ بعيري ثم يستأخر عني، حتى إذا نزلت عن ظهره واستويت على الأرض، دنا إليه، وحط عنه رَحله واقتاده إلى شجرة وربطه بها، ثم

يتنحى عني إلى شجرة أخرى فيضطجع في ظلها. فإذا حان الرواح قام إلى بعيري فأعدّه وقدمه إليّ ثم يستأخر، ويقول: اركبي، فإذا ركبت واستويت على البعير أتى فأخذ بخطامه وقاده.

فلم يزل يصنع ذلك حتى قدم إلى المدينة. فلما نظر إلى قرية بقاء لبني عمرو بن عوف، قال: إن زوجك في هذه القرية، فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة».

وهكذا كانت أم سلمة أول ظعينة دخلت المدينة، كما كان زوجها «أبو سلمة» أول من هاجر إلى يثرب من أصحاب رسول الله ﷺ. تقول أم سلمة: «ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة».

في المدينة

اجتماع بعد شتات

ويجتمع شمل الأسرة مرة أخرى بعد أكثر من عام من الفرقة والشتات، عام حافل بالذكريات المضيئة والانتظار المؤلم. وقرّت أعين أم سلمة بزوجها وسعد أبو سلمة بصاحبته وولده.

وفي ربوع المدينة المنورة عاش الزوجان يعبدان الله -تعالى-، ويتزودان بنور الحبيب المصطفى ﷺ وهديه. وقد رزقهما الله من الأبناء إلى جانب سلمة: عمر وزينب ودرة. وعكفت أم سلمة على رعاية زوجها وأبنائها، وتربيتهم على حب الله ورسوله، حتى أصبحوا من خيرة الصحابة.

جهاد وبطولات أبي سلمة

وعلى الرغم من انشغال أم سلمة بعبادة ربها وتربية أبنائها، إلا أنها كانت تشجع زوجها على الجهاد في سبيل الله، فكان أبو سلمة في طليعة المجاهدين.

ففي غزوة ذي العشيرة:

في جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة، وهي الغزوة التي خرج فيها رسول الله ﷺ في مائة وخمسين من المهاجرين يعترضون عيراً لقريش، فبلغ ذي العشيرة فوجد العير قد مضت، وعقد رسول الله ﷺ معاهدة مع بني مدلج وحلفائهم بني ضمرة. وفي هذه الغزوة اختار رسول الله ﷺ بين أصحابه أبا سلمة فاستعمله على المدينة.

وفي غزوة بدر الكبرى

كان أبو سلمة أحد ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، تم لهم النصر على ثلاثة أضعافهم من المشركين. وقد أبلى فيها أحسن البلاء وكان نصر الله للمؤمنين.

وفي غزوة أُحُد

شهدها أبو سلمة، وأبلى فيها بلاءً مشهوداً، ورُميَ بسهم في عضده. ولما عاد إلى المدينة مكث شهراً يداوي جرحه وبجانبه زوجه الوفية «أم سلمة» تقوم على رعايته وخدمته إلى أن برأ من جرحه.

سرية أبي سلمة

تجرات بعض القبائل على المسلمين بعد أُحُد، وكان أول ما بلغ رسول الله ﷺ أن طليحة وسلمة ابني خويلد، وكانا على رأس بني الأسد، يُحرضان قومها على مهاجمة المدينة. وكان ذلك بعد شهرين من أُحُد (هلال محرم سنة ٤ هجرية). فما لبث رسول الله ﷺ حين علم بالخبر أن دعا أبا سلمة، وعقد له لواء سرية قوامها مائة وخمسون رجلاً فيهم أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص.

ونفذ أبو سلمة ما أمر به رسول الله ﷺ من أخذ العدو على غرّة، فأحاط بهم

في عمية الصبح على غير أهبة منهم للقتال. وقاد أبو سلمة معركة ظفرة شتت فيها أمرهم، وأصاب المسلمون إبلاً وشاه فاستاقوها وعادوا إلى المدينة سالمين غانمين لم يلقوا حرباً. وقد أعادوا إلى النفوس من هيبة المسلمين شيئاً مما ضيَّعت يوم أُحد.

وفاة أبي سلمة

ويعود أبو سلمة إلى المدينة وكله شوق لمعاودة الجهاد في سبيل الله، لكنَّ الجرح الذي أصابه في أُحد انتكس، لينام أبو سلمة على فراش الموت. وفيما أبو سلمة كان يُعالج من جرحه قال لزوجته: يا أم سلمة، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مَصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ: { إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } [البقرة: ١٥٦]؛ اللَّهُمَّ أَجْرُنِي فِي مَصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا» (صحيح مسلم ٩١٨).

ولما اشتد المرض وألم الجرح على أبي سلمة وأحسَّ أنه مفارق الحياة دعا لزوجته، وقال: «اللهم ارزق أم سلمة بعدي رجلاً خيراً مني، لا يحزنها ولا يؤذيها»، وفي رواية: «اللهم أخلفني في أهلي من هو خير مني».

ويظل أبو سلمة على فراش الموت. وفي ذات صباح جاءه رسول الله ﷺ

ليعوده، وبقي بجانبه يدعو له حتى مات. فأسبل بيده الكريمة عينيه وكبَّر عليه تسع تكبيرات. فقيل له: يا رسول الله، أسهوت أم نسيت؟ فقال: «لم أسه ولم أنس، ولو كبرت على أبي سلمة ألفاً لكان أهلاً لذلك». ويرحل أول من هاجر من صحابة رسول الله ﷺ تاركاً زوجته الوفية وأبناءه الأربعة.

في رحاب رسول الله

وما أن مات أبو سلمة حتى تنزلت السكينة والصبر والاحتساب على قلب زوجته الوفية «أم سلمة»، وتذكرت حديثه لها فقالت ما أمر الله به: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبي وأخلف لي خيراً منها». ثم قالت: «ومن عساه أن يكون خيراً من أبي سلمة؟ وأنا أرجو أن يكون الله قد أجرني في مصيبي».

الله يخلفها خيراً

حزن المسلمون لمصاب أم سلمة، وأطلقوا عليها «أيم العرب» - أي: المرأة التي فقدت زوجها -؛ إذ لم يكن لها في المدينة أحد من ذويها. فشعر المهاجرون والأنصار معاً بحق أم سلمة عليهم، فما أن انقضت عدتها

حتى تقدم لها أبو بكر الصديق يخطبها لنفسه، فاعتذرت له بأدبٍ ولطف، ثم تقدم لها عمر بن الخطاب فردته ردًّا جميلاً.

وتأتي المنحة الربانية الكبرى لتتنزل على أم سلمة؛ إذ بعث لها رسول الله ﷺ يخطبها لنفسه. فتمنّت أن يُتاح لها ذاك الشرف العظيم، لكنها أشفقت عليه وأرسلت إليه تقول:

* فأنا امرأة شديدة الغيرة، فأخاف أن ترى مني شيئاً يُغضبك فيعذبني الله.

* وأنا امرأة قد دخلت السن. -أي: امرأة مُسنّة، جاوزت سنّ الزواج-.

* وأنا امرأة ذات عيال.

فردّ عليها رسول الله وقال: «أما ما ذكرت من غيرتك فسوف يُذهبها الله عنك، وأما أنك مُسنّة، فقد أصابني مثل الذي أصابك، أما عيالك فهم عيالي».

ففرحت أم سلمة بما سمعت، وتم الزواج المبارك في شهر شوال في السنة الرابعة من الهجرة. واستجاب الله -سبحانه- لدعاء أم سلمة، وأخلفها من هو خير من أبي سلمة.

ومنذ ذلك الوقت لم تبقَ هند بنت أبي أمية أمًّا لسلمة وحده، بل أصبحت أمًّا للمؤمنين جميعًا.

في بيت رسول الله ﷺ

وتدخل أم سلمة بيت رسول الله ﷺ، وبنى بها في بيت «زينب بنت خزيمة»، وكانت زينب قد توفت آنذاك.

ومن أول لحظة دخلت أم سلمة بيت رسول الله ﷺ، فإذا بها تقوم بأعباء المنزل وتدبر شئونه على خير ما يكون. فعن المطلّب بن عبد الله بن حنطب قال: «دخلت «أيم العرب» - أي: أم سلمة - على رسول الله ﷺ أول العشاء عروسًا، وقامت آخر الليل تطحن».

فكانت أم سلمة تسعى دائمًا لإدخال السرور والسعادة على رسول الله ﷺ، وعاشت معه على القليل من الزاد، والحشن من الثياب والفراش.

مناقبها وفضائلها

والآن أعزائي فلنعش لحظات مع أم المؤمنين «أم سلمة» رضي الله عنها، صاحبة القلب الرحيم، والعقل البالغ، والرأي الصائب. فهناك بعض من مناقبها وفضائلها:

١ - رجاحة عقلها

كان لأم سلمة من المواقف التي تُظهر رجاحة عقلها الكثير والكثير. لذلك

كان رسول الله ﷺ يأخذ بمشورتها ويرتضي رأيها، من ذلك ما كان لها من دور جليل ورأي سديد يوم الحديبية.

ففي السنة السادسة للهجرة صحبت أم سلمة رسول الله ﷺ في رحلته إلى مكة معتمرًا، وهي الرحلة التي صدّت فيها قريش رسول الله ﷺ وأصحابه عن دخول البيت الحرام، وانتهى الأمر بعقد صلح الحديبية.

وقد أزعج هذا الصلح صحابة رسول الله ﷺ، وهالهم منعهم من دخول البيت الحرام معتمرين، وكَبُرَ عليهم أن يعودوا مخذولين. ولكن رسول الله ﷺ رأى في الأمر خيرًا، وعلم أن الله لن يخذله. فأمر أصحابه بعد عقد الصلح وكتابته أن ينحروا هديهم، ويحلقوا رؤوسهم ويتأهبوا للعودة إلى المدينة. فشق ذلك عليهم وما قام منهم من أحد حتى كرّر رسول الله ﷺ الأمر ثلاثًا. فلما لم يبق أحد دخل على زوجته «أم سلمة» فذكر لها ما كان من الناس.

وهنا جاء دور «أم سلمة» صاحبة العقل اللبيب والرأي السديد؛ فقالت لرسول الله ﷺ: «يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بُدُنك، وتدعو حالقك فيحلقك»، فخرج رسول الله ﷺ فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بُدنه ودعا حالقه فحلقه. فلما

رأى الصحابة ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يخلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا.

وهكذا كانت مشورة أم المؤمنين «أم سلمة» سببًا في نجاة الصحب الكرام من مخالفة رسول الله ﷺ وغضب الله عليهم، وكذلك رفعت الحزن والضيق عن رسول الله ﷺ.

٢ - صاحبة القلب الرحيم

لقد كانت «أم سلمة» تحب الخير لكل من حولها، وتحب أن تحمل لهم البشري لتدخل السعادة والسرور على نفوسهم.

بشرى أبي لبابة

فهي التي حملت خبر توبة الله -تعالى- على أبي لبابة. وذلك أن بني قُريظة لما خانوا العهد مع رسول الله ﷺ في غزوة الخندق، وتحالفوا مع الأحزاب ضد رسول الله، ثم خذلهم الله وكان النصر للمسلمين. فقرّر رسول الله ﷺ غزوهم وحصارهم حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب. فبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يرسل إليهم صاحبه وحليفهم في الجاهلية «أبا

لُبَّابَةُ بن المنذر الأنصاري» ليستشيره في أمرهم، فأرسله لهم فسأله: هل ترى أن نزل على حكم محمد؟ فقال لهم: نعم، وأشار بيده إلى حلقه - أي: إنكم إذا نزلتم على حكمه فلن يكون إلا الذبح -.

وهنا أحسَّ أبو لُبَّابَةَ أنه خان الله ورسوله. فانطلق فربط نفسه في عمود المسجد وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى أموت، أو يتوب الله عليَّ مما صنعت. وعاهد الله: أن لا أطأ بني قُرَيْظَةَ أبدًا ولا آوي في بلد حُنت الله ورسوله فيه أبدًا. وأقام أبو لُبَّابَةَ مرتبًا بالجذع ستَّ ليالٍ، تأتيه امرأته في كل وقت صلاة فتحلّه للصلاة ثم يعود فيرتبط بالجذع.

فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره، وكان قد استبطأه قال: «أما لو جاءني لأستغفرت له، فأما إذا فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه».

يروى ابن إسحاق: أن توبة أبي لُبَّابَةَ نزلت على رسول الله ﷺ في السَّحَرِ، وهو في بيت أم سلمة فسمعت رسول الله ﷺ يضحك فقالت: فيم تضحك يا رسول الله، أضحك الله سنك؟ قال: «تَيْبَ على أبي لُبَّابَةَ». فقالت: أفلا أبشره يا رسول الله؟ قال: «بلى إن شئت».

فقامت على باب حجرتها، وذلك قبل أن يُضْرَبَ الحجاب على أمهات المؤمنين، فقالت: يا أبا لُبَّابَةَ، أبشر فقد تاب الله عليك. فثار الناس ليطلقوه

فأبي وقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يُطلقني بيده. فلما مر رسول الله ﷺ خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه.

العفو الكريم

وكانت «أم سلمة» رضي الله عنها سبياً في أن يسامح رسول الله ﷺ ويعفو عن ابن عمه «أبو سفيان بن الحارث»، وابن عمته «عبد الله بن أبي أمية» - أخو أم سلمة من الأب-؛ وذلك لما لقيها رسول الله ﷺ بالأبواء وهو في طريقه لفتح مكة. فالتمسا الدخول عليه فأعرض عنها، لما كان يلقاه منها من شدة الأذى والهَجْو.

وهنا تدخلت أم سلمة وكلمت رسول الله ﷺ لئيسأحهما ويعفو عن زلتها. فقالت: يا رسول الله، لا يكن ابن عمك وابن عمك أشقى الناس بك. فما زالوا يلتمسا العفو من رسول الله ﷺ حتى عفا عنها.

بشرى كعب بن مالك

يقول كعب بن مالك (أحد الثلاثة الذين خَلَفُوا وتيبَ عليهم): لما أنزل الله توبتنا على نبيه ﷺ حتى بقي الثلث الأخير من الليل ورسول الله ﷺ عند أم سلمة، وكانت أم سلمة مُحْسِنَةً في شأني معنية في أمري. فقال رسول الله

ﷺ: «يا أم سلمة، لقد تيب على كعب» فقالت: أفلا أرسل إليه فأبشره؟ فوافق رسول الله ﷺ. وأرسلت أم سلمة بمن بشر كعب وصاحبيه. وهكذا كانت أم سلمة روضة سبياً في إدخال الفرحة على قلوب كل من حولها، وتحب الخير والسعادة للجميع.

٣ - علمها وفقها

لقد صحبت «أم سلمة» رسول الله ﷺ في غزوة خيبر، وفتح مكة، وغزوة حنين، وحصار الطائف، ثم حجة الوداع. وظلت مع الحبيب المصطفى ﷺ تنهل من هديه، وتقتبس من نوره، حتى لحق بالرفيق الأعلى وهو راضٍ عنها.

وظلت بعدها مرجعاً مهماً للفقهاء، حتى قيل عنها: إنها كانت تُعدُّ من فقهاء الصحابيات. فقد كانت ممن يُرجع إليها في بعض الأحكام والفتاوى خاصة فيما يخصُّ فقه المرأة المسلمة. حتى كان حبر الأمة «عبد الله بن عباس» يرسل إليها فيسألها عن بعض الأحكام.

وقد حفظت عن رسول الله ﷺ أكثر من ثلاثمائة حديث، وروى عنها ابنها سلمة وعمر وابنتها زينب، وغيرهم.

الفصل الأخير

وظلت «أم سلمة» من بعد رسول الله ﷺ في محرابها تتعبد، ولا تشغل نفسها إلا بالصلاة والصوم، وتعليم الناس أمور دينهم إذا جاءوها مُستفتين.

وكانت تتجنَّب الخوض في الحياة العامة وأمور السياسة.

وكانت أم سلمة من المعمرات فقد عاشت نحو تسعين سنة. فعاشت الخلافة الراشدة، وامتد بها العمر إلى عهد يزيد بن معاوية. فقد عمَّرت حتى بلغها مقتل الحسين بن عليّ شهيدًا. فوجمت لذلك وعُشيَّ عليها، وحزنت عليه كثيرًا. فلم تلبث بعده إلا يسيرًا حتى انتقلت إلى الملاء الأعلى لتلحق برسول الله ﷺ. وكان ذلك في سنة إحدى وستين للهجرة، فكانت آخر من مات من أمهات المؤمنين.

ولما ماتت صلَّى عليها أبو هريرة، ودفنها المسلمون في البقيع.

فرحمة الله وبركاته عليك يا أم المؤمنين

يا من صبرت واحتسبت فبدلك الله خيرًا مما فقدت

ورضي الله عنك وأرضاك يا «أم سلمة».

زينب بنت جحش رضي الله عنها

وإليكم أعزائي نقدم هذه الريحانة الطيبة من رياحين الصحبة العطرة، إنها من سادة النساء دينًا وورعًا وجودًا ومعروفًا. إنها من أمر الله بزواجها من رسول الله صلى الله عليه وسلم في قرآنٍ يُتَعَبَّدُ به إلى يوم القيامة. إنها أم المؤمنين «زينب بنت جحش» رضي الله عنها.

نسبها ونشأتها

هي: زينب بنت جحش بن رثاب بن يعمر بن أسد بن خزيمة الأسيديّة. وهي حفيدة عبد المطلب بن هاشم؛ فأمها: «أميمة بنت عبد المطلب»، فهي بنت عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأخوها: الصحابي الجليل «عبد الله بن جحش».

وُلدت زينب في مكة قبل الهجرة بثلاثة وثلاثين سنة. ونشأت في بيت شرف وحسب.

إسلامها

كانت «زينب بنت جحش» لا تتوق نفسها إلى ما يعبد قومها من أصنام،

وما هم عليه من شرك. فلما بدأت نسمات الإسلام تفوح بريجها الطيب في مكة، كان أخوها «عبد الله بن جحش» من أوائل الذين أسلموا - قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم -. وما أن أسلم عبد الله حتى دعا أهله إلى الإسلام، فلم يتلكأ أو يتلعثم أحد منهم. فكان إسلام أختيه: زينب وحمنة، وكذلك أخوه «أبو أحمد بن جحش». وهكذا أسلمت الأسرة كلها، ودخلوا جميعاً في دين الله. وكشأن كل السابقين الأولين للإسلام نالت زينب وقومها نصيباً من أذى قريش.

ولما أذن رسول الله ﷺ بالهجرة، هاجر بنو جحش بقيادة «عبد الله بن جحش» إلى المدينة ليعيشوا في سلام وأمان وسط إخوانهم وأخواتهم من الأنصار.

زواجها من زيد بن حارثة

الناس سواسية كأسنان المشط

لما جاء الإسلام كان من مقاصده أن يُزيل الفوارق بين الناس، فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، فأراد رسول الله ﷺ أن يحقق ذلك عملياً،

وأراد أن يُحطّم الفوارق الطبقيّة الموروثة بين المسلمين، فيرد الناس سواسية كأسنان المشط.

فلما كان الموالي - وهم الرقيق المحرّر - طبقةً أدنى من طبقة السادة، ومن هؤلاء كان زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، فأراد رسول الله ﷺ أن يحقّق المساواة الكاملة بتزويجه من شريفة بني هاشم - بنت عمته - زينب بنت جحش؛ لئسقط تلك الفوارق الطبقيّة بنفسه وفي أسرته.

ولقد كانت هذه الفوارق من العنف والعمق بحيث لا يحطّمها إلا فعلٌ عملي وواقعي من رسول الله ﷺ، تتخذ منه الأمة المسلمة أسوةً وتسير البشرية كلها على هُدهاه في هذا الطريق.

رسول الله ﷺ يخطب زينب لزيد

انطلق رسول الله ﷺ إلى زينب بنت جحش ليخطبها لزيد بن حارثة. فلما عُرض عليها الأمر كرهت وكره أخوها «عبد الله بن جحش» أن تُزفّ الشريفة ذات الحسب والنسب إلى مولى. فقالت لرسول الله ﷺ: «لست بناكحته». فقال رسول الله ﷺ: «بلى فانكحيه، فإنّي قد رضيت لك»؛ فبينما هما يتحدثان نزل قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ

وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ
ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا { [الأحزاب: ٣٧].

وهنا لم تستطع زينب أن تُخالف أمر الله ورسوله، وامتلئت وقبّلت الزواج من زيد. فساق زيد إلى بني جحش عشرة دنانير وستين درهماً، ودرعاً، وضماراً وملحفة وإزاراً، وخمسين مُدًّا من الطعام، وعشرة أمداد من التمر. أعطاه ذلك كله رسول الله ﷺ وتم الزواج.

زيد يشكو زينب لرسول الله ﷺ

واستمرَّ هذا الزواج قرابة السنة، ولكن الخلاف بين الزوجين كان يتفاقم يوماً بعد يوم. فما نسيت زينب قط أنها الشريفة حفيدة عبد المطلب، التي لم يجزَّ عليها رِقٌّ، ولا أساغت أن تكون تحت مولى كهذا. فتعذرت الحياة وتعسّرت المعيشة، وقاسى زيد من صدها وترفُّعها عليه. وهو ما جعله يشتكي إلى رسول الله ﷺ غير مرّة، وكان يريد أن يُطلِّقها. وكان رسول الله ﷺ يقول له: «أمسك عليك زوجك واتق الله». ويوصيه بمزيد من الصبر والاحتمال.

زيد يُطلِّق زينب:

كان الله -تعالى- قد أخبر نبيّه أن زينب بنت جحش ستكون زوجة له. فخاف ﷺ من المنافقين وأقوالهم، فوجد في نفسه غضاضة أن يأمر زيدا بطلاقها ويتزوجها من بعده، فتشيع المقالة في الناس: أن محمداً تزوج حليلة ابنه - وكانوا يُحرمون زوجة الابن بالتبني الذي كان يُعامل معاملة الابن الحقيقي، وكان زيد ابن رسول الله ﷺ بالتبني، وكان يُدعى: زيد بن محمد-. فكتّم رسول الله ﷺ في قلبه وأخفى ما أخبره الله به.

فكان العتاب الإلهي لرسول الله ﷺ فأنزل الله - سبحانه- قوله: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ} [الأحزاب: ٣٧]؛ فلما زادت الفجوة بين زينب وزيد، حتى وصلت الحياة بينها إلى طريق مسدود. فلما جاء زيد يشكو زينب إلى رسول الله ﷺ أذن له أن يطلِّقها.

زواج من فوق سبع سموات

وبعد أن طلق زيد زينب، وانقضت عدتها تزوجها رسول الله ﷺ بأمر من

الله - سبحانه - لقوله تعالى: { **فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا** } [الأحزاب: ٣٧].

فكان زواج رسول الله ﷺ من زينب بأمر من الله من فوق سبع سموات، بلا ولي ولا شهود، فكان الله هو وليها وشاهدها.

وقد أوضح الله - تعالى - السبب الباعث على هذا الزواج، وهو حكمة تشريعية عظيمة. وهي إسقاط التبني، وأول من يُطبَّق هذا التشريع هو رسول الله ﷺ على من تبَّاه. فقال سبحانه: { **لَكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا** } [الأحزاب: ٣٧].

ثم كانت آيات إسقاط التبني بشكل واضح وصريح في قوله تعالى: { **ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا** } [الأحزاب: ٥].

وهكذا أصبحت «زينب بنت جحش» زوجًا لسيد الأولين والآخرين وأماً للمؤمنين. وكانت تفخر على بقية زوجات النبي ﷺ وتقول لهن: «زوّجكن أهاليكن، وزوّجني الله - تعالى - من فوق سبع سموات».

مناقبها وفضائلها

كانت زينب بنت جحش رضي الله عنها من أجمل النساء خلقًا، وأحسنهن خلقًا، وأذكاهن نفسًا، وأطولهن يدًا في البذل والإنفاق.

وهاك بعض من مناقبها وفضائلها:

١ - الأواهة

عاشت «زينب بنت جحش» في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي ظله وحمائته، تنعم بالقرب منه، وتنهل من علمه وخلقه ما شاء الله لها أن تنهل.

فصحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة خيبر والطائف، ثم حجة الوداع.

وكانت كثيرة الصلاة، خاشعة القلب، موصولة بالله، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب هذه الصفات فيها. فأولاها عناية خاصة، وقد منحها منقبة عظيمة

بأن قال لعمر بن الخطاب: «إن زينب بنت جحش أواهة»، فقال رجل: يا

رسول الله، ما الأواه؟ قال: «الخاشع المتضرع» ثم تلا قوله تعالى: { **إِنَّ**

إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ } [هود: ٧٥].

٢ - جودها وكرمها

كانت «زينب بنت جحش» سبابة للخير، صناعة للمعروف. فكانت تعمل

بيدها تدبغ وتخز وتتصدق بذلك كله للمساكين، فكانت مفزع اليتامى والأرامل، حتى إن البعض كان يُلقبها «بأمّ المساكين»، وهذا اللقب كانت تُلقب به أيضًا أم المؤمنين «زينب بنت خزيمة» - كما أسلفنا -.

أسرعن لحاقاً بي أطولكن يداً

وقد وصفها رسول الله ﷺ بطول اليد، كناية عن كثرة إنفاقها.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «قال رسول الله ﷺ: «أسرعن لحاقاً بي أطولكن يداً»، فكنا إذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد وفاة رسول الله ﷺ نمدُّ أيدينا إلى الجدار نتناول، فلم نزل نفعل ذلك حتى تُوفيت «زينب بنت جحش»، ولم تكن بأطولنا. فعرفنا حينئذ أن النبي ﷺ إنما أراد بطول اليد الصدقة، وكانت زينب امرأة صنّاع اليدين - أي: تعمل بيدها - تدبغ وتخز وتتصدق بذلك كله في سبيل الله».

٣ - زهدا

إن الزهد والكرم صفتان متلازمتان لأهل الجود والكرم، ومن أكرم وأجود ممن كانوا في صحبة «خير الأنام» ﷺ. فهذه أمنا «زينب بنت جحش»

تضرب مثلاً في الزهد، فلم تكن تحتفل بالمال أو بشيء من زخرف الدنيا. فقد أرسل لها عمر بن الخطاب عطاءها - اثني عشر ألفاً - فجعلت تقول: «اللهم لا يدركني هذا المال من قابل؛ فإنه فتنة»، ثم قسمته في أهل رحمها، وفي أهل الحاجة. فبلغ ذلك عمر، فوقف ببابها وأرسل إليها بالسلام وقال: بلغني ما فرقت، فسأرسل ألف درهم تستبقينها. وأرسل الألف درهم، فتصدقت بها جميعاً ولم تُبقِ منها درهماً.

وهكذا كانت حياة «زينب بنت جحش»، حتى قيل: «ما تركت زينب بنت جحش درهماً ولا ديناراً، كانت تتصدق بكل ما قدرت عليه، وكانت مأوى المساكين».

٤- ورع وتقوى

كانت «زينب بنت جحش» شديدة الورع والخوف من الله. وقد ظهر ذلك جلياً في «حادثة الإفك». فلم يمنعها التنافس بينها وبين عائشة من الدفاع عنها، وألا تقول إلا الحق لتحمي سمعها وبصرها وتعصم بذلك دينها؛ خوفاً من الله - سبحانه وتعالى -.

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل زينب بنت جحش

عن أمري، فقال لزينب: «ماذا علمت أو رأيت؟». فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيرًا. قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني في أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع». وهكذا عصمها الله -تعالى- بدينها فقد كانت نقيّة، صادقة التدين، عفة اللسان، لا تقول إلا خيرًا.

٥ - آيات من القرآن نزلت فيها:

لقد أنزل الله -سبحانه وتعالى- آيات من كتابه الحكيم في زينب بنت جحش؛ نذكر منها:

آيات إبطال التبني

لقد أنزل الله -سبحانه وتعالى- آيات بينات تُبطل عادة التبني، وهو أمر كان شائع في الجاهلية -أسلفنا ذكرها بالتفصيل-. يقول أنس بن مالك: إن هذه الآيات نزلت في زينب بنت جحش وزيد بن حارثة.

آية الحجاب

ومن بركات «زينب بنت جحش» أن نزلت آية الحجاب بسببها.

فعلن أنس بن مالك قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو تهيأ للقيام فلم يقوموا. فلما رأى ذلك قام، فقام من قام وقعد ثلاثة نفر، فرجع النبي ﷺ فإذا القوم جلوس، فلما انطلقوا جئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله -تعالى- قوله:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاطِرِينَ إِنَّا هُوَ وَلَكِنَّ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا } [الأحزاب: ٥٣].

وهذه الآية تتضمن آداباً لم تكن تعرفها الجاهلية في دخول البيوت. فقد كان الناس يدخلون البيوت بلا إذن من أهلها، وكان بعضهم لما يرى الطعام فيأكل بدون دعوة من أهل البيت إلى الطعام، وكان بعضهم يجلس بعد الطعام ويأخذ في الحديث والسمر، غير شاعر بما يسببه هذا من إزعاج. وقد كان رسول الله ﷺ شديد الحياء يستحي أن يحدث الناس في هذا الأمر وهم في بيته. فكانت هذه الآية لتعلم المسلمين أمور دينهم ودنياهم.

ومن يومئذ فرض الحجاب على نساء النبي ﷺ وجعل لهن المكانة الخاصة التي تليق بهن.

٦ - علمها وفقهها

لقد كانت أم المؤمنين «زينب بنت جحش» فقيهة مُحَدِّثة، فقد روت عن رسول الله ﷺ أحد عشر حديثاً، وروى عنها ابن أخيها محمد بن عبد الله بن جحش ومولاه مذكور وأم المؤمنين أم حبيبة، وربيبه رسول الله ﷺ زينب بنت أبي سلمة، وعدد من كبار التابعين والتابعات.

خلاصة المناقب والفضائل

وقد جمعت السيدة عائشة خلاصة فضائل ومناقب «زينب بنت جحش»؛ فقالت: «لم أر امرأة قط خيراً في الدين، وأتقى لله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، من زينب بنت جحش».

الفصل الأخير

وبعد حياة طويلة مليئة بالعطاء، وحب الخير، والتقرب إلى الله ترقد أم المؤمنين «زينب بنت جحش» على فراش الموت. وكان ذلك في سنة عشرين

من الهجرة وفي عصر عمر بن الخطاب، وقد بلغت من العمر ثلاثة وخمسين عاماً.

تصدقوا بكفني

ولما حضرتها الوفاة قالت: «إني قد أعددت كفني، وإن عمر أمير المؤمنين سيبعث إليّ بكفن فتصدقوا بأحدهما. وإن استطعتم أن تتصدقوا بحقوي - أي: إزاري - فافعلوا».

وتغمض أم المؤمنين «زينب بنت جحش» عينها لتنتقل إلى الملاء الأعلى، لتكون أول أمهات المؤمنين لحاقاً برسول الله ﷺ؛ كما تنبأ بذلك رسول الله ﷺ وقال: «أسرعن لحاقاً بي أطولكن يداً».

وصلى عليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وشيّعها أهل المدينة إلى البقيع، ونزل في قبرها أسامة بن زيد، ومحمد بن عبد الله بن جحش، وعبد الله بن أبي أحمد بن جحش.

فرحة الله وبركاته عليك يا أم المؤمنين

يا من كان الله وليك وشاهدك فأمر بزواجك من رسول الله ﷺ

من فوق سبع سموات

ورضى الله عنك وأرضاك «يا زينب بنت جحش».

أم حبيبة رضي الله عنها

ولنهبط أعزائي الآن على بستان الصُّحبة العَطِرة، لنقتطف منه ريحانة أخرى من رياحينه التي ملاً ريحها العطر الدنيا كلها. فريحانتنا كانت من أوائل الذين آمنوا بربهم، وأسلمت لله رب العالمين رغم صدود قومها وأهلها المقربين وعداؤهم الشديد لله ورسوله. إنها مَنْ ابْتُلِيَتْ في زوجها لما ارتدَّ عن دين الإسلام وهي في بلاد الحبشة لتصبح غربتها غربتين؛ غربة الأهل وغربة الوطن، فتصبر وتحسب لتنال المنحة الربانية الكبرى، وتصبح أُمًّا للمؤمنين.. إنها النجبية الرشيدة «أم حبيبة» رضي الله عنها.

نسبها ونشأتها

هي: رملة بنت أبي سفيان، صخر، بن حرب بن أمية.

وأُمها: صفية بنت العاص الأموية.

وُلِدَتْ بمكة وكان أبوها «أبو سفيان» زعيم مكة وقائد جيشها.

ولما بلغت سنّ الزواج، تزوجت من «عبيد الله بن جحش» ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخو الصحابي الجليل «عبد الله بن جحش» وأخو أم المؤمنين «زينب بنت جحش».

إسلامها

لم يكن يخطر ببال أبي سفيان بن حرب سيد قريش المطاع أن في وسع أحد من قريش وخاصة أفراد أسرته أن يخرج على سلطانه أو يخالفه في الأمر. لكنَّ ابنته «رملة» وفي تحدٍّ لأبيها وقومها استجابت لدعوة الحق وكانت هي وزوجها «عُبَيْد الله بن جحش» من أوائل الذين شرح الله صدورهم للإسلام.

وقد حاول أبو سفيان بكل ما أُوتي من بأس وسطوة أن يُرَدَّ ابنته وزوجها إلى دين آبائه وأجداده. ولكنه لم يُفلح، فقد رسخ الإيمان في قلب رملة، فأصبح أبو سفيان ساخطاً على ابنته، وركبه الهمُّ بعد أن عجز عن إخضاعها لمشيئته.

الهجرة إلى الحبشة

فلما وجدت قريش أن أبا سفيان ساخطاً على رملة وزوجها، اجترأت عليها، وطفقت تُضيِّقُ عليها الخناق، حتى أصبحت الحياة في مكة لا تُطاق. فلما خشى رسول الله ﷺ على أصحابه من بطش قريش أذن لهم بالهجرة إلى الحبشة. فهاجرت رملة وزوجها مع من هاجروا، وتركت أباها

بمكة وقد اشتدَّ غيظه أن أسلمت ابنته، وهاجرت وليس له عليها سبيل.
وهناك في الحبشة وضعت رملة ابنتها «حبيبة بنت عبید الله» والتي كُنيت بها
فصارت تُدعى «أم حبيبة».

الغربة تُصبح غربتين

واستقرَّ بها وبزوجها وابنتها المقام في الحبشة، وفي رعاية النجاشي، الذي
أحسن للمسلمين ورفض محاولات قريش لاسترداد هؤلاء المهاجرين
الفارِّين بدينهم. وحسبت «أم حبيبة» بعد ذلك أن الأيام قد صفت لها، إذ لم
تكن تعلم ما خبَّأته لها المقادير...!!

ففي ذات ليلة رأت فيما يرى النائم أن زوجها «عبید الله بن جحش» يتخبط
في الظلمات وهو بأسوأ صورة وأشوهها. فهبَّت من نومها مذعورة لترى
رؤياها قد تحققت، فقد ارتد زوجها عن الإسلام، واعتنق النصرانية، فلما
أخبرها بذلك قالت له: والله، ما هذا بخير لك، وأخبرته بالرؤيا التي
رأت، فلم يحفل بها وخيَّرها بين أمرين أحلاهما مُرٌّ: فإما أن تتبعه في
نصرانيته أو تُطلق. فاخترت البقاء على دينها الذي من أجله فارقت الأهل
والأوطان.

وأكبَّ «عُبَيْدُ اللَّهِ» على الخمر يشربها ليلاً ونهاراً، وتركها وحدها بعد أن طلقها. فأغلقت الباب عليها وعلى وليدتها، لا تُريد أن تلقى الناس، وظلت هكذا في دار هجرتها ولا سبيل لها في العودة إلى أبيها وهو ما زال قلعة الشرك. فظلت حبيسة بمنزلها لتضاعف غربتها وتصبح الغربة غربتين: غربة الوطن وغربة الأهل، إذ كانت تجد في زوجها عوضاً عما فارقت من أهل وعشيرة، أما وقد فارقتها فلا أهل ولا وطن.

أُمَّا لِلْمُؤْمِنِينَ

بشرى من رسول الله ﷺ

وظلت «أم حبيبة» في وحدتها وقد فوّضت أمرها كله لله، أما عُبَيْدُ اللَّهِ بن جحش فقد ظل منكباً على الخمر حتى مات. وما أن انقضت عدتها إلا وجاءها السعد والفرحة والمنحة الربانية.

ففي ذات يوم وهي في عزلتها الحزينة طُرق عليها الباب، فلما فتحت وجدته «أبرهة» وصيفة النجاشي فقالت لها: «وَكَلِّي عَنكَ مَنْ يَزُوجُكَ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ». فقد أرسل كتاباً إلى الملك وكله فيه بأن يزوّجك له». فما أن سمعت أم حبيبة بهذه البشري حتى استطارت فرحاً وطفقت تلح ما عليها

من حُلِّي، فنزعت سوارين لها من فضة، ثم أتبعته ذلك بخلخالها ثم بقرطها، وأعطت كل ذلك لأبرهة وصيفة النجاشي مكافأة لها على هذه البشري.

وقالت لها: «وَكَلَّتْ خالداً بن سعيد بن العاص»، فهو أقرب الناس وكبير المهاجرين من قومها بني أمية.

إتمام مراسم الزواج

وفي المساء دعا النجاشي إليه مَنْ بالحبشة من المسلمين، فجاءوا يتقدمهم جعفر بن أبي طالب وخالداً بن سعيد بن العاص «وكيل أم حبيبة».

فلما اكتمل الجمع، فتكلم النجاشي، وقال: إن محمداً بن عبد الله كتب إليّ أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، فمن أولاكم بها؟ فقال القوم: خالد بن سعيد فقد وكتته، فتوجه إليه النجاشي وقال: يا خالد، زوج أم حبيبة من نبيكم، وقد أصدقته عن أربع مائة دينار. فقام خالد وقال: قد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ وزوجته أم حبيبة. وقبض خالد الصداق.

وقد أولم النجاشي وليمة الزواج، فلما همَّ القوم بالانصراف قال لهم: اجلسوا فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يُطعموا طعاماً. فجلسوا وأكل

القوم ثم انفضوا. وأعطى خالد لأم حبيبة صداقها، وباتت أمًا للمؤمنين.

الملك يُجزل العطاء

ولما أصبحت «أم حبيبة» جاءت «أبرهة» وصيفة النجاشي تحمل إليها هدايا نساء الملك من عود وعنبر وطيب. فقدمت إليها أم حبيبة خمسين دينارًا من صداقها قائلة: كنت أعطيتك ما أعطيت بالأمس وليس بيدي شيء من المال، وقد جاءني الله -عز وجل- بهذا. فأبت أبرهة أن تمس الدنانير ورددت إليها ما أعطته إياها بالأمس، وقالت: إن الملك قد أجزل لي العطاء وأمرني ألا آخذ من أم المؤمنين شيئًا، كما أمر نساءه أن يبعثن بكل ما عندهن من طيب. فتقبلت أم حبيبة الهدايا شاكرة، واحتفظت بها حتى حملتها معها إلى بيت النبي ﷺ.

في رحاب رسول الله ﷺ

من حالٍ إلى حال

ولبت «أم حبيبة» في أرض الحبشة بعد زواجها من رسول الله ﷺ بضع سنين، وقد تغير حالها من حالٍ إلى حال. فقد ذهب عنها الحزن والعزلة

التي سبَّها لها «عبيد الله بن جحش»، وأصبحت مُقبلة على الحياة في سعادة وشوق للعودة إلى المدينة ورؤية الحبيب المصطفى ﷺ، بوصفه هاديًا ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وبوصفه زوجًا لها، وقد جمع الله بينهما بكلمته العليا وميثاقه الغليظ. فأَيُّ سعادة أعظم من أن تعيش في كنفه وتأنس بجواره، وتُحشر يوم القيامة مع أمهات المؤمنين.

العودة إلى المدينة

فلما استقر الحال بالمسلمين في المدينة، وطاب لرسول الله ﷺ المقام بها أرسل عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ليرسل إليه المسلمين المهاجرين هناك. فحملهم في سفينتين وأتى بهم أجمعين ومن بينهم «أم حبيبة». فلما وصلوا إلى المدينة استبشروا بنبأ أثلج صدورهم وهو فتح خيبر، واستقبلهم رسول الله ﷺ في سعادة وبشر.

هذا الفحل لا يُجدع أنفه

واحتفلت المدينة بعودة المهاجرين، وكان هناك احتفال آخر خاص بزواج رسول الله ﷺ من أم حبيبة. فقد أولم لها خالها «عثمان بن عفان» وليمة حافلة نُحِرَ فيها الذبائح وأطعم من حضر من الناس.

أما مكة فباتت ساهدة مؤرقة تردد قول زعيمها «أبي سفيان» والد أم حبيبة، حين بلغه نبأ زواجها من رسول الله ﷺ: «هذا الفحل لا تُجَدَع أنفه». أي: إنه كفاء كريم لا يُردُّ.

في بيت رسول الله ﷺ

وتدخل أم المؤمنين «أم حبيبة» بيت رسول الله ﷺ واستقبلها نساء النبي ﷺ استقبالا حسنا، وأكبرنها، وأكرمن وفادتها؛ لأنهن يعرفن مدى ما عانته في سبيل الله، وإنها الزاهدة القانئة ذات الخلق الفاضل والقلب السليم. وظلت أم حبيبة تنهل من النبع الصافي، من رسول الله ﷺ تقتبس من هديه وأخلاقه.

بين الأب والزوج

وكانت «أم حبيبة» تعاني ما تعاني من بقاء أبيها على الشرك، وهو العاقل النجيب، السيد في قومه، وقد عرفت أن رسول الله ﷺ لا يرضى للناس الكفر. فألمها أن تظل الحرب بين زوجها وأبيها قائمة تأكل من رجال أعزة عليها، فما من قتيل إلا هو من شيعة أبيها وقرابتها، وما من شهيد إلا وهو من صحابة زوجها وأبنائها المؤمنين.

موقف لا يُنسى

لن ينسى التاريخ لأم حبيبة هذا الموقف الذي تغلبت فيه على نفسها، ووقفت بجانب الحق ضد الباطل حتى ولو كان هذا الباطل هو أبوها نفسه.

فلما بلغ أم المؤمنين «أم حبيبة» أن قريشاً نقضت عهد الحديبية، وأدرت بفظتها أن رسول الله ﷺ لن يسكت على ضيم أو يرضى أن يُعَدَّر به أو يُنقض له عهد. فهل تراه يغزو مكة ليهدم الأصنام على رؤوس المشركين، وفيهم أبوها وإخوتها وأكثر أهلها وعشيرتها.

كذلك لاحت نُذُر الخطر في مكة فاجتمع قادتها يتشاورون في أمر رسول الله ﷺ الذي يوشك أن ينقض عليهم، ولا قبل لهم به. فقد صار له السلطان الأكبر في بلاد العرب. واستقر رأيهم أن يُوفدوا رسولاً منهم إلى المدينة ليفاوض رسول الله ﷺ في تجديد الهدنة. فمن يكون رسولهم؟ إنه أبو سفيان بن حرب، ولا أحد سواه.

فانطلق أبو سفيان مُكرهاً إلى المدينة، ولما بلغها أشفق من لقاء رسول الله ﷺ. فذهب إلى بيت ابنته «أم حبيبة» ليستعين بها على ما جاء من أجله فدخل عليها. فلما ذهب ليجلس على الفراش فطوته عنه في إعزاز. فسألها

وهو يلوذ بالصبر: «أطويتيه يا بنية رغبةً بي عن الفراش، أم رغبةً بالفراش عني؟». فقالت في حزم وصرامة: «هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس فلم أحب أن تجلس عليه». فقال -والألم يفري كبده-: لقد أصابك يا بنية بعدي شرٌّ، ثم انصرف مغلوبًا.

وهكذا كانت «أم حبيبة» اختارت في حزم وصرامة الحق على الباطل في موقف لن ينسأه لها التاريخ.

ألا يمكن أن يسلم أبو سفيان؟

ويترك أبوها منزلها، وتبقى هي مستندة على جدار بيتها، عصية الدمع. حتى جاء رسول الله ﷺ وعرفت منه ما كان من أمر أبيها وفشله في مهمته بعد لقاء رسول الله ﷺ ثم أبو بكر ثم عمر ثم علي بن أبي طالب، ليعود خائبًا إلى مكة.

فلم تجد «أم حبيبة» ما تفعله أو تقوله، فسلمت الأمر لله ودعت لزوجها بالنصر وقد رآته يتخذ أهبته للمعركة الفاصلة في البلد الحرام. لقد كان الموقف صعبًا بالغ الصعوبة على أم حبيبة، فانتصار رسول الله ﷺ يعني القضاء على أبيها وعشيرتها، فهل يبرأ قلبها من الحزن للمصير الذي

ينتظرهم؟. وإذ هي في حيرتها لاح لها شعاع من الأمل!! ألا يمكن أن يسلم أبو سفيان كما أسلم عمر بن الخطاب وأخوها معاوية وخالد بن الوليد، وغيرهم؟

فتعلقت بهذا الأمل وتوجهت إلى ربها بقلب خاشع تدعوه أن يهدي أباهها للإسلام. واستجاب لها ربها فأسلم أبوها أثناء فتح مكة، وأسلم الكثير من قومها ففرحت بذلك فرحًا شديدًا.

وذهب عنها ما كانت تجد في نفسها من حزن، وخاصة لما علمت أن رسول الله ﷺ قال: «من دخل البيت الحرام فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن».

فما أكرم زوجها الرسول، وما أحلمه، وما أنبله، وما أوصله!! فحمدت الله - سبحانه - وسجدت له شكرًا.

الفصل الأخير

وعاشت أم حبيبة بعد ذلك راضية النفس، مطمئنة القلب، مشغولة بشأن زوجها، وعبادة ربها، ولا تعمل إلا ما فيه صالح الأمة.

ولما أحست بدنو أجلها دعت عائشة بنت أبي بكر وقالت لها وهي تحتضر: «قد يكون بيننا ما يكون بين الضرائر، فغفر الله لي ولك ما كان من ذلك»

فحللتها عائشة، واستغفرت لها.

حينئذ تهلل وجهها وهمست إلى عائشة قائلة: «سررتني سرُّك الله».

وفعلت مثل ذلك مع أم سلمة.

وتغمض «أم حبيبة» عينيها، وترقد في سلام لتصعد روحها الطاهرة إلى

بارئها ويؤارى جسدها الطاهر في البقيع.

وكان ذلك سنة أربع وأربعين للهجرة في خلافة أخيها معاوية بن أبي

سفيان.

هكذا رحلت أمنا «أم حبيبة» تاركة سيرتها الطيبة، وبلغت الأحاديث التي

روتها عن رسول الله ﷺ خمسة وستين حديثاً، وروت عنها ابنتها حبيبة ربيبة

رسول الله ﷺ وابن أخيها عبد الله بن عتبة بن أبي سفيان وابن أختها أبو

سفيان بن سعيد بن المغيرة، وعروة بن هشام بن المغيرة، وزينب بنت أبي

سلمة ربيبة رسول الله ﷺ، وغيرهم.

فرحمة الله وبركاته عليك يا أم المؤمنين

يا من اخترت الحق على الباطل

وصبرت واحتسبت فكان فضل الله عيك عظيماً

ورضي الله عنك وأرضاك يا «أم حبيبة».

جويرية بنت الحارث رضي الله عنها

والآن أعزائي نحن على موعد مع زهرة أخرى من أزاهير الصحبة العطرة. إنها صحابية جليلة كان إسلامها فاتحة الخير على أهلها وقومها، حتى قيل: ما من امرأة أعظم على قومها بركة منها. إنها أم المؤمنين «جويرية بنت الحارث» رضي الله عنها.

نسبها ونشأتها

هي: برة بنت الحارث بن أبي ضرار بن حبيب. وسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم «جويرية» فعُرِفَتْ باسم «جويرية بنت الحارث». وُلِدَتْ جويرية قبل الهجرة بأربعة عشر عامًا. وقد نشأت في رغد من العيش، فهي ابنة زعيم بني المصطلق وسيدهم «الحارث بن أبي ضرار»، وقد عاشت وترعرعت في بني المصطلق وهم حي من خزاعة. فلما اشتد عودها وكانت مضرِبًا للأمثال في جمالها وحسن خلقها وأدبها. فكان أشرف قومها يتمنون الزواج منها. فتقدم لها أحد فتيان خزاعة وهو «مُسَافِع بن صفوان» فتزوجها. وظلت هكذا في حياة الترف والرغد في العيش في بيت أبيها ثم في بيت زوجها.

غزوة بني المصطلق

أسباب الغزوة

في شعبان في السنة السادسة للهجرة، بلغ رسول الله ﷺ أن الحارث بن أبي ضرار زعيم بني المصطلق - أبو جويرية - قد جمع قومه ومن قدر عليه من العرب يريدون حرب رسول الله وقاتله. فبعث رسول الله ﷺ ليتحقق الخبر، فلما تأكد من صحته ندب الصحابة للتشاور، فكان العزم على الإسراع بالخروج لملاقاة العدو على غرة كعادته ﷺ. فقد كان يبادر بالضربة الأولى قبل أن يتهاى العدو لذلك ليكسب المعركة بأقل خسائر.

خروج رسول الله ﷺ

فخرج رسول الله ﷺ وجعل لواء المهاجرين لأبي بكر، ولواء الأنصار لسعد بن عبادة. وكان الحارث بن أبي ضرار قد وجّه عيناً ليأتيه بخبر الجيش الإسلامي، فألقى المسلمون القبض عليه وقتلوه. وسار رسول الله ﷺ ومن معه حتى فاجأهم بالنزول على ماء قريب من بني المصطلق يُقال له: «المريسيع».

بداية الهجوم

فلما بلغ الحارث بن أبي ضرار سير رسول الله ﷺ وقتل جاسوسه ووصول المسلمين إلى المريسيع، خاف هو ومن معه خوفاً شديداً، وتفرق عنهم من كان معهم من العرب. أما رسول الله ﷺ وأصحابه فقد اصطفوا وبدأوا رمي النبل ساعة، ثم أمر رسول الله ﷺ فحملوا عليهم حملة رجل واحد ففرَّ رجالهم ومن أتى لنصرتهم. فلم تكن هناك مقاومة تُذكر، فكانت النصره للمسلمين وانهمزم المشركون.

وقد قُتِلَ من بني المُصطلق عشرة رجال وكان «مُسافع بن صفوان» زوج «جويرية بنت الحارث» أحد هؤلاء العشرة. ولم يُقتل من المسلمين إلا رجل واحد، قتله واحد من الأنصار خطأ ظناً منه أنه العدو.

وسُبي من النساء والصبيان الكثير واستولوا على إبلهم وماشيتهم وغنمهم. وكان من جملة السبي «جويرية بنت الحارث» بنت زعيم بني المُصطلق».

في رحاب رسول الله ﷺ**هل لك في خير من ذلك؟**

فلما قسم رسول الله ﷺ السبايا، وقعت «جويرية بنت الحارث» في سهم

ثابت بن قيس، فكاتبته على نفسها -أي: أرادت تحرير نفسها بشيء من المال تقدمه له - فكاتبها على أوراق من الذهب، ولم يكن معها شيء.
 فهداها عقلها الرشيد أن تذهب بنفسها إلى أكرم الخلق ﷺ تستنجد به وتطلب منه العون، وذلك لما عرفت عنه من حُسن السمائل وكرم الأخلاق.
 فجاءت إلى رسول الله ﷺ ووقفت على بابه تستأذن في الدخول عليه، فلما دخلت قالت له في ضراعة يصاحبها عزة وإباء: «يا رسول الله، أنا بنت الحارث بن أبي ضرار سيّد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخفَ عليك، فوقعت في سهم لثابت بن قيس فكاتبته على نفسي فجئتك أستعينك على أمري».

وهنا تجلت رحمة رسول الله ﷺ ورأفته ورقة قلبه الكريم للعربية الخُزاعية بنت سيد بني المُصطلق، وهي تلوذ بمرؤته ونجدته. فقال لها: «فهل لك في خير من ذلك؟» قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «أؤدي عنك وأتزوجك». فقالت في فرحة وهي لا تكاد تصدّق أنها نجت من الضياع والهوان: نعم يا رسول الله. فقال: «قد فعلت».

فتزوجها رسول الله ﷺ، وكانت في العشرين من عمرها.

اخترت الله ورسوله

لما علم الحارث بن أبي ضرار بأن ابنته سُبيت، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا محمد، أصبتم ابنتي وهذا فداؤها، فإن ابنتي لا يُسبى مثلها فخلّ سبيلها». فقال له رسول الله ﷺ: «أرأيت إن خيرتها أليس قد أحسنت؟» قال: بلى. فأتاها أبوها فذكر لها ذلك. فقالت: «اخترت الله ورسوله»، فتعجب أبوها وهو لا يدري أن الله قد شرح صدرها للإسلام. وأن كل من عاشر رسول الله ﷺ أو صاحبه لم يكن ليفضل عليه أحدًا في العالمين. ولعل تلك الواقعة تُذكرنا بما كان من زيد بن حارثة لما خيره رسول الله ﷺ بين العودة مع أبيه، أو البقاء معه، فاختر رسول الله ﷺ.

* ارجع إلى حياة «زيد بن حارثة» في الجزء الثالث «حياة الصحب الكرام» للمؤلف.

بركة العروس على قومها

وما أن سمع المسلمون بهذا الزواج، حتى تداعوا إلى تكريم السيدة التي أعزّها نبيهم بالزواج منها. فأقبلوا على ما بأيديهم من أسرى فأرسلوهم أحرارًا. وهم يقولون: «أصهار رسول الله» وقد أعتق يومئذ أكثر من مائة أهل بيت من بني المصطلق.

تقول السيدة عائشة: «ما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها». تقصد «جويرية بنت الحارث».

وكان اسمها «برّة» - كما أسلفنا - فساها رسول الله ﷺ «جويرية»؛ لأنه ﷺ كان يكره الأسماء التي يُشَمُّ منها رائحة الغضب أو التشاؤم أو تزكية النفس. كأن يُقال: أهنأ برّة؟ فيقال: لا، فيُفهم من ذلك عدم وجود البرِّ في هذا المنزل.

إسلام الحارث وبنو المُصطلق

وقد أسلم الحارث بن أبي ضرار لما رأى من رحمة وعطف رسول الله ﷺ وإسلام ابنته، وبإسلامه أسلم الكثير من قومه «بنو المُصطلق». فهكذا كان نبي الرحمة ﷺ في كل فعل من أفعاله لا يريد إلا الخير للناس كافة. فكان هذا الخير على جويرية وقومها، وأنعم الله عليهم بنعمة الإسلام.

تقتبس من نور الهدى

في بيت رسول الله ﷺ

وعاشت جويرية في أكرم البيوت، تنعم فيه بخير الدنيا والآخرة. فبعد أن كانت تعيش في قصر أبيها، ثم قصر زوجها، تنتقل إلى هذا البيت المتواضع الذي لم تر فيه من مظاهر الترف ورغد العيش ما كانت تراه في قصر أبيها

وزوجها، ورغم ذلك فقد عاشت أجمل أيام عمرها في هذا البيت المتواضع، ونسيت حياة الترف التي كانت تحياها من قبل. فلم تكن تؤذي ضرائرها بكلمة سيئة واحدة منهن، بل كانت تعفو وتصفح وتغفر.

رسول الله ﷺ يعلمها

وكانت جويرية صوامة قوامة، وتحب الخلوة في مسجدتها، وكانت كثيرة الذكر لله تعالى. تنعم بصحبة الحبيب ﷺ، وتقرب من نوره، وكان رسول الله ﷺ كلما رآها يعلمها شيئاً جديداً لكي تزداد علماً وإيماناً.

- فعن جويرية بنت الحارث: أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوم الجمعة وهي صائمة، فقال لها: «أصمتِ أمس؟» قالت: لا، قال: «أتريدين أن تصومي غداً؟» قالت: لا. قال: «فأفطري».

- وعنها أنها قالت: أتى عليّ رسول الله ﷺ غدوةً وأنا أسبّح، ثم انطلق لحاجته، ثم رجع قريباً من نصف النهار، فقال: «أما زلتِ قاعدة؟» قلت: نعم. قال: «ألا أعلمك كلمات لو عدلن بهن عدلتهن؟ - أي: يعدلن جميع ما سبّحت به من أول النهار-: سبحان الله عدد خلقه، ثلاث مرات، سبحان الله زنة عرشه ثلاث مرات، سبحان الله رضا نفسه ثلاث مرات، سبحان الله مداد كلماته ثلاث مرات».

فهكذا كان رسول الله ﷺ يعلمها أذكارًا جامعة، وكلمات نافعة تقولها في وردها اليومي. وظلت تنهل وتقتبس من نور الهدى، حتى تُوفِّي رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنها.

الفصل الأخير

وظلت أم المؤمنين «جويرية بنت الحارث» على عهدها، عابدة، صوَّامة، تقيَّة، نقيَّة، تقوم الليل وتصوم النهار، وتسبِّح الله كثيرًا في كل وقت وحين. وكانت تروي عن رسول الله ﷺ ما رأت وما سمعت فيما ينفع الناس في أمور دينهم ودنياهم. فكانت مقصدًا من مقاصد طُلاب العلم الذين ينشدون العلم من مصادره، ومَنْ أهم من زوجات رسول الله ﷺ الطاهرات يُطَلَّبُ منهنَّ العلم النافع؟

وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان، سنة ست وخمسين للهجرة، وقد بلغت سبعين سنة ترقد «جويرية بنت الحارث» على فراش الموت لتصعد روحها الطاهرة إلى بارئها، ويُشيع جثمانها الطاهر إلى البقيع. وصلى عليها مروان بن الحكم، وكان أمير المدينة آنذاك.

فرحمة الله وبركاته عليك يا أم المؤمنين

يا أعظم امرأة كانت بركة على قومها

ورضى الله عنك وأرضاك يا «جويرية بنت الحارث».

صفية بنت حبي رضي الله عنها

وإليكم أعزائي نقدّم هذه الريحانة من رياحين الصحبة العطرة. إنها من نشأت في قوم يحملون في قلوبهم حقدًا وعداوة للإسلام، ولكن الله قذف في قلبها حبًّا للإسلام ولرسول الإسلام. إنها من ذرية هارون - عليه السلام -. إنها أمّ المؤمنين «صفية بنت حبي» رضي الله عنها.

نسبها ونشأتها

هي: صفية بنت حبي بن أخطب بن سعية من بني النضير، وينتهي نسبها إلى هارون بن عمران، أخي موسى -عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام-.

وأماها: «برة بنت شموال» من بني قريظة.

وقد نشأت «صفية بنت حبي» في قبيلة بني النضير، وكان أبوها «حبي بن أخطب» هو زعيمهم وقائدهم. وكان قومها يُضمرون العداة والحقد على الإسلام ونبي الإسلام.

عداوته والله ما بقيت

وقد ظهر ذلك جليًّا يوم استقبلت يثرب النبي الذي طالما بشرت اليهود

بقرب مبعثه فهم يعرفونه في أسفارهم. ولكنهم كانوا يطمعون أن يكون هذا الرسول واحداً منهم، وهو ما يجعلهم يتفاخرون به على العرب. فلما أتى النبي ﷺ من العرب كان كل هذا الحقد والضغينة على الإسلام ورسوله ﷺ.

تقول صفية بنت حُيَي: «كنت أحبّ ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقها قط مع ولدٍ لهما إلا أخذاني دونه.

فلما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة، ونزل في قباء عند بني عمرو بن عوف. غدا عليه أبي وعمي في ظلمة الليل، فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، فأتيا كالأين ساقطين يمشيان الهوينى في فتور وضعفٍ، فهششتُ إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت أحدٌ منهما إليّ؛ لما كان بهما من الغمّ. وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم والله. قال عمي: أتعرفه وتُثبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت».

وبالفعل ظل أبوها يحمل العداة لرسول الله ﷺ طوال حياته - كما سيأتي ذكره-، فهكذا كان حال قوم «صفية بنت حُيَي»، وهكذا نشأت على عداوة الإسلام ورسوله ﷺ.

زواجها

وعاشت «صفية بنت حبي» في رغد من العيش، ولما اشتد عودها كان أشرف قومها يطمعون في الزواج منها. فرغم صغر سنّها فقد تزوجت مرتين - قبل رسول الله ﷺ - تزوجت أولاً من فارس قومها وشاعرهم: سلام بن مشكم القرظي من بني قريظة - قبيلة أمها -، ثم خلف عليها الثاني وهو: كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق النضري؛ صاحب حصن القموص أعظم حصون خيبر.

بشرى من الله

ورغم كل هذا العداء وكل هذا الحقد على الإسلام ورسوله الذي يُحيط بصفية بنت حبي من كل من حولها من اليهود، إلا أن الله - سبحانه - أراد أن يُرسل إليها بشرى طيبة. ففي ليلة عرسها بكنانة بن الربيع رأت في منامها كأن قمرًا وقع في حجرها. فلما أصبح الصبح وقصّت رؤياها على زوجها، فقال لها غاضبًا: «ما هذا إلا أنك تتمنين أن تكوني زوجًا لملك يثرب محمدًا»، ولطم وجهها لكمة قوية أحدثت في جوانب عينيها اخضرارًا ظل أثر منه زمنًا طويلاً.

وكان زوجها كان يعرف شيئاً من تأويل الرؤى. فكانت تلك بشارة من الله - سبحانه - إلى صفية بأنها ستكون زوجاً لرسول الله ﷺ، لكنها لا تعلم كيف؟ ومتى؟ وقد ملئ قلبها وقلب قومها بغضباً لرسول الله ﷺ.

اليهود في المدينة

وقبل أن نُكمل حديثنا عن «صفية بنت حُيي»، وكيف أصبحت زوجاً لرسول الله ﷺ، فلنرجع بكم أعزائي إلى الوراء قليلاً، ونتحدث عن أمر اليهود في المدينة لما دخلها رسول الله ﷺ.

كان اليهود في المدينة ثلاث قبائل مشهورة: بنو قَيْنُقَاع، وبنو النضير، وبنو قُرَيْظَةَ. وكان رسول الله ﷺ قد عاهدَهم على التعايش السلمي في المدينة، وكتبوا بذلك كتاباً (ميثاق المدينة). ولكنهم خانوا الوعد، ونقضوا العهد. وخاضوا ضد المسلمين حروباً مُعلنة وغير مُعلنة. فبنو قَيْنُقَاع أعلنوا حرباً على رسول الله ﷺ، فأجلاهم عن المدينة. وبنو النضير - قوم صفية بنت حُيي - نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ وحاولوا قتله، فكان مصيرهم الإجماع عن المدينة كما أُجِّلِي من قبلهم بنو قَيْنُقَاع.

فمنهم مَنْ فرَّ إلى أذرعات الشام ومنهم من فرَّ إلى خيبر.

أما بنو قريظة فظلوا على العهد والوعد حتى كانت معركة الأحزاب؛ حيث قام حُيَي بن أخطب - والد صفية - وهو العقل المدبّر وراء تأليب الأحزاب على مهاجمة المدينة. قام بإقناع بنو قريظة بنقض العهد مع رسول الله ﷺ والتحالف مع أعدائه. فتحالفوا مع الأحزاب ضد المسلمين وهي خيانة عظمى، فكان مصيرهم القتل لهذه الخيانة وقتل معهم «حُيَي بن أخطب» جزاءً لما اقترف.

* للاستزادة من أخبار اليهود في المدينة، ارجع إلى الجزء الأول «حياة خير الأنام ﷺ» للمؤلف.

خيبر

لما أبرم رسول الله ﷺ صلح الحديبية أمن قريشاً وأمن الجنوب كله، لكنه لم يأمن الشمال، وفيه يهود خيبر الذين يَكُونُ العداوة والبغضاء للنبي ﷺ وللمسلمين. فلما عاد المسلمون من صلح الحديبية دون أن يدخلوا المسجد أو يطوفوا بالبيت العتيق، ظنَّ اليهود أن ذلك لم يكن إلا ضعفاً. ففكروا أن يثاروا لأنفسهم ولإخوانهم الذين طردوا من المدينة وأعدوا لذلك عُدَّتْهم.

وخير مدينة كبيرة ذات حصون متعدّدة في مجموعات يحمي بعضها بعضاً، وبها مزارع كبيرة وهي تقع على بعد ٨٠ ميلاً شمال المدينة، وكانت آخر معقل لليهود في أرض الجزيرة.

خربت خيبر

ونظرًا لهذا الخطر المُحدِّق بالمسلمين والقادم من الشمال، جهّز رسول الله ﷺ جيشًا لقتالهم في أواخر المحرم من السنة السابعة للهجرة. فلما أشرف رسول الله ﷺ على خيبر قال: «الله أكبر، خربت خيبر، إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». وخربت خيبر، وفتحت حصونها المنيعة حصنًا حصنًا، وقُتل رجالهم، وسُبي نساؤهم وفيهن «صفية بنت حُيي».

رحمة الله للعالمين

لم تكن صفية قد تجاوزت السابعة عشرة من عمرها، وقُتل زوجها «كنانة بن الربيع» في هذه المعركة. وسيقت النساء السبايا وفي مقدمتهم «صفية بنت حُيي» وابنة عم لها يقودهما بلال مؤذن رسول الله ﷺ، فمر بهما على ساحة

امتلاَّت بالقتلى من اليهود، وقد تناثرت أشلاؤهم هنا وهناك. فلما رأتهم ابنة عمه صفية صرخت وصاحت صياحًا شديدًا وصكَّت وجهها وحثَّت التراب فوق رأسها ومزقت ثيابها. أما صفية فكانت تتميز برباطة الجأش، فلم تفعل مثل ما فعلت صاحبته، لكنَّ الصيحة احتسبت في حلقها وكظمت غيظها.

فلما جيء بهما إلى رسول الله ﷺ، صفية في حزنها الصامت ورباطة جأشها، والأخرى شعثناء الشعر، مُعَفَّرَةٌ بالتراب، مُمَزَّقَةٌ الثياب، ولا تُكْفُّ عن العويل والنواح. فقال ﷺ: «أغربوا عني هذه الشيطانة»، ثم نظر إلى صفية نظرة رحمة وهو يقول لبلال: «أَنْزِعْتُ يا بلال منك الرحمة حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما؟»، ثم أمر بصفية فحيزت خلفه وألقى عليها رداءه، فكان ذلك إعلامًا بأنه ﷺ اصطفاه لنفسه.

فصدق الله العظيم أن سَمَّكَ «رحمة للعالمين» بأبي أنت وأمي يا رسول الله. فهذا رسول الرحمة ﷺ اصطفى صفية لنفسه تكريمًا لها، فهي سيدة قومها و بنت سيدهم، ورأى في وجهها ساحة تدل على سلامة قلبها. فكان في تكريمها هذا صيانة لها من أن تكون سبيَّة لرجل لا يعرف شرفها ولا نسبها في قومها. كما أن رباط المصاهرة بينه ﷺ وبين اليهود قد يكون فيه ما يُخَفِّف من عداوتهم للإسلام والانضواء تحت لوائه.

صفية أمًا للمؤمنين

الله يشرح صدرها للإسلام

وانتظر رسول الله ﷺ بخير كعادة المتصر، و«صفية بنت حبي» تُعامل المعاملة التي تليق بها وبشرفها. وكان رسول الله ﷺ يعلم بنور الله أن صفية قد حَسَنَ إسلامها وأنها أَحَبَّتْهُ وحفظت له صنيعه بها.

فلما انقضت عدتها من كنانة بن الربيع، عرض عليها رسول الله ﷺ الزواج، فقبلت على الفور وبلا تردُّد شاكرةً له حُسن صنيعه، وقالت: «يا رسول الله، كنت أتمنى ذلك في الشرك، فكيف أن مكَّني الله منه في الإسلام؟». فأعتقها رسول الله ﷺ، وكان عتقها هو صداقها.

وكان الله - سبحانه - قد شرح صدرها للإسلام ولحب رسول الله ﷺ، وهي التي قالت: «انتهيت إلى رسول الله ﷺ وما من أحد أكره إليَّ منه، قتل أبي وزوجي وكثير من قومي. فقال ﷺ: «يا صفية، إن أباك ألبَّ عليَّ العرب، وإن قومك قالوا كذا وكذا»، وما زال يحدثني حتى ذهب ذلك مني، فما قمتُ من مقعدي ومن الناس أحب إليَّ منه ﷺ».

في حراسة أبي أيوب الأنصاري

ويعود رسول الله ﷺ بأصحابه إلى المدينة، فلما كان بالصهباء نزل هناك

ليستريح هو ومن معه وجعلت له قبة وبني بصفية هناك. وخارج هذه القبة بات أبو أيوب الأنصاري يقظان ساهراً متوشّحاً سيفه وأخذ يطوف بالقبة طوال الليل من غير علم رسول الله ﷺ، فلما خرج رسول الله ﷺ، مبكراً، كَبَّرَ أبو أيوب حين أبصره فسأله رسول الله ﷺ: «ما بك يا أبا أيوب؟». قال: لم أرقد ليلتي يا رسول الله، فقد خُفْتُ عليك من هذه المرأة وقد قتلت أباهاً وزوجها وكثير من قومها فخفت أن تقتلك.

فتبسم رسول الله ﷺ ودعا له قائلاً: «اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني».

فهكذا كان حبّ الصحابة لرسول الله ﷺ، وخوفهم عليه، فلم يأمنوا لليهود بعد غدرهم ومحاولتهم قتل رسول الله ﷺ في أكثر من مرة.

وتعود «صفية بنت حُيي» في صحبة رسول الله ﷺ، وهي في قمة السعادة بما نالت من رضى الله ورسوله. فلم يكن يخطر ببالها أن تكون يوماً واحدة من نساء المؤمنين، فكيف وقد أصبحت أمّاً للمؤمنين.

فضائلها ومناقبها

ووصلت «صفية بنت حُيي» بيت النبي ﷺ، ورحبت بها أمهات المؤمنين إلا أنهم لم ينسوا لها أنها من سلالة اليهود، لكنها بذكاؤها ولباقتها مع حماية

رسول الله ﷺ وعطفه عليها استطاعت أن تتعايش معهن.
وهناك بعض فضائلها ومناقبها:

١ - كرم ولباقة

لما انتقلت صفية إلى دُور النبي ﷺ، حملت معها الخير لأخواتها أمهات المؤمنين. وفي مظهر من مظاهر كرمها ولباقة طبعها بدأت بتقديم الهدايا لهن، ولكنها بدأت بريحانة رسول الله ﷺ ابنته «فاطمة الزهراء»؛ فأهدتها حلية من ذهب رمزاً لمودتها، وكذلك فعلت مع أمهات المؤمنين. وبهذا الذكاء والكرم واللباقة تكون صفية اللبيرة العاقلة قد علمت أن الهدية لها وقع وأثر عظيم في نفوس الناس؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «تهادوا تحابوا» (أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» ٥٩٤ وحسنه الألباني).

٢ - عطف رسول الله ﷺ ورحمته بصفية

كان رسول الله ﷺ يحس غربة صفية في دور نسائه، فيدافع عنها كلما أُتيحت له فرصة.

وهناك بعض صور من عطفه ورحمته بها:

ما هذه الخضرة بعينيك؟

رأى نبي الرحمة ﷺ في عيني صفية خضرة فقال لها: «ما هذه الخضرة

بعينيك؟»، فقصّت عليه قصة الرؤيا التي رأتها يوم عرسها من كنانة بن الربيع - كما أسلفنا-، وما كان منه من غضب فلطم وجهها لطمه ما يزال أثر منها فيه.

أبوك نبي وعمك نبي وزوجك نبي

وفي لفتة من رسول الله ﷺ توضّح مدى رحمته وعطفه عليها؛ أنه دخل يوماً عليها فوجدها تبكي فقال: «ما يبكيك؟» فقالت: بلغني أن عائشة وحفصة تنالان مني وتقولان: نحن خير من صفية، نحن بنات عم رسول الله وأزواجه، وهي بنت يهودي. فقال لها رسول الله ﷺ: «ألا قلت لهما: كيف تكونان خير مني وأبي هارون، وعمي موسى وزوجي محمد؟». وفي رواية: «إنك لابنة نبي، وإن عمك نبي، وإنك لتحت نبي، ففيا تفخرا عليك؟». فنزل كلام رسول الله ﷺ على صفية برداً وسلاماً، وهو بهذا القول يُسليها ويواسيها، ويُعلّمها كيف تواجهن بصدر رحب.

إناء مثل إناء وطعام مثل طعام

كانت صفية تُجيد الطعام، فصنعت يوماً طعاماً شهياً لرسول الله ﷺ، فما أن مدّ يده الشريفه إليه حتى أخذت الغيرة عائشة، فأمسكت الإناء فكسرتة.

فلم يُعْتَب رسول الله ﷺ وعذرها لغيرتها، وهو الحليم الذي لا يُدانى أحدٌ في خلقه العظيم.

فلما رأت عائشة سوء صنيعها، وحلم رسول الله ﷺ راجعت نفسها، واعتذرت لرسول الله ﷺ ولصفيه، وقالت: يا رسول الله، ما كفارة ما صنعت؟ فقال ﷺ: «إناء مثل إناء، وطعام مثل طعام».

فهكذا كان رسول الله ﷺ، يُعطي صفة الحماية والعطف؛ ليؤنس وحدتها، ويذهب عنها الإحساس بالوحدة.

٣ - صدق إيمانها

وها هو الصادق الأمين الذي لا ينطق عن الهوى يشهد لصفية بنت حُيي بأنها صادقة في إيمانها وحبها لرسول الله ﷺ، بل ويُقسِم بالله على ذلك. فيا لها من منقبة نالتها أم المؤمنين «صفية بنت حُيي».

رُوي أنَّ أمهات المؤمنين اجتمعن حول فراش رسول الله ﷺ في مرضه الأخير الذي توفي فيه، فقالت صفية: والله يا نبي الله لوددت أن الذي بك بيَّ. فما كان من أزواجه إلا أن غمزن ببصرهن، فأبصرهن رسول الله ﷺ، فقال لهن: «مَضْمُضُن» فتساءلن في دهشة: من أي شيء؟ فقال: «من تغامزكن لها، فوالله إنها لصادقة».

٤ - حلمها وعفوها

ولحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى وهو راضٍ عنها، وظل الناس رغم حبهم لصفية وإعجابهم بنجابتها ونبل أخلاقها إلا أنهم لم ينسوا لها أنها من سلالة اليهود، وظلوا يُذكرونها بما تكرهه رغم حُسن إسلامها وزواجها من رسول الله ﷺ.

ورغم ذلك كانت رحيمة بكل من حولها، وتحمل الخير في قلبها لكل الناس.

يقول أبو عمر بن عبد البر: أن جارية لصفية بنت حُيي أتت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وقالت: يا أمير المؤمنين، إنَّ صفية تحب السبت، وتصل اليهود. فبعث عمر إلى صفية يسألها عن ذلك، فقالت: أما السبت فإني لا أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة، وأما اليهود فإن لي فيهم رحمًا فأنا أصلها. ثم قالت لجاريتها: ما حملك على ما صنعت؟ قالت الجارية: الشيطان. فردَّت صفية: اذهبي فأنت حُرّة.

وهنا يتجلّى بوضوح حلمها وعفوها، فقد كانت تستطيع أن تفعل بجاريتها الأفاعيل، لكنها اتخذت من رسول الله ﷺ أسوتها في العفو والصفح والتسامح. فأثرت أن تسارع إلى مغفرة من ربهما وجنة عرضها السموات والأرض، فتحلّت بأوصاف المحسنين الذين قال فيهم المولى -عز وجل-:

{ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤].

٥ - شجاعة ووفاء

وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان كان لصفية بنت حُييٍ موقف يشير إلى فضلها وشجاعته ومعرفتها بمكانة عثمان وقدره. يقول كنانة مولى صفية: «قدمت صفية في حجابها على بغلة لترد عن عثمان، فلقينا الأشر - مالك بن حارث النخعي، وكان رأس أهل الكوفة الذين تولوا الفتنة - فضرب وجه بغلتها وهو لا يعرف رابقتها، فقالت صفية لكنانة: رُدَّني لا تفضحني. ثم وضعت معبراً بين منزلها ومنزل عثمان، فكانت تنقل إليه الطعام والماء، وهو في محنة الحصار». وبهذا الموقف الكريم عبَّرت صفية عن سعة أفقها وكمال عقلها الذي كانت تزن به الأمور.

٦ - عبادتها وورعها وعلمها

وظلت أم المؤمنين «صفية بنت حُييٍ» على العهد قائمة، صائمة، عابدة لله،

وتجتهد في الطاعة لتستدرك ما فات من عمرها. فقد كانت تتمنى لو كانت أسلمت مع أول لحظة بُعث فيها الحبيب ﷺ فلذلك كانت لا تترك لحظة من عمرها تمر إلا في طاعة الله والقرب منه.

وقد أسهمت في نشر العلم الذي تلقته عن رسول الله ﷺ فروت عنه عدة أحاديث قيل: إنها بلغت عشرة أحاديث، وروى عنها مولاها كنانة والإمام زين العابدين بن الحسين وسليم بن صفوان، وغيرهم.

ورُوي أن نفرًا اجتمعوا في حجرة صفية بنت حُيي زوج النبي ﷺ فذكروا الله وتلوا القرآن وسجدوا، فنادتهم صفية، وقالت: هذا السجود وتلاوة القرآن، فأين البكاء؟

فكانت تدعو الناس إلى التدبر والخشوع. ولم تنس فضل الصدقة وما تعود به على صاحبها من الخير، فكانت تحث الناس على العطاء والإنفاق في سبيل الله.

ولذلك وصفها ابن أبي نعيم في ترجمته فقال: «التقية الزاكية ذات العين الباكية «صفية» الصافية زوجة النبي ﷺ».

وقال ابن كثير عنها: «كانت من سيدات النساء عبادة وورعًا وزهدًا وبرًا وصدقة».

الفصل الأخير

وعاشت «صفية بنت حُيي» قرابة الأربعين عامًا بعد وفاة رسول الله ﷺ في طاعة الله ومرضاته، حتى خلافة معاوية بن أبي سفيان. وفي سنة خمسين من الهجرة نامت أم المؤمنين على فراش الموت لتلقى ربه راضية مرضيةً. ودُفنت مع أمهات المؤمنين بالبقيع.

فرحمة الله وبركاته عليك يا أم المؤمنين

يا مَنْ وصفك رسول الله ﷺ بالصادقة

ورضى الله عنك وأرضاك يا «صفية بنت حُيي».

ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها

وإليكم أعزائي نقدّم هذه الريحانة الطيبة من الصحبة العطرة. إنها التقية النقية إحدى الأخوات التي قال فيهن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الأخوات مؤمنات»، والتي قالت عنها عائشة: «إنها والله كانت أتقانا وأوصلنا للرحم». إنها أمّ المؤمنين «ميمونة بنت الحارث» رضي الله عنها.

نسبها ونشأتها

هي: برة بنت الحارث بن حزن بن بجير العامرية الهلالية. وهي إحدى الأخوات التي قال فيهن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الأخوات مؤمنات».

* **فشقيقتها:** أم الفضل «لبابة الكبرى بنت الحارث» زوج العباس، وأم بنيه، وأول امرأة آمنت بعد خديجة.

* **وشقيقتها الأخرى:** «لبابة الصغرى بنت الحارث» أم خالد بن الوليد.

- **وأخواتها لأمها:**

* **زينب بنت خزيمة:** «أم المساكين» زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم.

* **أسماء بنت عميس:** زوج جعفر بن أبي طالب، وتزوجها من بعده أبو بكر

الصديق، ولما مات تزوجها علي بن أبي طالب.

* سلمى بنت عُميس: زوج حمزة بن عبد المطلب.

فكان هؤلاء هم الأخوات الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالإيمان.

أما أمهن جميعاً: فهي «هند بنت عوف» التي يُقال فيها «أكرم عجوز في

أرض الجزيرة أصهاراً هند بنت عوف، أصهارها: رسول الله ﷺ، وأبو بكر

الصديق، وحمزة والعباس ابنا عبدالمطلب، وجعفر وعلي ابنا أبي طالب».

إسلامها

كانت «برّة» من أوائل الذين شرح الله صدرهم للإسلام، فكانت بحق من

السابقين الأولين.

زواجها

لما اشتد عودها وبلغت سن الزواج، تزوجها أولاً: مسعود بن عمرو الثقفي

قبيل الإسلام، ففارقها بعد إسلامها. ثم تزوجها: أبو رهم بن عبد العزى،

ومات عنها.

في رحاب رسول الله ﷺ

أمنية غالية

لما مات أبو رُهم بن عبد العزى أحسَّت برّة بأن الله سيعوضها خيراً، وسيرزقها بزواج مبارك يأخذ بيدها إلى جنتي الدنيا والآخرة. وتمنّت في قرارة نفسها أن يكون هذا الزوج هو رسول الله ﷺ، وأفضت بذلك إلى أختها «أم الفضل» زوج العباس عمّ رسول الله ﷺ، فرغّب العباس ابن أخيه فيها، وكان العباس يرى أن في هذا الزواج مصلحة عظيمة.

من برّة إلى ميمونة

فلما كانت عمرة القضاء وقبل دخول رسول الله ﷺ مكة أرسل جعفر بن أبي طالب يخطبها له، فوافقت، وهي لا تكاد تُصدق أن حلمها أصبح حقيقة. وجعلت أمرها إلى شقيقتها «أم الفضل» فتحدثت به الأخت إلى زوجها العباس وجعلت له أمرها.

فلما انتهى رسول الله ﷺ من أداء العمرة، زوّجه العباس من برّة وأصدقها عنه أربعمئة درهم. وسماها رسول الله ﷺ «ميمونة»؛ إذ كان زواجه منها في هذه المناسبة الميمونة التي دخل فيها المسلمون مكة لأول مرة منذ سبع سنين آمين. وكان رسول الله ﷺ لا يحب الأسماء التي تؤدي إلى كراهية ولو

لفظيَّة - كما أسلفنا - .

وبقي رسول الله ﷺ بمكة ثلاث أيام، فود أن يُمهله القريشيون حتى يتم الزواج فيكسب بهذا الإمهال مزيدًا من الوقت ليُمكِّن للإسلام مزيدًا من هؤلاء الذين لا يزالون يكفرون عنادًا وحسدًا.

ميمونة أمًا للمؤمنين

فلما جاء رُسل قریش يطلبون من رسول الله ﷺ أن يخرج من مكة إذ انقضى الأجل الذي نصَّت عليه المعاهدة «صلح الحديبية» فقال لهم ﷺ: «ما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعامًا فحضرتموه». فردوا في جفاء: لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا.

فوافق رسول الله ﷺ وفاءً بعهده، وأذن للمسلمين بالرحيل تاركًا مولاه «أبا رافع» بمكة ليلحق به في صحبة ميمونة. وفي سرف - مكان خارج مكة قرب التنعيم - أقام رسول الله ﷺ وجاءت ميمونة في صحبة أبي رافع وبنى بها رسول الله ﷺ في القبة التي أُعدَّت لهما. وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة وبصحبه «ميمونة بنت الحارث»، وقد أصبحت أمًا للمؤمنين.

زواج ميمون

وبهذا الزواج الميمون يكون رسول الله ﷺ تقربًا للهلاليين «قوم ميمونة»،

فأكبروا في رسول الله ﷺ هذه المروءة والحمية والنجدة، فأزروه ونصروه، ثم أقبلوا يدخلون في دين الله أفواجًا. وكانت ميمونة هي آخر امرأة تزوجها رسول الله ﷺ، وقد بلغت من العمر ستة وعشرين عامًا.

في بيت النبي ﷺ

وتنتقل «ميمونة بنت الحارث» إلى بيت النبوة مسالمة، واكتفت بما منَّ الله عليها به من نعمة الإسلام وشرف الزواج من رسول الله ﷺ، وقد كانت ميمونة تقيَّة نقيَّة، تصل الرحم، ولا تؤذي بلسانها واحدةً من ضرائرها. وعاشت مع رسول الله ﷺ تتعلم من هديه وتقتبس من نوره. وفي هذا البيت البسيط المتواضع عاشت ميمونة أجمل أيام عمرها سعيدة راضيةً مرضيةً.

وكان هذا البيت «بيت ميمونة» هو آخر بيت يزوره رسول الله ﷺ من بيوت زوجاته قبل وفاته. فقد اشتد عليه الوجد وهو في بيت ميمونة، وهناك طلب رسول الله ﷺ من زوجاته أن يُمرَّض في بيت عائشة، فوافقن، وسمحت ميمونة وهي راضية النفس. وبعدها انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى وهو راضٍ عنها.

الفصل الأخير

وبعد وفاة رسول الله ﷺ ظلت ميمونة عاكفة على العبادة والصلاة والصوم، وتعلم الناس مما علمها رسول الله ﷺ. وقد روت عنه الكثير من الأحاديث، وقد روى عنها ابن عباس ويزيد بن الأصم، وآخرون.

تُدْفَنُ فِي الْمَكَانِ الْمِيمُونِ

لما كان العام الواحد والخمسين من الهجرة، وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان، وقد بلغت السبعين من عمرها، وبعد أن قضت أم المؤمنين «ميمونة بنت الحارث» مناسك الحج، ثقل عليها المرض، وهي بمكة لترقد على فراش الموت.

ولما أحست بدنو أجلها، تذكرت ما أخبرها به رسول الله ﷺ بأنها لا تمت بمكة. فقالت: أخرجوني من مكة فإني لا أموت فيها، فإن رسول الله ﷺ أخبرني بذلك. فحملوها حتى أتوا بها سرف إلى الشجرة التي بنى بها رسول الله ﷺ تحتها في موضع القبة؛ حيث ماتت هناك.

وصلى عليها ابن أختها «ابن عباس» وقال: «إذا رفعتم نعشها فلا تزلزلوها ولا تززعوها». وفي رواية: «ارفقوا بها فإنها أمكم». ودُفنت ميمونة في المكان الميمون الذي جمعها بخير خلق الله ﷺ.

رثاء عائشة

ولما بلغ عائشة وفاة ميمونة قالت: «ذهبت والله ميمونة.. أما إنها أتقانا لله، وأوصلنا للرحم».

فرحمة الله وبركاته عليك يا أم المؤمنين

يا من كنتِ أكثر أمهات المؤمنين تقوى وصلية للرحم

ورضي الله عنك وأرضاك يا «ميمونة بنت الحارث».

فاطمة الزهراء رضي الله عنها

والآن أعزائي فلنعش اللحظات المقبلة مع ريحانة الرياحين «ريحانة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيدة نساء أهل الجنة، إنها «فاطمة الزهراء» بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. أما حديثنا عنها فهو حديث ذو شجون، إن قلّمي يرتعد وأشعر أن الكلمات تتوارى خجلاً وحياءً، فهي بنت خير خلق الله صلى الله عليه وسلم وكفى. وصدق الشاعر إذ يقول:

هي بنت مَنْ، هي زوج مَنْ، هي أم مَنْ *** مَنْ ذَا يُداني في الفخار أباهَا؟
فلتأمل قلوبنا، وتفتح عقولنا ونحن نُقلّب الصفحات التالية لتتعاش مع «أم أبيها» «فاطمة الزهراء» رضي الله عنها.

نسبها ونشأتها

أما نسبها:

فهو أشرف وأعرق نسب عرفته البشرية، فهي فاطمة بنت محمد بن عبد الله بن عبد المطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكفى به فخراً وشرفاً.

فأبوها: سيد ولد آدم، رحمة الله للعالمين، خاتم النبيين، وإمام المتقين صلى الله عليه وسلم.

أما أمها: فهي خديجة بنت خويلد، وهي من هي من المكانة والحسب. فهي الطاهرة التي جمعت العقل الحصيف والنسب الشريف، أول مَنْ آمَنَ مِنَ

العالمين. وقد حباها الله الخلق الجميل والعقل الرشيد.
فما أعظم من هذا النسب الكريم نسباً.

مولدها:

وُلدت «فاطمة الزهراء» في مكة قبل البعثة بخمس سنوات، وهي السنة التي أعادت فيها قريش بناء الكعبة المشرفة.

نشأتها:

وفي هذا البيت الشريف العريق نشأت فاطمة الزهراء، وكانت أمها خديجة تغمرها بحبها وحنانها، لذلك لم تسترضع لها - كعادة العرب وقتها - بل أرضعتها بنفسها. فرضعت من أمها الحلم والحياء والطهر وطيب الخصال. وترعرعت في ظل أبيها، فنشأت على التقوى والورع، والصدق والأمانة، وقوة الشخصية. فهي لا تتحدث إلا بخير وصدق. وإذا أقدمت على أمر أخذت فيه الحزم، وإذا أحجمت عن أمر لزمته فيه الحيطة والحذر. فكانت أكثر الناس شبهاً بأبيها صلى الله عليه وآله خلقاً وخلقاً.

إسلامها

لما أشرقت الدنيا بنور الإسلام ونزل الوحي على أبيها صلى الله عليه وآله، كانت أمها أول

من أسلم من العالمين. وأسلمت فاطمة الزهراء وأخواتها، وكانت تبلغ من العمر خمس سنين. فكانت أصغر مسلمة، وكانت من السابقين الأولين للإسلام.

رسول الله ﷺ وفاطمة الزهراء

لقد كانت «فاطمة الزهراء» آخر أولاد رسول الله ﷺ، وآخر الأبناء عادة يتقلب في عطف وحنان والديه. لذلك كان للزهراء مكانة خاصة في قلب أبيها ﷺ فكانت «ريحانة رسول الله ﷺ»، يرضى إذا رضيت، ويسخط إذا سخطت.

أم أبيها

ولكن حنان الأبوين لم يخلُ دون تعهد المحبوبة الأثيرة بالتربية والإعداد لتحمل المسؤوليات.

وبالفعل كانت الزهراء تساعد أمها خديجة، وتقوم على أمور المنزل؛ حيث كانت الوحيدة تقريباً في بيت أبيها. فقد تزوجت أخواتها زينب ورقية ولم تبقَ إلا أم كلثوم التي كانت تكبرها بقليل. فكانت الزهراء وشخصيتها الجادة التي جُبِّلت على تحمل المسؤولية هي من تقوم بأعباء المنزل.

وبعد وفاة خديجة زادت من جهدها لتعوض أباهما ﷺ عما فقدت، فكانت ترعى أباهما الكريم وتفيض عليه من عطفها وحبها حتى دعاها أصحاب رسول الله ﷺ بأُم النبي أو «أم أبيها».

دفاعها عن رسول الله ﷺ

ولما اشتد أذى الكفار على رسول الله ﷺ؛ كانت الزهراء تتمنى أن تفدي أباهما بنفسها، بل وبالذنيا كلها.. وقد تجلى ذلك في هذا المشهد المهيّب. لما جلس أبو جهل وأصحاب له وقال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلى الجذور - أي: أحشاء الإبل - ويلقيه على ظهر محمد إذا سجد. وهنا تطوع عتبة بن أبي مُعيط بتنفيذ رغبتهم الدنيئة، فانتظر حتى سجد رسول الله ﷺ ووضع تلك القاذورات على ظهره، فجعلوا يضحكون وظل سيد المرسلين في سجوده لا يرفع رأسه حتى جاءت فاطمة الزهراء، لما علمت بالخبر. فطرحت عن ظهره ﷺ تلك الأقدار، وغسلت ما لحق بملابسه من أذى وهي تبكي. فقال لها رسول الله ﷺ: «لا تبكي يا بُنية؛ فإن الله ناصر أبائك».

محنة الحصار وفراق الأحباب

وعاشت الزهراء مع رسول الله ﷺ محنة الحصار الظالم الذي فرضته قريش عليهم، وظلوا في شعب أبي طالب ثلاث سنوات عجاف. وقد أثر هذا

الحصار عليها تأثيرًا بالغًا. فقد عاشت تلك المحنة بكل ما فيها من آلام وأحزان، فقد دخلت الشعب وهي في الثالثة عشرة من عمرها وخرجت وهي في السادسة عشرة.

وما أن خرجت من محنة الحصار هذه، حتى أُصيبت بمُصابٍ أعظم وهو وفاة أمها خديجة رضي الله عنها، فحزنت عليها حزناً شديداً، لكنها صبرت واحتسبت.

وبعد وفاة أمها زاد تعلقها بأبيها وزاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من عطفه عليها. وزادت من جهدها لتعوض أباها صلى الله عليه وسلم عما فقد، وظلت ترعاه وتقوم على خدمته، حتى أطلقوا عليها «أم أبيها» - كما أسلفنا -.

الهجرة إلى المدينة

ويهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ولما استقر به الأمر بعث زيد بن حارثة، وأبا رافع ومعهما عبد الله بن أريقط ليدلها على الطريق إلى مكة. فقدمتا بفاطمة وأختها أم كلثوم وسودة بنت زمعة، حيث استقبلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فرحاً مستبشراً بقدمهن.

زواجها من علي بن أبي طالب

والآن أعزائي فلنعش اللحظات التالية مع قصة زواج ريحانة رسول الله ﷺ، ونقتبس ما بها من دروس وعبر، وهدى نبوي شريف.

كبار الصحابة يتمنون نسب رسول الله ﷺ

لقد تقدم خطبة فاطمة رضي الله عنها الكثير من كبار الصحابة؛ أملاً في نسب رسول الله ﷺ، فقد تقدم أبو بكر الصديق يخطب فاطمة الزهراء فترفق به رسول الله ﷺ وقال له: «انتظر بها القضاء». فذكر ذلك لعمر فقال له عمر: ردك رسول الله يا أبا بكر. فقال أبو بكر لعمر: اخطبها أنت يا عمر، فلما تقدم عمر للنبي قال له مثل ما قال لأبي بكر، ثم تلاهما عبد الرحمن بن عوف فردّه رسول الله ﷺ ردّاً كريماً كما فعل بصاحبيه.

أنت لها يا عليّ

ولما شاع الخبر في المدينة بتقدم الصحابة لخطبة الزهراء. فحثّ الكثير من بني هاشم عليّاً للتقدم لخطبة فاطمة.

ولكنه تهيّب الموقف بعد ما علم من رفض رسول الله ﷺ خطبة أصحابه، فشجّع عمر وقال له: «أنت لها يا عليّ». فتشجّع عليّ وقصد رسول الله ﷺ ليخطب فاطمة.

عليّ بن يدي رسول الله ﷺ

فلندع عليّ بن أبي طالب يروي لنا ما حدث في هذا اللقاء. يقول عليّ: كانت لرسول الله ﷺ جلالة وهيبة، فلما قعدت بين يديه أُفحمت، فوالله ما أستطيع أن أتكلم، فقال: «ما جاء بك؟ أبك حاجة؟» فسكتُ. فقال: «لعلك جئت تخطب فاطمة؟» قلت: نعم. قال: «وهل عندك شيء تستحلها به؟» فقلت: لا والله يا رسول الله. فقال: ما فعلت بالدرع التي سلحتكها؟ فقلت: عندي والذي نفس عليّ بيده إنها الحُطيمة - أي: تُحطم السيوف -، ما ثمنها أربعمائة درهم.

رسول الله ﷺ يستشير فاطمة

كان رسول الله ﷺ يجعل أمر بناته بأيديهن، وقد استنَّ استشارتهن في أمر زواجهن. فقال لفاطمة: «إن عليًّا يذكرك»، فسكتت. وهو سكوت بمعنى الموافقة.

فوافق رسول الله ﷺ على زواج عليّ من ابنته فاطمة.

رسول الله ﷺ يعقد زواجهما

ويتولى رسول الله ﷺ عقد زواج حبيبين إلى قلبه: ابنته فاطمة وعليّ بن أبي طالب.

يقول أنس بن مالك: إن النبي ﷺ قال له: «انطلق وادع لي أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وبعدهن من الأنصار» قال: فانطلقت فدعوتهم، فلما أخذوا مجالسهم قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله المحمود بنعمته، المعبود بقدرته، المطاع لسلطانته، المهروب إليه من عذابه، النافذ أمره في أرضه وسماه، الذي خلق الخلق بقدرته.. إن الله -عز وجل- جعل المصاهرة نسباً لاحقاً وأمراً مفترضاً وحكماً عادلاً، وخيراً جامعاً أوشج -أي: وصل- به الأرحام وألزمها الأنام، فقال -عز وجل-: { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا } [الفرقان: ٥٤]. ثم قال: «إن الله أمرني أن أزوج فاطمة من عليّ بن أبي طالب وأشهدكم أني زوجت فاطمة من عليّ بن أبي طالب على أربعمئة مثقال فضة، إن رضي بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة... فجمع الله شملهما، وبارك لهما، وأطاب نسلهما، وأقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم».

فقال عليّ: رضيت يا رسول الله، ثم خرّ ساجداً شكراً لله، فلما رفع رأسه من سجوده قال له رسول الله: «بارك الله لكما، وعليكما وأسعد جدكما -أي: أسعد حظكما- وأخرج منكما الكثير الطيب». قال أنس: «والله لقد أخرج الله منها الكثير الطيب، ثم أمر رسول الله ﷺ لنا بطبق من تمر فوضع بين أيدينا».

وهكذا تمَّ عقد الزواج، وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة، وقد بلغت فاطمة الثامنة عشرة من عمرها وعليّ الثالثة والعشرين.

الزفاف السعيد

أخذ عليّ يُعدُّ العدة للزفاف السعيد، فباع بعير بأربعمائة وثمانين درهماً. فلما كانت ليلة العرس أولم وليمة يبدو أنه بذل فيها الكثير مما أفاء الله عليه. وقدم أحوال النبي ﷺ من الأنصار بعض الهدايا مشاركة منهم في إعداد الوليمة، ونحر حمزة بن عبد المطلب بعض إبله وأطعم الناس. فما كانت وليمة في ذلك الزمان أفضل من تلك الوليمة. ولما انتهت الوليمة زُفَّت أفضل عروس على بغلة رسول الله ﷺ إلى بيت الزوجية الذي أُعدَّ لها.

أنكحتك أحب أهلي إليّ

كان رسول الله ﷺ قد أمر عليّاً أن لا يدخل على فاطمة حتى يجيئه. فتبعها بعد قليل من وصولهما حتى وقف على الباب فاستأذن فأذن له. ثم دعا بماء في إناء وتلا عليه بعض آيات القرآن الكريم، وهو يحرك الماء بيده الشريفة، ثم دعا عليّاً فنضح على كتفيه وصدره وذراعه من ذلك الماء. ثم دعا فاطمة

فجاءت بغير خمار تتعثر في ثوبها حياءً فنضح عليها من ذلك الماء. ثم قال لعلي: «والله ما ألوت أن أنكحتك أحب أهلي إليّ». ثم دعا قائلاً: «اللهم بارك فيهما، وبارك عليهما، وبارك لهما في نسلهما». وقال لهما: «قوما فصليا ركعتين»، ثم انصرف وتركهما يرتشفان من السعادة الزوجية الصافية ما شاء الله لهما أن يرتشفا.

جهاز بنت خير الأنام ﷺ

والآن أعزائي أدعوكم لزيارة منزل بنت خير الأنام ﷺ، من لو أراد كنوز الدنيا تكون خالصة له لكان له ما أراد..

فكيف كان جهاز فاطمة الزهراء؟

أما سريرها: فكان جلد كبش للنوم عليه بالليل ويوضع على الناضح بالنهار. ووسادة من آدم - جلد - حشوها ليف.

أما أدوات المطبخ: فكانت نورة من آدم - أي: إناء من الجلد يُغسل فيه -، وسقاء، ومُنخل، ومنشفة، وقدح، ورحى للطحن.

وكان بيتها بعيداً عن منازل النبي ﷺ في أطراف المدينة، وذلك لعدم توافر الإمكانيات لشراء منزل قريب من بيت رسول الله ﷺ وكانت تعيش في هذا البيت «فاطمة بنت أسد» - أم عليّ بن أبي طالب -، وعاش ثلاثتهم

-فاطمة الزهراء وعليّ وأمه- في هذا البيت المتواضع المملوء بالحب والعطف والحنان.

ابنتي بضعه مني

كان رسول الله ﷺ يحب فاطمة حباً جمّاً، ويوليها عناية خاصة، ويحنو عليها أكثر من غيرها.
وهناك بعض الشواهد على ذلك:

يشقّ عليه ﷺ بعدها

لم يُطِق رسول الله ﷺ صبراً على بُعد الزهراء عنه، وشقّ عليه ذلك، فعزم على أن يحوّلها إلى جواره في دار قريبة منه حتى يأنس بها وتأنس به، كما كان الحال من قبل.

فلما علم بذلك «حارثة بن النعمان» - كان من بني النجار -، وكانت له دور ملاصقة لدار النبي ﷺ، فجاء إلى رسول الله ﷺ وقال له: إنه بلغني أنك تريد أن تحوّل فاطمة إليك، وهذه منازلتي، وهي أقرب بيوت بني النجار إليك. إنما أنا ومالي لله ورسوله، والله يا رسول الله للمال الذي تأخذ مني أحب إليّ من الذي تدع. فقال له رسول الله ﷺ: «صدقت، بارك الله

عليك». ثم حَوَّلَ فاطمة إلى البيت الجديد، وأمر أن يُفتح باب من المسجد إليه ليدخل عليها منه.

آخر من يودّع قبل سفره

ومنذ أن استقرت الزهراء إلى جوار أبيها ﷺ كان يأتي بيتها كل صباح. وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلّى فيه ركعتين ثم يُثنيّ ببيت فاطمة، ويُطيل عندها المكث، ثم يأتي بيوت نساءه. وكان إذا سافر تكون فاطمة آخر من يودّع قبل سفره.

قم يا أبا تراب

لم تخلُ حياة الزوجين من ساعات خلاف وساعات شكاية كما هي العادة، فإذا حدث شيء من ذلك فإنه يمر كسحابة صيف تنقش سريعاً. وذلك بفضل رسول الله ﷺ الأب الرحيم الذي كان يحب علياً وفاطمة حباً جمّاً. يُروى أن فاطمة أغضبت علياً ذات يوم، فانصرف عنها إلى المسجد. فجاء رسول الله ﷺ وسأل فاطمة: «أين ابن عمك؟» قالت: كان بيني وبينه شيء فغاضبني وخرج، وعلم رسول الله ﷺ أنه في المسجد، فلما أتاه في المسجد وجده مضطجعاً وقد استغرق في النوم، ووجد رداءه قد سقط عنه وخلص

التراب إلى ظهره. فجعل رسول الله ﷺ يمسح التراب عنه وهو يداعبه قائلاً: «قم يا أبا تراب»، فني عليّ كل شيء بهذه اللمسة الحانية من رسول الله ﷺ، وأصبحت هذه كُنيتها «أبو تراب»، وكانت أحبّ الكُنَى إلى نفسه.

لا إمرة لامرأة لا تأتي هوى زوجها

وكما كانت فاطمة تُغضب عليّاً أحياناً، كان عليّ يشدد عليها أحياناً أخرى. فقد رُوي أن عليّاً اشتد عليها فقالت: والله لأشكوك إلى رسول الله، فانطلقت وانطلق بأثرها، فدخلت على خير الأباء ﷺ، وعليّ واقف خارج الباب يسمع كلامها. فلما انتهت من شكواها أخذ رسول الله ﷺ يعلمها في رفق ولين كيف تملك الزوجة زمام زوجها، وأنها لا تصبح أميرة في بيتها إلا إذا تصرفت بحيث تحوز رضا زوجها فتعمل على راحته وفق طبعه وهواه. ومما يؤثر من بلاغته وحكمته ﷺ في ذلك الموقف قوله لها: «يا بنية اسمعي واستمعي واعقلي، إنه لا إمرة لامرأة لا تأتي هوى زوجها».

هكذا نصّح مُعلّم البشرية ابنته، وكل امرأة، كيف تكسب قلب زوجها فيكون مفتاحاً لباب السعادة الزوجية.

فلما سمع عليّ تلك النصيحة الموجزة البليغة، شعر بأنه جار عليها وعاهد نفسه أن يكفّ عما كان يصنع وقال لها: «والله لا آتي شيئاً تكرهينه أبداً».

لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله أبداً

وبلغت قمة حب رسول الله ﷺ لفاطمة وخوفه على مشاعرها في هذا الحدث..

فقد نما إلى فاطمة أن علياً يهّم بالزواج من بنت أبي جهل «عمرو بن هشام بن المغيرة»، فذهبت إلى أبيها باكية تشكو إليه. وكان رسول الله ﷺ قد علم بالخبر؛ لأن بني هشام بن المغيرة كانوا قد استأذنوه في تزويج ابنتهم من عليّ. فصعد رسول الله ﷺ المنبر والغضب بادٍ عليه وقال: «ألا إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني في أن يُنكحوا ابنتهم عليّ بن أبي طالب، ألا وإني لا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، ثم لا آذن لهم. إلا أن يحب ابن أبي طالب أن يُطلق ابنتي وينكح ابنتهم. فإنما ابنتي بضعة مني، يُربيني ما يُربيهما، ويؤذيني ما يؤذيها، وإني أتخوف أن تُفتن في دينها».

ثم ذكر صهره «أبا العاص بن الربيع» -وهو من بني عبد شمس، ليس من بني عبد المطلب كعليّ-، فأثنى عليه في مصاهرته وقال: «وإني أنكحتُ أبا العاص بن الربيع، فحدثني فصدقني، ووعدني فأوفى لي»، «وإني لست أُحرّم حلالاً، ولا أُحلّ حراماً، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله أبداً».

إن رسول الله ﷺ يعلم حق عليّ في الزواج ولو على فاطمة بنت محمد ولكنه

في أبوته الرحيمة وبشريته السوية يؤذيه أن تُرَوِّع ابنته بهذه التجربة القاسية التي يعلم أنها لا قبَل لها باحتها.

ولعل عليّ قد عرِّض عليه هذا الأمر فحجل أن يرفض فبلغ الأمر فاطمة فذهبت تشكو إلى أبيها. وكان القوم قد ذهبوا إلى النبي ﷺ يستشيرونه في هذا الزواج، وخاصة أن ابنتهم كانت قد أسلمت، فخيف عليها الفتنة أن تتزوج بغير كفاء لها وأهلها من هم من المكانة لا يرضيهم من هو دون ابن أبي طالب.

فكان هذا الرفض من رسول الله ﷺ، وأعلن ذلك صراحة على المنبر. فزال الهم عن ابنته، وارتفع الحرج عن عليّ، ومر الأمر على خير.

صور من الزهد في حياة الزهراء

لقد كان رسول الله ﷺ إمام المتقين وإمام الزاهدين. فهو القائل: «عُرِّضَ عليّ بطحاء مكة ذهباً فقلت: لا يا رب أجوع يوماً وأشبع يوماً. أما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأُثني عليك». وقالت السيدة عائشة: «كنا آل محمد لنمكث شهراً، لا نستوقد ناراً، إن هو إلا التمر والماء».

وهكذا كانت فاطمة الزهراء من أزهد النساء وتعيش في رضا وهدوءٍ بال؛ على الرغم من خشونة العيش. فقد تعلمت هي وزوجها من رسول الله ﷺ الرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل. وإليكم أعزائي، أسوق بعضاً من المواقف التي تجلّت فيها حياة الزهد في الدنيا من «أم أبيها» فاطمة الزهراء رضي الله عنها:

ليست الدنيا لمحمد ولا لآل محمد

خرج رسول الله ﷺ ذات مرة في سفر ومعه عليّ بن أبي طالب فوضعت فاطمة في غيبتها سوارين وقلادة وقرطين، ووضعت على باب البيت ستارة، وذلك لقدم أبيها وزوجها. فلما قدم رسول الله ﷺ دخل عليها ووقف أصحابه على الباب لا يدرون أيقون أم ينصرفون لطول مُكثه عندها. فخرج رسول الله ﷺ من عندها وقد عُرف على وجهه الغضب حتى جلس على المنبر. عند ذلك أدركت فاطمة أنه فعل ذلك لما رأى من السوارين والقلادة والقرطين والستر. فنزعت قرطبيها وقلادتها وسواربيها وأنزلت الستر، وبعثت بهم إلى رسول الله ﷺ وقالت لمن حملته إياها: قل لرسول الله: تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول لك: اجعل هذا في سبيل الله. فلما أتاه قال رضي الله عنه: «قد فعلت!! فداها أبوها. ليست الدنيا لمحمد ولا لآل

محمد، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء».

ألا أخبركما بخير مما سألتماي؟

وظلت حياة الزوجين في هذا البيت تسير على نمط من الزهد وخشونة العيش في رضا وراحة بال، ولم يكن لهما خادم فكان يتعاونان معاً على أعمال المنزل.

فلما زادت أعباء العمل عليهما حتى إن علياً اشتكى من تعبٍ في صدره من كثرة جرّ الماء من البئر، وكذلك اشتكت الزهراء من كثرة البثور والخشونة في يدها من كثرة الطحن وأعمال المنزل. وكان الله قد أفاء على رسوله بسبي، فقال عليّ لفاطمة: لقد عاد رسول الله ﷺ من غزواته ظافراً بغنائم وسبايا، فاذهبي إليه فالتمسي واحدة تخدمك.

فقامت فاطمة تسعى إلى بيت أبيها بخطوات بطيئة وآنية. فلما رآها رسول الله ﷺ هسّ لها وسألها: «ما جاء بك يا بُنية؟» فاستحت أن تطلب منه شيئاً، وقالت جئت أسلم عليك، ثم عادت من حيث أتت لتنبئ زوجها أنها تخرجت أن تطلب من أبيها شيئاً. فقام عليّ وصحبها إلى بيت رسول الله ﷺ وتولى عنها السؤال وذكر حالهما وهي مطرقة في استحياء. فقال رسول الله

ﷺ: «لا والله، لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تتلوى بطونهم، لا أجد ما أنفق عليهم، ولكن أبيع وأنفق عليهم أثمانهم».

فخرجا من عنده دون أن يُلبِّي طلبهما، ولكنها كانا صابرين شاكرين لله ورسوله.

ولكن رسول الرحمة ﷺ، لم تطب نفسه أن يرى ابنته وريحانة قلبه تخرج من عنده هكذا دون قضاء حاجتها. فلم يكن هيئنا على قلب الأب الرحيم أن يرُدَّ لابنته طلبًا كهذا، ولا سيما أن الخير كثير. ولكنه أراد أن يبقى الزوجان على ما هما عليه من زهد في الدنيا ورغبة في الآخرة.

فلما جنَّ الليل ذهب ﷺ إليهما يواسيهما ويعلمهما كلمات هنّ جماع الخير في الدنيا والآخرة. فلما أتاها قال لهما في رفق وحنان: «ألا أُخبركما بخير مما سألتماي؟» فقالا: بلى يا رسول الله. فقال: «كلمات علمنيهنّ جبريل: تسبحان دُبر كل صلاة عشراً، وتحمدان عشراً، وتكبران عشراً. وإذا أويتما إلى فراشكما تسبحان ثلاثاً وثلاثين، وتحمدان ثلاثاً وثلاثين، وتكبران ثلاثاً وثلاثين. فهو خير لكما من خادم».

وودَّعها بعد أن زودها بهذا المدد الإلهي، وعلمها، كما علم أبناء الأمة شيئاً يُعينهم على التغلب المصاعب وتخفيف المتاعب.

النسل الشريف

والآن أعزائي فلنعش اللحظات التالية مع أظهر وأشرف نسل عرفته البشرية، نسل فاطمة الزهراء، الذي هو نسل رسول الله ﷺ فبعد عشرة أشهر من هذا الزواج المبارك، في رمضان سنة ثلاث للهجرة كانت الثمرة الأولى. فقد قرّت عين عليّ وفاطمة بمولودهما الأول فلما وُلِدَ جاء رسول الله ﷺ فقال: «أروني ابني ما سميتموه؟» قال علي: سميته حرباً. فقال رسول الله ﷺ: «بل الحسن»، وكان هذا الاسم لم تكن العرب قد سمّت به من قبل. وفرح رسول الله ﷺ بمولده فرحاً كبيراً وحنكته بنفسه، وفي اليوم السابع لمولده أمر رسول الله ﷺ بحلق شعر رأسه والتصدق بزنته فضة، وبذبح شاة يوزع لحمها على المساكين والفقراء. ولما بلغ الحسن عامًا وفي شعبان من السنة الرابعة للهجرة، أنعم الله عليهما بمولود ذكر، فهرع رسول الله ﷺ إليهم والبشّر بادٍ على وجهه فقال: «أروني ابني ما سميتموه» فقال عليّ: سميته صخرًا، فقال رسول الله ﷺ: «بل الحسين». وقيل: إن فاطمة وضعت طفلاً آخر سماه رسول الله ﷺ «المحسن» لكنه مات صغيراً.

وتتابع النسل الشريف: ففي السنة السادسة للهجرة وضعت فاطمة طفلة

وفرح بها جدها وسماها «زينب» تخليداً لابنته الكبرى زينب، والتي ماتت قبل ولادتها بقليل. ثم تلتها بطفلة أخرى سماها رسول الله ﷺ «أم كلثوم» تخليداً لابنته أم كلثوم والتي كانت قد ماتت هي الأخرى.

مشاهد من حبِّ رسول الله ﷺ لأبناء الزهراء

وهذه أعزائي باقية من مشاهد حبِّ رسول الله ﷺ، لأبناء ريحانة قلبه «فاطمة الزهراء»..

* كان رسول الله ﷺ يدلُّ أولاد فاطمة الزهراء ويداعبهم ويستأنسهم، وربما ركب الواحد منهم على كتفه وهو يصلي فيتأني في الصلاة ويُطيل السجود لكي لا يزحزحه عن مركبه.

* كان رسول الله ﷺ يجب أن يقضي وقتاً مع أحفاده، وقد يبيت في بيت فاطمة أحياناً، ويتولى خدمة أطفالها بنفسه، وعلي وفاطمة قاعدان.

وفي إحدى الليالي سمع رسول الله ﷺ الحسن يستسقي - أي: يطلب السُّقيا - فقام ﷺ إلى قربة فجعل يعصرها في القدح، فمد الحسين يده ليتناول الماء فنحَّاه عنه، وبدأ بالحسن، فقالت فاطمة: كأنه أحب إليك. فقال: «إنما استسقى أولاً».

* كان رسول الله ﷺ، يوماً يخطب على المنبر فأقبل الحسن والحسين يتعثران الخطأ، فنزل فأخذهما وحملهما بين يديه وصعد بهما على المنبر وقال: «صدق الله العظيم، { إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ } [التغابن: ١٥]، رأيت هذين فلم أصبر»، ثم أخذ في خطبته.

وهذه باقية من أقوال رسول الله ﷺ في الحسن والحسين:

* «الحسن والحسين سيِّدا شباب أهل الجنة».

* عن أسامة بن زيد أنه قال: كان النبي ﷺ يأخذني والحسن ويقول: «اللهم إني أحبهما فأحبهما».

* عن أبي بكره قال: سمعت رسول الله ﷺ على المنبر والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرة ثم إليه مرة ويقول: «إن ابني هذا سيِّد، ولعل الله يُصلح به بين فئتين من المسلمين».

* وقال ﷺ، عن الحسين: «الحسين مني وأنا من الحسين، أحبَّ الله مَنْ أحبَّ حسيناً».

كان هذا أعزائي قدر يسير من مشاهد حبِّ رسول الله ﷺ، لأحفاده أبناء فاطمة الزهراء عليها السلام.

مناقبها وفضائلها

بنت رسول الله ﷺ وكفى

إن لكل واحد من الصحب الكرام وكذلك الصحابيات العديد من المناقب والفضائل التي يعتز بها، وتكون مصدرًا للفخر. أما الزهراء «ريحانة رسول الله ﷺ» فلها المنقبة الكبرى والفضل الأعظم، فيكفيها أنها بنت سيد خلق الله، إمام المرسلين، وخاتم النبيين. فهي بنت رسول الله ﷺ وكفى به فضلًا وفخرًا.

سيدة نساء أهل الجنة

عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «نزل ملك فبشرني أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة». وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «حسبك من نساء العالمين: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وآسية بنت مزاحم - امرأة فرعون -، وفاطمة بنت محمد».

الأكثر شبهًا برسول الله ﷺ

عن عائشة أم المؤمنين قالت: «ما رأيت أحدًا كان أشبه كلامًا وحديثًا

برسول الله ﷺ من فاطمة، وكانت إذا دخلت عليه قام إليها فقبلها ورحب بها، وكذلك كانت هي تصنع به».

صفحات من جهادها

* لقد بدأت الزهراء جهادها مع بداية الدعوة في دفاعها عن أبيها، ودفع أذى الكفار عنه - كما أسلفنا -.

* وفي يوم أحد: لما جرح رسول الله ﷺ وكُسرت ربايعيته؛ كانت فاطمة تغسل الدم بالماء، فلما رأت أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة، فأخذت قطعة حصير فأحرقته حتى صار رمادًا، ثم ألصقته بالجرح فاستمسك الدم ووقف النزيف.

* وشاركت الزهراء في غزوة الخندق، وخيبر، وفتح مكة. فكانت تضمّد الجرحى وتسقي العطشى.

وفاة الحبيب وألم الفراق

وتعيش فاطمة الزهراء لتشهد دون أخواتها أصعب لحظات حياتها، وذلك عندما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وهي لحظات ذات شجون

وَألم، فإن الزهراء لم تفارق أباهما أو تتعد عنه منذ ولادتها وحتى آخر لحظة في حياته ﷺ.

لا كَرْبَ على أبيك بعد اليوم

كانت فاطمة الزهراء إذا دخلت على رسول الله ﷺ أخذ بيدها ورَحَّبَ بها وقَبَّلَهَا وأجلسها إلى جانبه. وكان إذا دخل عليها قامت له ورَحَّبَتْ به وأخذت بيده وقَبَّلَتْها.

فلما دخلت عليه في مرضه الذي تُوفي فيه، فلم يستطع أن يقوم لها كما تعودت فقَبَّلَتْه، وقالت: «وا كَرَبًا يا أبتاه»؛ فقال لها رسول الله ﷺ: «لا كَرَبَ على أبيك بعد اليوم».

أما ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين

وأجلسها رسول الله ﷺ إلى جانبه وأسرَّ لها حديثًا فبكت، ثم أسرَّ إليها آخر فضحكت. فسألته عائشة عن ذلك فقالت: ما كنت لأفشي سرَّ رسول الله ﷺ. فلما تُوفي ﷺ ذكرت فاطمة: أنه أسرَّ إليها فقال: «إن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة مرة وإنه عارضني هذا العام مرتين، وما أراه إلا وقد حضر أجلي. وإنك أول أهلي لحوقًا بي، فنعم السلف أنا لك» فبكت

فقال: «ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين أو سيدة نساء هذه الأمة» فضحكت.

وكان الحبيب ﷺ لم يطيب له أن يرى ريحانة قلبه وهي تبكى، فأراد أن يسعدها قبل وفاته ويرسم البسمة على وجهها.

أجاب رباً دعاه

وينتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، لتُصاب فاطمة الزهراء المصاب الأعظم في حياتها، لكنها صبرت واحتسبت كما علمها أبوها ﷺ. فقالت: «يا أبتاه أجب رباً دعاه، يا أبتاه في جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه».

ولما دُفِنَ رسول الله ﷺ قالت لأنس بن مالك: أدفنتم رسول الله؟ قال لها: نعم. فقالت: أطابت نفوسكم أن تحثوا التراب على رسول الله؟ ثم بكت وبكى أنس.

شريط الذكريات

وظلت الزهراء في حزنها الصامت الذي كاد يُمزق قلبها، وأخذت تستعيد شريط الذكريات منذ أن كانت طفلة صغيرة تعيش بين حنان وعطف أبيها

ﷺ وأما خديجة رضي الله عنها، وما مر بها من أحزان تراكمت في قلبها. لكنها تعلمت الصبر والرضا من أبيها رضي الله عنه، فكانت تصبر وتحتسب عند كل مصيبة تُصاب بها. وليس هناك مُصيبة أعظم من موت الحبيب رضي الله عنه.

الفصل الأخير

وبعد حياة قصيرة في أعوامها، طويلة مديدة في أعمالها وأثرها. ترقد الزهراء على فراش الموت، وكان ذلك بعد ستة أشهر من وفاة أبيها رضي الله عنه، لتكون أول أهله لحاقاً به كما أخبرها رضي الله عنه.

فلما أحست بدنوّ أجلها، تولت أمر غسل نفسها؛ حيث دعت إليها أم رافع مولاة أبيها رضي الله عنه، فقالت لها بصوت واهن خفيض: يا أماه، اسكبي لي غسلاً. واغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل ثم لبست ثياباً لها جدداً. وقالت لأسماء بنت عميس: قد اغتسلت فلا يكشفن لي أحد كفنًا. واضطجعت واستقبلت القبلة ثم تبسمت، ولم تُر مبتسمة بعد وفاة أبيها رضي الله عنه إلا ساعة ما فارقت الحياة. ثم أغمضت عينها ونامت لتسعد بقاء ربه وأبيها.

فبكاها عليّ وأبناؤها الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم. واجتمع الناس في المسجد النبوي وقد نزل بقلوبهم حزن ثقيل جدّد أحزانهم على فراق رسول

الله رضي الله عنه.

وصلى عليها زوجها عليّ بن أبي طالب، وفي سكون الليل قام عليّ وجموع المسلمين لدفنها بالبقيع. ثم ودّعها عليّ وعاد محزونًا إلى صغارها، وإلى البيت الذي أوحش من بعدها.

وكان ذلك في الثالث من رمضان سنة إحدى عشرة من الهجرة، وقد بلغت فاطمة الزهراء الثلاثين من عمرها أو دون ذلك بقليل.

فرحمة الله وبركاته عليك يا ريحانة رسول الله ﷺ

يا سيدة نساء أهل الجنة

يا أمّ سيّد شباب أهل الجنة

ورضي الله عنك وأرضاك يا «فاطمة الزهراء».

زينب الكبرى رضي الله عنها

وما زلنا أعزائي مع هذا النسل الطاهر وريحانة أخرى من رياحين الصحبة العطرة. إنها بنت خير الأنام رضي الله عنه، وأمها سيدة نساء العالمين خديجة بنت خويلد، وكفى به شرفاً وفخراً. إنها من خلصت لله ولرسوله، ولم تغفل الود والوفاء لزوجها. إنها «زينب بنت محمد» كبرى بنات رسول الله رضي الله عنه.

نسبها ونشأتها

هي: زينب بنت محمد بن عبد الله بن عبد المطلب.

فأبؤها: خير خلق الله، إمام المرسلين، وخاتم النبيين، رسول رب العالمين رضي الله عنه.

وأُمها: خديجة بنت خويلد، الطاهرة، سيدة نساء العالمين.

وُلِدَتْ زينب بعد عام من ميلاد أخيها القاسم، وعاشت ونشأت في هذا البيت الطاهر الذي انبثق منه نور الإيمان، وصدق اليقين. فتربّت على يد معلّم البشرية رضي الله عنه وأمها خديجة الأم الطاهرة النقية التقية. فنشأت على مكارم الأخلاق، وعظيم الصفات.

زواجها

ولما بلغت زينب سن العاشرة بدأت العيون ترنو إليها، كُلُّ يطمع أن ينال شرف مصاهرة هذا البيت الكريم. فتقدم للزواج منها «أبو العاص بن الربيع»، وهو ابن خالتها «هالة بنت خويلد». وكان أبو العاص أحد رجال مكة المعدودين شرفاً ومالاً، وقد اشتهر بالأمانة والوفاء. وكانت خديجة تحبه لوفائه وصدقه وأمانته، فضلاً عن كونه ابن أختها. وكان رسول الله ﷺ يحبه أيضاً ويثني عليه.

قلادة خديجة

وتم زفاف زينب على أبي العاص بن الربيع، وسط فرحة الجميع. وأهدت خديجة فيما أهدت إلى ابنتها قلادة كانت تتزين بها، وأوصت ابنتها بالحرص عليها.. -وسنرى فيما بعد كيف كانت هذه القلادة سبباً في إطلاق سراح أبي العاص لما وقع أسيراً في بدر-. وقد تمّ هذا الزواج قبل البعثة المحمدية.

في بيت الزوجية

وعاشت زينب في بيت زوجها الكريم عيشة هنيئة، تبادلته حباً بحب، ووفاءً بوفاء.

وولدت زينب لأبي العاص: عليًّا وأمامة، أما عليٌّ فمات طفلاً صغيراً، وعاشت أمامة - سنأتي لذكر حياتها بالتفصيل لاحقاً إن شاء الله -.

إسلامها

لما نزل الوحي على رسول الله ﷺ، وأخبر خديجة بما رأى وما سمع، كانت أول من أسلم من العالمين، وما لبثت أن تبعتها بناتها: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة. فكانت زينب من السابقين الأولين للإسلام. إلا أن زوجها «أبو العاص بن الربيع» لم يعتنق الإسلام إلا بعد الهجرة.

وكانت زينب دائماً تدعوه إلى الإسلام بحُبٍّ وودٍّ، وكان يرفض بأدبٍ واحترام ويقول لها: «والله، ما أبوك عندي بمُتَّهمٍ، لكنني أكره أن يُقال: إن زوجك خذل قومه وكفر بأبائه إرضاءً لامرأته». فاستشفت زينب من كلامه أنه غير مُصرٍّ على الكفر، وأنه مُهيأً للإسلام، فصبرت وظلت تدعوه وتدعو له أن يشرح الله صدره للإسلام.

والله لا أفارق صاحبتني

ولما بدأ رسول الله ﷺ يجهر بالدعوة بعد ثلاث سنوات من بعثته، عاداه كبار المشركين، وكاد له سفهاؤهم. ومشوا إلى أبي العاص وطلبوا منه أن

يُطلِّق زينب، وعرضوا عليه أن يزوجه ممن تهفو نفسه للزواج منها من أعرق بنات قريش، لكنه أبى وقال: «والله لا أفارق صاحبتى، وما أحب أن لي بامرأتى امرأة من قريش». فشكر له رسول الله ﷺ مصاهرته وأثنى عليه خيراً.

وكان ابنا أبي لهب قد استجابا لرغبة قريش وطلقا رقية وأم كلثوم ابنتي رسول الله ﷺ، بينما رفض أبو العاص بن الربيع.

معاناة زينب من فراق أهلها

وهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وبعدها أرسل في طلب أهله فأتوا ببناته أم كلثوم وفاطمة. أما زينب فبقيت مع زوجها؛ لأن الأمر بالتفريق بين الزوجة المسلمة والزوج المشرك لم يُشرع بعد.

ومرّت الأيام بحلّوها ومُرّها، زينب بمكة تعاني من فراق أهلها؛ أبيها وأخواتها الثلاثة. وهي في كل يوم تطمع أن يشرح الله صدر زوجها للإسلام، ويلحق برسول الله ﷺ، وهي معه فيجتمع الشمل ويلتقي الأحبة.

يوم بدر

ويأتي يوم بدر ليشهد قمة الإخلاص والوفاء بالوعد والعهد بين الزوجين المخلصين زينب وزوجها أبي العاص بن الربيع. فلما أرسلت قريش جيشًا من ألف رجل أو يزيدون إلى المدينة للقضاء على الإسلام والمسلمين، كان أبو العاص مع جيش قريش مقاتلاً. فجذعت زينب لذلك، وظلت موزعة الفكر، مشغولة البال بما ستنتهي إليه هذه الحرب. وهي تدعو الله أن يهدي زوجها وينصر أباهما.

قلادة خديجة تفك أسر أبي العاص

وتنتهي المعركة بنصر الله للمؤمنين، وقد قُتِلَ من المشركين سبعون، وأُسِرَ سبعون، وكان بين الأسرى أبو العاص بن الربيع. وأخذت قريش تفدي أسراها، فأرسلت زينب في فداء زوجها بهال، وكان فيما أرسلت قلادتها التي أهدتها إليها أمها يوم زفافها. فما كاد رسول الله ﷺ يراها حتى رقَّ لما رآها وأخذه الحنين لذكرى الحبيبة السيدة خديجة وابنتها زينب، فقال لأصحابه: «إن رأيتم أن تُطْلِقُوا لها أسيرها، وتردُّوا عليها مالها فافعلوا»، فقالوا: نعم يا رسول الله.

وأُخلي سبيل أبي العاص، وأخذ عليه رسول الله ﷺ عهدًا أن يُفارق زينب ويُخلى سبيلها ويُرسلها إليه، فقد فرّق الإسلام بينه وبينها. وأطلق سراح أبي العاص وانصرف عائداً إلى مكة، فلما ابتعد قال لأصحابه مادحاً رسول الله ﷺ: «والله، ما ذمناه صهراً».

الهجرة إلى المدينة

الوفاء بالعهد والوعد

ويعود أبو العاص بن الربيع إلى مكة ليجد زوجته الوفية في انتظاره، ففرحت بلقائه، لكنه ما لبث أن قال لها: «إن أباك طلب مني أن أردك إليه؛ لأن الإسلام فرّق بيني وبينك في العشرة الزوجية، وقد وعدته أن أدعك تسيري إليه، وما كنت لأنكث عهدي».

ولم تشكّ زينب في صدق زوجها، فهي واثقة من مودته وحُسن عشرته لها. فهو من رفض من قبل ضغوط قريش بالتفريق بينه وبين زوجته - كما أسلفنا-، لكنه الوفاء بالوعد والعهد الذي قطعه على نفسه مع رسول الله

ﷺ.

مطاردة قريش لزینب

كان رسول الله ﷺ قد اتفق مع أبي العاص أن يرسل زينب إلى «بطن يأجج» على بعد ثمانية أميال من مكة؛ حيث سيكون في انتظارها زيد بن حارثة وواحد من الأنصار ليصحبها إليه في المدينة.

وحان وقت الرحيل، فودع أبو العاص زوجته التي ودَّ ألا تفارقه، وعهد إلى أخيه «كنانة بن الربيع» أن يصحبها إلى «بطن يأجج».

فخرج كنانة يقود بعيرها وأخذ معه قوسه وكنانة سهامه. فكبَّرَ على قريش، وهي المقهورة في غزوة بدر، أن تخرج بنت رسول الله ﷺ على مرأى منهم. فخرج رجال من قريش في أثرها حتى أدركوها بذي طوى، وكان أسبقهم إليها «هبار بن الأسود» الذي رَوَّعها برمح ونخس البعير الذي تركبه، فوقعت على صخرة صلدة وكانت حاملاً، فلما وقعت طرحت جنينها ونزفت دمًا.

أبو سفيان ينصح كنانة

فلما رأى كنانة ذلك تأهب لقتالهم ونثر سهامه وصرخ فيهم: «والله، لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهمًا»، فترجع المطاردون وولوا الأدبار. فوقف أبو سفيان من بعيد يقول له: كُفَّ عنا نبلك كي نكلمك. فكفَّ

النبيل عنهم، فدنا أبو سفيان من كنانة، وقال له: «إنك لم تُصِيب، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية، وقد عرفت مُصِيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد، فيظن الناس إذا خرجت بابنته علانية أن ذلك ذُلًّا أصابنا، وأن ذلك بنا ضعفًا ووهنًا. ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها حاجة، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأحداث وتحدّث الناس أن قد رددناها، فسألها سرًّا وألحقها بأبيها».

ففعل كنانة ذلك، خاصة لما رآها تنزف فأعادها إلى مكة لتستريح وبقي زوجها أبو العاص إلى جوارها أيامًا حتى استردت بعض عافيتها. ثم خرج بها كنانة مرة أخرى، حتى سلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه ليصحبها إلى رسول الله ﷺ في المدينة.

وتصل زينب إلى المدينة لتعيش في رحاب أبيها وأهلها، وإن كانت لم تنسَ زوجها وحبّه لها، ووفاءه بعهدده ووعده لأبيها ﷺ.

زينب تُجبر أبا العاص

فلما كان العام السادس للهجرة، خرجت إحدى قوافل قريش إلى الشام، وخرج معها أبو العاص بن الربيع يتّجر بهاله ومال ائتمنه عليه بعض أهل

مكة. فلما علم رسول الله ﷺ نبأ عودتها أرسل سرية قوامها مائة وسبعين راكباً وأمر عليها زيد بن حارثة. ففاجأت عير قريش واستولت على كل ما تحمل من متاع، وأسرت جماعة ممن كانوا فيها ومن بينهم أبو العاص بن الربيع الذي تمكَّن من الإفلات من الأسر ودخل على زينب وقت السَّحَر واستجارها فأجارته.

يُجير على المسلمين أدناهم

فلما خرج رسول الله ﷺ لصلاة الفجر، اطلعت زينب رأسها من باب حجرتها وقالت: «أيها الناس، إني أجرت أبا العاص بن الربيع»، فلما فرغ رسول الله ﷺ من الصلاة قال: «أيها الناس، إنه لا علم لي بهذا حتى سمعت ما سمعتم، ألا وإنه يُجير على المسلمين أدناهم، وقد أجرنا من أجات».

ثم تحدث رسول الله ﷺ مع ابنته في شأن أبي العاص فقالت: «يا رسول الله، أن أبا العاص إن قرب فابن عم، وإن بُعد فأبو ولد، وإني قد أجرته». ثم خرج رسول الله ﷺ من عندها وقال لأصحابه: «إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له، فإننا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم، فأنتم أحق به». فقالوا: يا

رسول الله، بل نردّه عليه.

ويعود ابن الربيع إلى مكة بهاله المردود، وقد أجارته زينب بنت رسول الله ﷺ. فأثنى عليه رسول الله ﷺ وهو يودّعه وقال: «حدثني فصدقني، ووعدني فوقّي لي».

إسلام أبي العاص بن الربيع

ويدخل أبو العاص بن الربيع مكة، وما أن دخل حتى رَدَّ إلى تجار قريش أموالهم، حتى إذا لم يبقَ لأحدهم عنده شيء قال لهم: «يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم مال عندي لم يأخذه؟» قالوا: لا، إنك كنت وفيًا كريماً. فقال: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله. والله ما منعني من الإسلام إلا تخوّف أن تظنوني أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها، أسلمت».

وهكذا استجاب الله لدعاء زينب أن شرح الله صدر زوجها للإسلام. ويهاجر أبو العاص إلى المدينة، وقد رحب به رسول الله ﷺ والمسلمين واجتمع شمل أبي العاص وأهله من جديد، ونعموا بالأمن والسعادة في رحاب رسول الله ﷺ.

الفصل الأخير

ولكن هذه السعادة لم تدم طويلاً، فما كاد يمضي عام واحد على جمع الشمل، حتى فرق الموت بينهما. فقد ماتت زينب في مستهل السنة الثامنة للهجرة متأثرة بعلتها التي لزمته منذ أن طرحت جنينها حينما سقط بها بغيرها الذي نخسه «هبار بن الأسود»، وهي خارجة من مكة.

وهكذا رحلت بنت رسول الله ﷺ «زينب الكبرى» بعد حياة حافلة بالصلاح والزهد والعبادة.

وقد حزن رسول الله ﷺ لفقدائها، وذكر لها رقة شمائلها، وجميل وفائها لزوجها. وذكر لها ما لاقت من آلام المرض منذ عادت من مكة إلى حين وفاتها.

أما زوجها «أبو العاص بن الربيع» فكان مُصابه كبيراً، فقد فقد زوجته، وحبيبته، وأنيسة وحدته. فلم يجد منها في حياته معها إلا الحب والمودة والرحمة.

رسول الله ﷺ يمنحها إزاره

ولما قام النسوة يُغسلنها، قال لهن رسول الله ﷺ: «اغسلنها وترًا، ثلاثًا، أو خمسًا، واجعلن في الآخر كافورًا أو شيء من كافور، فإذا غسلتَها

فأعلمني». فلما انتهين من تغسيلها أعطاهن رسول الله ﷺ إزاره وقال: «أشعرنها إياه» -أي: اجعلنه شعارًا لها، وهو الثوب الذي يلي الجسد. ثم صلى عليها رسول الله ﷺ وتم دفنها بالبقيع.

فرحمة الله وبركاته عليكِ يا كبرى بنات سيد الخلق ﷺ

يا من كنتِ مثلاً للوفاء والإخلاص

ورضى الله عنك وأرضاكِ يا «زينب الكبرى»

أُمَامَةٌ بِنْتُ أَبِي الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

ما زلنا أعزائي مع هذه الصحبة العطرة، والنسل الشريف.
فنحن على موعد مع أول حفيدة لخير الأنام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. والتي كانت أحب أهله
إليه. إنها «أُمَامَةُ بِنْتُ أَبِي الْعَاصِ» بنت زينب الكبرى.

نسبها ونشأتها

هي: أُمَامَةُ بِنْتُ أَبِي الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ.
وأمها: زينب الكبرى بنات رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أما أبوها: «أبو العاص بن الربيع» فكان رجل على خُلُقٍ قويم، وكان حنوناً
عطوفاً، وكان يُحِبُّ أُمَامَةَ زَيْنَبَ حُبًّا جَمًّا رَغِمَ إِسْلَامُ زَيْنَبَ وَإِيمَانُهَا بِمَا جَاءَ بِهِ
أَبُوهَا رَسُولُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وتأخر إسلامه - كما أسلفنا - .
ونشأت أُمَامَةُ فِي هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي تَحْفَهُ الْمُوَدَّةُ وَيَمْلَأُهُ الْحُبُّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ.

في رحاب رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

أول حفيدة لرسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وتهاجر أُمَامَةُ مَعَ أُمَامَتِهَا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَكَمْ كَانَتْ سَعَادَةَ رَسُولِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِقُدُومِ

ابنته وحفيده ليكونا في كنفه ورعايته. وقد أصدق رسول الله ﷺ عليها من عطفه وحنانه، فلقد كانت أول حفيدة لرسول الله ﷺ.

رسول الله ﷺ يحملها في الصلاة

ولقد لقيت أمانة من النبي ﷺ كل الحب والرعاية ما جعله يحملها في الصلاة. فقد رُوِيَ: أن رسول الله ﷺ كان يأخذ أمانة على عاتقه وهو يصلي، يرفعها إذا قام ويُمسك بها إذا وضع راعيًا أو ساجدًا، هكذا حتى يفرغ من صلاته.

أحب أهل بيتي إليّ

أُهدِيَ إلى رسول الله ﷺ هدية من النجاشي، قلادة من خرز فيها خاتم من ذهب فصّه حبشي. فلما دخل ﷺ على أهل بيته ونساؤه مجتمعات في البيت كُلهن، وأمانة كانت طفلة صغيرة تلعب في جانب من البيت. فقال رسول الله ﷺ لهن: «كيف ترين هذه؟» فنظرن إليها وقلن: يا رسول الله، ما رأينا أحسن ولا أعجب من هذه. فقال: «والله لأضعنها في رقبة أحب أهل بيتي إليّ» فأوجمن جميعًا في انتظار معرفة من هي أحب أهل بيته إليه؟ فإذا برسول الله ﷺ ينادي حفيده أمانة ويُعلّقها في عنقها..

فكانت هذه منقبة عظيمة لأمامة بنت أبي العاص.

بين أمها وأبيها

لقد عاشت أمانة بنت أبي العاص ثلاث مراحل:

١- مع أمها وأبيها في مكة

فقد عاشت في ظل أبيها المتحايين في مكة، رغم إسلام أمها وبقاء أبيها على الشرك. لكن هذا لم يقطع ما بينهما من حبٍّ ومودة. ويهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة تاركًا أمها في مكة مع أبيها؛ لأن الأمر بالتفريق بين الزوجة المسلمة والزوج المشرك لم يُشرع بعد.

٢- مع أمها فقط في المدينة

وتهاجر زينب إلى المدينة، لما أخذ رسول الله ﷺ عهدًا على زوجها أن يُسرحها لما فرَّق الإسلام بينهما. وكان ذلك بعد غزوة بدر وفداؤها إياه - كما أسلفنا -.

وفي المدينة لقيت أمانة كل الحب والحنان من جدها ﷺ - كما أسلفنا -.

٣- مع أمها وأبيها في المدينة

ويشرح الله صدر أبي العاص للإسلام، ويُعلن ذلك على ملاء من قريش،

ويهاجر إلى المدينة ليجتمع شمل الأسرة، وتعيش أمانة في ظل أبويها كما كانت من قبل. وينعم الجميع بالأمن والأمان في ظل رحمة الله للعالمين ﷺ. وفي كل هذه المراحل كانت أمانة تنشأ على حبّ الله ورسوله، ويُغرس فيها فضائل الأعمال، ومكارم الأخلاق.

وتتوالى الأحزان

تفقد أمها

ولم تدم سعادة أمانة بالعيش مع أبويها، بعد أن جمع الله بينهما ولمّ شملهما. فلم يمض أكثر من عام، وفي بداية السنة الثامنة للهجرة، ترقد زينب على فراش الموت، لتصعد روحها الطاهرة إلى بارئها. فحزنت أمانة حزناً شديداً على فراق أمها.

ولقيت أمانة الحب والرعاية من رسول الله ﷺ. الذي كان يرى فيها ما يخفف عنه جزعه على أمها. أما أبوها فقد كان يرعاها ويضمّها إلى صدره في حنان يمسح دمعها ويخفف أحزانها.

تفقد جدّها

وفي السنة الحادية عشر للهجرة ينتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى

لتتجدد الأحزان، وتشعر أُمّامة بفقدان ركن مهمّ وكبير في حياتها، وقد حزنت عليه حزناً شديداً.

تفقد خالتها

ثم أعقب ذلك بقليل وفاة خالتها «فاطمة الزهراء» التي كانت تكرمها وتحنو عليها بعد وفاة أمها.

تفقد أباهما

وتتوالى الأحزان على أُمّامة، فما هي إلا عدة أشهر بعد فقد خالتها ومن قبل جدها عليه السلام، حتى فقدت أباهما، وذلك في السنة الثانية عشرة للهجرة في خلافة أبي بكر الصديق.

وتجلس أُمّامة تفكر في تلك الدار التي كانت بالأمس القريب عامرة بالأحباب وأصبحت اليوم خاوية على عروشها.

في رعاية الزبير بن العوام

كان أبو العاص بن الربيع لما أحسّ بدنو أجله، أوصى بابنته أُمّامة إلى ابن خاله الزبير بن العوام، الذي ظل يرعاها بعد وفاة والدها.

أمامة زوجًا للإمام عليّ

كانت فاطمة الزهراء قد أوصت عليًّا بالزواج من أمامة بعد موتها. فلما توفت زوجها الزبير بن العوام من عليّ بن أبي طالب. وعاشت معه زوجة وفيه مخلصمة، رافقته في أثناء الفتن التي عصفت بالأمة، حتى كان يوم استشهاده، وقد حزنّت عليه حزنًا شديدًا. وكأنه كُتب على أمامة ألا تخرج من حزن حتى تدخل في الآخر، ولا تنتهي من محنة حتى تعيش في أخرى.

وصية الإمام عليّ لأمامة

لما كان عليّ يعاني من سكرات الموت، بعدما طعنه أحد الخوارج ونُقل إلى بيته. فاجتمع حوله أهله في بكاء وحزن، وأمامة قائمة عند رأسه، دامعة العين، مُنكسرة القلب، صابرة محتسبة. فنظر الإمام عليّ إلى الجميع وأعطى كل وصيته ونصيحته. وكان مما قاله لأمامة ناصحًا: «إن كان لك في الرجال حاجة، فقد رضيت لك المغيرة بن نوفل عشيرًا» - هو المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، أحد أبناء العمومة -.

فلما انقضت عدتها، خطبها معاوية بن أبي سفيان، فقد كتب إلى واليه في المدينة «مروان بن الحكم» أن يخطب له أمانة، ويبدل لها مائة ألف دينار، فرفضت أمانة.

وتنفيذاً لوصية الإمام عليّ لها، أرسلت إلى المغيرة بن نوفل تقول له: «إن كان لك بنا حاجة فأقبل»، فتقدم المغيرة وخطبها من الحسن بن عليّ.

الفصل الأخير

وظلت أمانة عند المغيرة بن نوفل، وظلت كعهدها زوجة مخلصمة، سالحة، طائعة. ولكنها لم تُرزق منه ولا من عليّ بن أبي طالب قبله بالأولاد. وظلت على العهد عابدة، صائمة، قائمة، نقيّة، نقيّة، حتى لبّت نداء ربها، وترقد على فراش الموت لتصعد روحها الطاهرة إلى بارئها.

فرحمة الله وبركاته عليك يا أول حفيدة لرسول الله ﷺ

يا من كنت من أحبّ أهله إليه

ورضي الله عنك وأرضاك يا «أمانة بنت أبي العاص».

أم عمارة رضي الله عنها

ونحن الآن أعزائي على موعد مع زهرة أخرى من أزاهير الصحبة العطرة، إنها امرأة من طراز خاص من القوة والشجاعة تفوق الكثير من الرجال، إنها امرأة بألف رجل.

فهي من دافعت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحد فنالت شرف رفقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنة. إنها «أم عمارة» رضي الله عنها.

نسبها ونسلها

هي: نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف بن مبدول الأنصارية المازنية النجارية والمكناة بأم عمارة.

أخوها هو: عبد الله بن كعب المازني وهو من البدرين.

زوجها هو: زيد بن عاصم المازني النجاري.

أولادها هما: عبد الله بن زيد، وحبيب بن زيد.

وخلف عليها بعد زيد «غزية بن عمرو المازني»، فولدت له خولة.

وكان لأسرة أم عمارة -ولداها وزوجها - شأن كبير في الإسلام، سنأتي

لذكره تفصيلاً.

فضائلها ومناقبها

كان لأُم عمارة العديد من المناقب والفضائل والمواقف التي كتبها التاريخ بأحرف من ذهب. أعطت فيها الكثير من الدروس في الشجاعة والإقدام؛ نذكر منها:

١ - بيعة العقبة الكبرى

لما أرسل رسول الله ﷺ «مصعب بن عمير» أول سفير للدعوة إلى المدينة، ونجح في نشر دين الحق في أرجاء المدينة. وكانت «أم عمارة» من أوائل الذين أسلموا على يديه.

وفي العام التالي يفد إلى مكة ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان للقاء رسول الله ﷺ ومبايعته عند العقبة. والمرأتان هما: ضيفتنا «أم عمارة، نُسبية بنت كعب» والثانية: «أم منيع، أسماء بنت عمرو»، أم الصحابي الجليل «مُعَاذ بن جبل». وتمت البيعة وعادت أم عمارة إلى المدينة لتؤيِّد بعهدتها ووعدها في نصره دين الحق، والجهاد في سبيل الله.

٢ - يوم أُحُد والمنقبة الكبرى

ويأتي يوم أُحُد لتؤيِّد أم عمارة ما بايعت رسول الله ﷺ عليه من نصرته

والدفاع عنه. ولتسَطَّر للتاريخ أروع صور الفداء والشجاعة وفنون القتال. فقد خرجت أم عمارة مع زوجها وولداها عبد الله وحبیب إلى أُحُد. واندفع الزوج والولدان إلى ميدان القتال، بينما ذهبت أم عمارة تسقي العطشى وتضمِّد الجرحى. واستمر القتال وأم عمارة تشهد تقدم المسلمين، ثم ما لبث أن تحوَّل نصر المسلمين إلى هزيمة، وقد أخذ القتل يشتد في صفوف المسلمين وتفرَّق الرجال عن رسول الله ﷺ حتى لم يبقَ إلا عشرة أو نحو ذلك. وفي هذه اللحظات الحاسمة ألقت أم عمارة سقاءها وانبرت تدافع عن رسول الله ﷺ.

ولنترك لأم عمارة لتروي لنا ما حدث في هذه اللحظات الحرجة: تقول أم عمارة: «خرجت أول النهار إلى أُحُد ومعى سقاء أسقي الناس منه، حتى انتهيت إلى رسول الله ﷺ والدولة والريح -أي: القوة والنصر- له ولن معه. فلما انهزم المسلمون فما لبث أن انكشف الناس عن رسول الله ﷺ، فما بقي إلا نفر قليل ما يُتَمُّون العشرة، فملت إليه أنا وابناي وزوجي نَدْبُ عنه. ورآني رسول الله ﷺ ولا تُرْسَ معى أقي به نفسي من ضربات المشركين، فرأى رجلاً مُولياً - أي: فارًّا هاربًا - فقال له: «ألق تُرْسك إلى مَنْ يُقاتل»، فألقاه فأخذته، فجعلت أترس به عن رسول الله ﷺ. وإنما فعل

بنا أصحاب الخيل الأفاعيل، ولو كانوا رجالة -أي: يمشون على أرجلهم- مثلنا لأصبناهم؛ إن شاء الله.

يا ابن أم عمارة أمك.. أمك!

فأقبل رجل على فرس ليضربني فتترست له فلم يصنع شيئاً، وولّى فضربت عُرقوب فرسه، فوقع على ظهره ثم قام ليقتلني فجعل النبي ﷺ يصيح: «يا ابن أم عمارة أمك.. أمك». فعاونني ابني عليه حتى قُتل.

من يُطبق ما تُطبقين يا أم عمارة؟

وفيما كان ابني يناضل عن رسول الله ﷺ، ضربته أحد المشركين ضربة كادت تقطع عضده، وجعل الدم يتفجر من جرحه، فأقبلت عليه وضممت جرحه، وقلت له: انهض يا بُني وجالد القوم. فالتفت إليّ رسول الله ﷺ وقال: «من يُطبق ما تُطبقين يا أم عمارة؟».

جرح غائر في عاتقها

وبينا نحن كذلك أقبل ابن قمئة وهو يصيح: أين محمد لا نجوت إن نجا، فاعترضت سبيله أنا ومصعب بن عمير، فصَرَ مصعباً بسيفه فأرداه قتيلاً، ثم ضربني ضربة خلّفت في عاتقي جرحاً غائراً، فضربته على ذلك

ضربات، ولكنَّ عدو الله كان عليه درعان.. لادرع واحد».

اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة

لم يكن ولداً أم عمارة أقل شجاعة ولا بذلاً من أمها وأبيها. يقول ولدها عبد الله: «شهدت أحدًا مع رسول الله ﷺ، فلما تفرق الناس عنه، دنوت منه أنا وأمي نذَّبُ عنه. فقال: «ابن أم عمارة؟» قلت: نعم قال: «ارم» فرميت بين يديه رجلاً من المشركين بحجر -وهو على فرسه- فأصبت عين الفرس، فاضطرب الفرس، فوقع هو وصاحبه وجعلت أعلوه بالحجارة والنبى ﷺ ينظر إليَّ ويتسمم. وحانت منه التفاتة فرأى جرح أُمي في عانقها يتصبَّب منه الدم فقال: «أُمك.. أُمك اعصَّب جرحها»، ثم قال ﷺ: «بارك الله عليكم أهل بيت، اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة».

فقلت أُمي: «ما أبالي بعد ذلك ما أصابني في الدنيا».

فكانت تلك هي المنقبة العظمى لأم عمارة وأهل بيتها.

شهادة رسول الله ﷺ لأم عمارة

وتعود أم عمارة من أحد بجرحها الغائر، وقد فازت بدعوة رسول الله ﷺ لها ولأسرتها، ويشهد لها رسول الله ﷺ فيقول:

* «لُقِّمَ نُسَيْبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ خَيْرٌ مِنْ مَقَامِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ» .
 * ويقول ﷺ : «ما التفتُ يوم أُحُدٍ يمينًا ولا شمالًا إلا ورأيتُ أمَ عَمْرَةَ تقاتلُ دوني» .
 وقد ظلت أم عمارة سنة كاملة بعد أُحُدٍ تعالج الجروح التي أصابتها في ذلك اليوم .

٣ - من المبايعات على طول المدى

تمرست أم عمارة يوم أُحُدٍ على القتال، فألفتته وذاتت حلاوة الجهاد في سبيل الله . فكانت من المبايعات على طول المدى منذ بايعت النبي ﷺ يوم العقبة على نصرته ونُصرة دين الحق . فأوفت بوعدِها وعهدِها يوم أُحُدٍ، ثم بايعت رسول الله ﷺ بيعة الرضوان عند الشجرة التي رضي الله عن كلِّ من بايع تلك البيعة، ونزل في شأنها قرآنًا يُتلى إلى يوم الدين؛ فقد قال سبحانه: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح: ١٨] .
 ثم شهدت مع رسول الله ﷺ من بعدها خيبر، وعمرة القضاء وحُنين، وغيرها من المواقف التي أبلت فيها بلاءً حسنًا .

٤ - أم الشهيد: حبيب بن زيد

ذكرنا من قبل أن ولدًا أم عمارة لم يكونا أقل بطولة وشجاعة من أمهما التي ربتهما على البذل والتضحية، وذكرنا ما كان من ابنها «عبد الله بن زيد» من مواقف بطولية يوم أُحد.. وها نحن نعرض لقصة ابنها الثاني: الشهيد البطل «حبيب بن زيد»، ابن المجاهدة الصابرة «أم عمارة».

غدر مُسيلمة واستشهاد حبيب بن زيد

وتبدأ القصة لما اختار رسول الله ﷺ حبيب بن زيد ليحمل رسالته إلى مُسيلمة الكذاب يزجره فيها عن ضلاله وكذبه. وكان هذا الاختيار من رسول الله ﷺ لحبيب لما وجد فيه من شجاعة وبأس، وكان قد شهد أُحدًا وما بعدها.

ورغم أن للرسول حُرمة إلا أن مُسيلمة لم يرع هذه الحُرمة وغدر بحبيب بن زيد، فأمر بقيده ثم قال له: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ فقال: نعم أشهد، فقال مسيلمة: أتشهد أني رسول الله؟ فقال: أنا أصم لا أسمع ما تقول. فثار مُسيلمة فقطع منه عضوًا. ثم ما زال مُسيلمة يعيد عليه السؤال نفسه فيرد حبيب عليه الجواب نفسه، وكان في كل مرة يقطع منه عضوًا، حتى فاضت روحه الطاهرة ومات شهيدًا.

من أجل هذا أعدته

وينعي الناعي حبيب بن زيد إلى أمه «أم عمارة»، فرضيت بقضاء الله وصبرت صبراً جميلاً، لكنها عاهدت الله أن تقتصّ لابنها من مُسيلمة أو تموت دونه.

فقال:

من أجل هذا الموقف أعدته **** وعند الله احتسبته

لقد بايع الرسول ليلة العقبة صغيراً **** ووفى له اليوم كبيراً

ولئن أمكنني الله من مُسيلمة **** لأجعلن بناته يلطنن الخدود عليه

يوم اليمامة.. يوم القصاص

وتعيش أم عمارة حتى تُوفِّي رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنها، ويتولَّى أبو بكر الصديق أمر الخلافة. وتقوم حروب الردّة التي كان أهمها وأخطرها معركة اليمامة معقل مُسيلمة الكذاب. فسارعت أم عمارة لتستأذن أبا بكر في الخروج مع الجيش لتواصل مسيرتها في الجهاد، ولكي تتأّر لابنها الشهيد من مُسيلمة الكذاب. فأذن لها أبو بكر، ويمضي جيش المسلمين ومعهم أم عمارة، وقد زاد عمرها عن الستين عاماً.

ولما التقى الجمعان وحمي الوطيس، كان يترصد لمسيلمة نفرٌ من المسلمين

وعلى رأسهم «أم عمارة» التي تريد أن تنتقم لابنها الشهيد، ووحشي بن حرب قاتل حمزة، فقد كان يريد أن يقتل أشرَّ الناس وهو مؤمن بعد أن قتل خير الناس وهو مشرك. ولم تستطع أم عمارة أن تصل إلى مسيلمة بعد أن قُطعت يدها في المعركة وأثختها الجراح، لكنَّ وحشي بن حرب وأبا دُجانة وصلا إلى مُسيلمة، فطعنه وحشي بالحربة، وضربه أبو دُجانة بالسيف فخرَّ صريعاً. فلما رأته أم عمارة مقتولاً، سجدت لله شكراً، ونسيت ما بها من جراح.

وتعود أم عمارة بعد اليمامة إلى المدينة وبها أحد عشر جرحاً، وقد قطعت يدها، فاحتسبتها عند الله كما احتسبت ولدها الشهيد من قبل. وكان أبو بكر يعاودها، يسأل عنها ويطمئن عليها. فلقد كانت تحتل مكانة عالية في قلوب الصحابة.

الفصل الأخير

وبعد حياة طويلة مليئة بالكفاح والصبر والجهاد في سبيل الله، آن للجسد المجاهد أن يستريح. فنامت أم عمارة على فراش الموت بعد أن دخلت التاريخ من أشرف أبوابه. لتسجّل نموذجاً مشرفاً للمرأة المسلمة، وكيف تكون في خدمة ونصرة دينها بكلِّ ما أُوتيت من قوة.

وتفيض روحها الطاهرة إلى بارئها لتكون في رُفقة الحبيب المصطفى ﷺ كما
وعدها ﷺ.

فرحمة الله عليك يا من كنت أول المبايعين لرسول الله ﷺ

يا من بشرك رسول الله ﷺ برُفقه في الجنة

ورضي الله عنك وأرضاك يا «أم عمارة».

أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها

ونحن الآن أعزائي على موعد مع زهرة أخرى من أزاهير الصحبة العطرة.
فتعالوا للتنسّم ريحها ونستنشق عبيرها.

إنها صحابية جليلة جمعت المجد من أطرافه، فأبوها صحابي، وجدها صحابي، وأختها صحابية، وزوجها صحابي، وابنها صحابي. وهي رمزٌ من رموز الشجاعة النادرة والبطولة الفذة؛ إنها ذات النطاقين «أسماء بنت أبي بكر» رضي الله عنها.

نسبها ونشأتها

هي: أسماء بنت أبي بكر بن أبي قحافة بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم.

شجرة طيبة

فلتتعرف على الشجرة الطيبة التي أثمرت هذه الثمرة الطيبة:

فأبوها: هو أبو بكر الصديق، أول من أسلم من الرجال، وأول العشرة

المبشرين بالجنة، خليل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وثاني اثنين إذ هما في الغار.

وأختها: أحبّ الناس إلى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ أم المؤمنين «عائشة».

وجدها: أبو قحافة، أسلم ونال شرف صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وزوجها: حواريّ رسول الله ﷺ، وابن عمته، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، «الزبير بن العوام».

وابنها: عبد الله بن الزبير الذي نال شرف صحبة رسول الله ﷺ.

أربعة أجيال من الصحابة

من أجل ذلك قيل: لا يوجد بيت من بيوت الصحابة فيه أربعة أجيال كلهم شاهدوا النبي ﷺ، ونالوا شرف الصحابة إلا بيت أبي بكر. فأسماء وأبوها وجدها وابنها أربعتهم من الصحابة. هكذا خرجت أسماء من تلكم الشجرة المباركة.

مولدها:

وُلِدَتْ أسماء قبل البعثة بأربعة عشر عامًا، ولما وضعتها أمه «قُتيلة بنت عبد العزى» استبشر أبوها بمولدها وفرح فرحًا كبيرًا.

نشأتها

كانت أسماء قوية الجسم، سريعة النمو، وكلما زاد نموها زاد ذكاؤها. فكانت منذ طفولتها تتحمل أعباء المنزل، فكانت تشارك الخدم في إعداد

الموائد للضيوف الذين لا تخلو منهم قاعة البيت الكبير، سواء كانوا من الفقراء والمساكين أو قاصدين أباهم لأموال التجارة أو للاستزادة من علمه في علوم الأنساب وغيرها، أو للقضاء بينهم في أمور الديات.

السجود لله وحده

وكانت أسماء كثيرًا ما تطوف البيت مع أبيها، وكانت تلاحظ أن أباهم لا يسجد للأصنام كما يفعل الآخرون، ولما سألته عن ذلك قال لها: إن السجود لا يكون إلا لله وحده. فهكذا نشأت أسماء والإيمان بالله وحده في قلبها.

وقد تعلمت من أبيها الأخلاق السامية وورثت عنه الكثير من شمائله الطيبة.

إسلامها

ولما أشرقت شمس الإسلام كان أبوها أول من أسلم من الرجال. ويوم أن أسلم عاد إلى البيت مشرق الوجه مُتهلل الجبين، وزفَّ إليهم البشرى بنبوة الصادق الأمين محمد ﷺ. وبعده بقليل أسلمت أسماء وكانت في الرابعة

عشرة من عمرها، وما أسلم قبلها إلا سبعة عشر مسلمًا ليكون ترتيبها الثامنة عشرة. وهكذا كانت أسماء من السابقين الأولين للإسلام.

البيت المسلم

وهكذا بدأت نفحات الإيمان ترفرف على البيت المسلم. فقد كانت أمها وأم أخيها عبد الله «قُتَيْلَة بنت عبد العزى» قد فارقت أبيها وبقيت على شركها، فتزوج أبو بكر من «أم رومان» التي كانت لها بمثابة الأم رفقا وحنانًا ورعاية.

ووضعت أم رومان ابنتها عائشة وابنها عبد الرحمن. وعاش الجميع في أمن وسلام في هذا البيت المسلم المبارك.

زواجها

وظلت أسماء تتبع كل ما جاء به رسول الله ﷺ. فكانت تنتظر أباهما حتى يعود من عند رسول الله ﷺ فيخبرها بأحوال رسول الله ﷺ وأحوال المسلمين وما يتعرضوا له من أذى المشركين.

وفي هذه الأثناء تقدم لخطبتها «الزبير بن العوام»، الذي كان من أوائل من

أسلموا - خامس خمسة قد أسلموا -، فوافق أبوها بعد استشارتها، فكان هذا الزواج المبارك.

وبدأت أسماء حياتها الزوجية في مكة، فعاشت في بيت الزبير المتواضع، فقد كان رجلاً فقيراً ليس له خادم أو مال يوسّع به على عياله، فكانت له نعمة الزوجة الصالحة.

الهجرة النبوية

وتأتي الهجرة النبوية لتسطر أسماء للتاريخ دورًا بطوليًّا، أظهرت فيه من القوة والشجاعة والذكاء ما أهَّلها للفوز بالمنقبة العظمى ودعاء رسول الله ﷺ لها.

فتعالوا أعزائي لتتعرف على دور أسماء التاريخي في هذه الهجرة المباركة.

زيارة مفاجئة

كان الزبير بن العوام قد خرج في تجارة إلى الشام فانتقلت أسماء إلى بيت أبيها. وفي يوم كانت أسماء وأختها الصغيرة عائشة يجلسان في البيت فإذا الباب يدق، فلما فتحت أسماء الباب، إذا برسول الله ﷺ بالباب، وكان وقت ظهيرة ولم يكن ﷺ متعودًا أن يأتي في مثل هذا الوقت. فقابله أبوبكر وأخبره رسول الله ﷺ بأمر الهجرة وليستعدَّ لصُحبته. وفي المساء يأتي رسول الله ﷺ، ويخرج المهاجران من الباب الخلفي لبيت أبي بكر لتبدأ رحلة الهجرة.

مواجهة مع أبي جهل

ومنذ أن خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق، والنوم لم يجد سبيلاً إلى عين أسماء لشدة قلقها عليهما. وبينما هي على حالتها تلك سمعت طارقاً عنيفاً على الباب فاضطربت قليلاً ثم اتجهت إلى الباب وفتحت لتجد أبا جهل بوجهه المتجهّم فقد استشاط غضباً هو ومن معه لما علموا بخروج رسول الله ﷺ رغم محاصرتهم لبيته. فتوجهوا إلى بيت صديقه أبي بكر.

ويدور هذا الحوار بين أبي جهل وأسماء:

أبو جهل: أين أبوك يا فتاة؟

أسماء: خرج من البيت.

أبو جهل: متى خرج؟

أسماء: لا أدري.

أبو جهل: إلى أين سار؟

أسماء: لا أعرف.

عندئذ لم يملك أبو جهل نفسه من شدة الغيظ فهوى بيده الغليظة على وجه أسماء ولطمها لكمة قوية أوقعت لها قرطياً من أذنها، فوفقت ثانية لم تنزح، رغم ما تعانیه من شدة الضربة.

أما أبو جهل فقد انسحب في خزي وعار، وقد لامه أهل مكة على ضربه

لأسماء، وما فيه من تخلُّ عن أخلاق العرب وشييمهم التي تآبى أن يضرب رجلٌ امرأةً، وخاصة أن أسماء كانت حاملاً.

فهكذا كانت شخصية أسماء القوية المؤمنة التي حفظت سرَّ رسول الله ﷺ وتحملت أذى وبطش أبي جهل. وكان في موقفها هذا حماية لمن بالبيت: أخوها عبد الله، وأختها عائشة وزوجة أبيها أم رومان، فكفتمهم جميعاً مؤنة المواجهة.

ذكاء وحسن تصرُّف

ولم تكد أسماء تستريح مما لاقته من أبي جهل، حتى طرق الباب طارق آخر، وكان لأسماء موقف آخر مع الطارق الجديد يُعبّر عن صدق إيمانها وحُسن تصرفها في الأمور الطارئة. فمن هو الطارق الجديد؟ وماذا كان يريد؟

لقد كان جدها أبا قحافة، الشيخ الهرم الأعمى الذي كان ما زال مُصِراً على شركه، وغير راضٍ عن إسلام ابنه. فلما دخل البيت قال في لهفة: أين أبوكم؟ فتولت أسماء الرد عليه، وقالت: لا أدري يا جداه. فقال: أظن أن أباكم قد فجعكم في ماله كما فجعكم في نفسه، فلم يترك لكم درهماً واحداً. وكان الشيخ محقاً فيما أشار إليه، فقد حمل الصديق معه ماله كله ومقداره ستة آلاف درهم، ولم يترك لعياله شيئاً.

وهنا أعزائي يتبدَّى ذكاء أسماء وسرعة بديتها، فأرادت أن تُسكِّن نفس الجدِّ المكفوف الطاعن في السن. فجمعت حصي ووضعت في الكوة -تجويف في الحائط- التي كانوا يضعون فيها المال، وألقت عليها ثوباً ثم أخذت بيد جدها، وقالت: تعال يا جدِّي لأريك المال الذي تركه أبي، ووضعت يده على الكومة المغطاة فحسبها الشيخ المكفوف مالاً، فهذأت نفسه وقام وانصرف.

زيارة المهاجرين

عرفت أسماء المكان الذي انتهى إليه الصحابان المهاجران وهو غار ثور. فكانت تأتي إليه ليلاً بالطعام والشراب يصحبها أخوها عبد الله، وقد كلفه أبوه بتبُّع المشركين لمعرفة أخبارهم وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يتبعهما بأغنامه ليطمس آثار أقدامهما.

وبقي رسول الله ﷺ وصاحبه في الغار ثلاثة أيام بلياليها، وفي كل ليلة تقوم أسماء وأخوها بمهمتهما على خير وجه.

ولك أن تتخيل عزيزي القارئ مدى شجاعة وإقدام وبأس أسماء، وهي تخرج في سواد الليل تحمل طعاماً، وتسلك الطُّرُق الوَعِرَةَ الطويلة، وتصعد جبلاً لتصل إلى الغار، وتحمل كل هذه المشقة رغم حملها. فكانت لا تعباً

بالمخاطر وهي تعلم أن عيون المشركين تتابعها.. فله ذرّك يا بنت أبي بكر.

ذات النطاقين

والآن أعزائي نأتي إلى المنقبة العظمى والوسام الأعلى الذي حصلت عليه أسماء جزاءً لما قامت به من أعمال.

فلما هدأت أعين قريش عن رسول الله ﷺ وصاحبه، وحانت ساعة الرحيل، كانت أسماء قد أعدت الطعام والسقاء لهما. فلما بدأ الاستعداد للرحيل أرادت أسماء أن تعلق السفارة التي بها الطعام والسقاء، فلم تجد رباطاً فأخذت نطاقها - حزام من القماش تربطه المرأة حول وسطها - وشقته نصفين، ربطت السفارة بأحدهما، وربطت بالآخر وسطها.

فلما رآها رسول الله ﷺ تفعل ذلك تبسم وقال لها: «أبدلك الله بنطاقك نطاقين في الجنة»، ومنذ تلك اللحظة عُرفت أسماء بـ«ذات النطاقين».

وهو لقب تشريف وتعظيم وبشرى من رسول الله ﷺ، وهو اللقب الذي ظل ملازمًا لها طوال سنين عمرها المديد الذي بلغ المائة سنة.

حياتها في المدينة

ويبدأ المهاجران رحلتها وتكون أسماء آخر المودعين لهما. وتعود إلى البيت لتتبع أخبار رحلتها في قلق بالغ حتى بلغا مأمنها ودخلا المدينة المنورة.

أول مولود للمهاجرين بالمدينة

ولما استقر الحال للمسلمين في المدينة، أرسل أبو بكر الصديق إلى ابنه عبد الله أن يأتي له بأهله.

وتهاجر أسماء مع أخيها عبد الله وأختها عائشة وزوجة أبيها أم رومان، وكانت أسماء قد أتمت حملها، فلم يمنعها ذلك من تحمّل مشقة الرحلة الطويلة.

فما أن بلغت قُباء حتى وضعت وليدها، فكبرّ المسلمون وهللوا لأول مولود للمهاجرين بالمدينة. وفرح المسلمون كثيراً بهذا المولود؛ لأن اليهود كانوا قد زعموا أنهم سحروا المهاجرين فلا يُولد لهم وكُد في المدينة.

وما أن علم أبو بكر حتى أسرع إلى قُباء، وكان معه الزبير بن العوام الذي كان في الشام وأتى إلى المدينة لما علم أن رسول الله ﷺ هاجر إليها وظل هناك مع رسول الله ﷺ في انتظار قدوم زوجته وباقي أهلها. فلما رأى وليده

الأول فرح به فرحاً شديداً، وحملت أسماء وزوجها المولود إلى المدينة، وما أن وصلا حتى وضعت أسماء في حجر رسول الله ﷺ، فطلب تمره فمضغها بفمه الشريف وحنكه بها، وسماه عبد الله. وكان «عبد الله بن الزبير» الذي سيكون له شأن عظيم في تاريخ الإسلام.

أسماء الزوجة

وتنقل أسماء من مكة إلى المدينة لتبدأ حياة جديدة مع زوجها تُقاسمه خشونة العيش وهو المعدم الذي ليس له أرض يتولى زراعتها، ولا مال يتجر فيه، وليس عنده مملوك ينتفع به، ولا شيء إلا فرسه. فكانت أسماء تعلق الفرس، فتدقُّ له النوى وتعلقه وتسقيه، وتخز غربه - وعاء من الجلد لحمل الماء - فتكفي الزبير مؤنته.

ثم إن رسول الله ﷺ رَقَّ لحال الزبير فأعطاه أرضاً على بُعد فرسخين - الفرسخ: ثلاثة أميال - من المدينة، وكانت أسماء تحمل النوى على رأسها من تلك الأرض وتذهب به إلى بيتها لتدقه. ثم تقوم بعجن الدقيق، ولم تكن تُحسن العجن والخبز، فكان لها جارات من الأنصار يُساعدنها في العجن والخبز. وظلت أسماء صابرةً تعمل على إرضاء زوجها حامدةً الله على ما أعطاه من رزق.

فكأننا أعتقني

فلما رأى والدها «أبو بكر الصديق» ما تعانيه من خشونة العيش، فأراد أن يُعينها من غير أن تشكو إليه فأرسل إليها خادماً تحمّل عنها عناء العمل، ففرحت بذلك كثيراً ثم قالت تذكر فضل أبيها: «كفاني سياسة الفرس فكأننا أعتقني».

هكذا قدمت أسماء الدرس الكبير لدور المرأة، فهي زوجة تُهيئ لزوجها الراحة والسعادة رغم ضيق اليد، وتعاونه فيما تقدر عليه من أعمال، فلا تكلفه عاملاً ولا خادماً. وبهذا وفّرت لزوجها «الزبير بن العوام» الوقت والراحة ليتّجه للعبادة ويقوم بواجبه نحو رفعة شأن دين الله، فكان من العشرة المبشرين بالجنة. وكانت أسماء له نعم الزوجة الصالحة.

أسماء الأم

وكما كانت «أسماء» زوجة مؤمنة صالحة، فقد كانت كذلك أمّاً مثالية. فقد تفرغت لأولادها فربّتهم على تعاليم الدين والتمسك بمبادئه، وعلى الإخلاص لله ورسوله، والشجاعة، والإقدام والإخلاص في العمل. وكل هذه مقومات تربية النشء الصالح الذي تقوم عليه الأمة.

وصدق الشاعر عندما قال:

الأم مدرسةٌ إذا أعددتها *** أعددت شعباً طيب الأعراف

وقد رزق الله أسماء من الأبناء خمسة ذكور وثلاث إناث، هم:

*** عبد الله بن الزبير:**

كان أكبر أولادها وأول مولود يُولَد للمهاجرين في المدينة - كما أسلفنا - وقد نشأ شجاعاً يُجيد فنون القتال وهو ما يزال صبيّاً، وكان أبوه «الزبير بن العوام» يُشركه في المعارك مع حداثة سنّه لما رأى فيه من مظاهر الشجاعة والإقدام.

عمر يُعجب بشجاعته

ومن مظاهر شجاعته منذ طفولته: أنه كان يلعب مع الصبيان في شوارع المدينة ومَرَّ بهم أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب»، وكان لعمر هيبة فكان الصبية يهابونه لدرجة الخوف الشديد، فلما رأوه فرُّوا جميعاً إلا عبد الله بن الزبير وقف مكانه. فلما اقترب منه عمر قال له: ما اسمك؟ فأجابه بجرأة: عبد الله بن الزبير. فقال له عمر: لماذا لم تفرّ كما فعل الصبيان؟ فقال له: لم أُجرم فأخاف منك، وليس الطريق ضيقاً فأوسع لك.

فأعجب عمر بشجاعته وتنبأ له بحياة كلها شجاعة وكفاح، وقد تحقّق

الكثير مما تنبأ به عمر بن الخطاب - كم سنأتي لذكره لاحقاً -.

* عروة بن الزبير:

أما ولدها الثاني فكان «عروة بن الزبير» الذي اتجه إلى دراسة الفقه وعلوم القرآن، حتى أصبح أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، وكان تقياً ورعاً.

* المنذر بن الزبير

أما ولدها الثالث فكان «المنذر بن الزبير» الذي اتجه إلى التجارة، وكانت أمه تدعوه إلى تقوى الله والتعامل بالصدق والأمانة، والبعد عن الغش والخداع.

* المهاجر وعاصم ابنا الزبير:

أما ابناها المهاجر وعاصم فقد كانا أيضاً فاضلين، وذلك بفضل تربية الأم العظيمة.

* بنات أسماء:

أما البنات فكان لها ثلاث بنات هن: خديجة بنت الزبير، وأم الحسن بنت الزبير، وعائشة بنت الزبير. وقد ربّتهن أسماء على الفضيلة ومكارم الأخلاق.

أسماء وعائشة

لقد كفت «أسماء بنت أبي بكر» زوجها «الزبير بن العوام» تربية أولادها وتثقيفهم، فكانوا قدوة صالحة في كل مناحي الحياة. وكان لأم المؤمنين عائشة أيضاً دور كبير في تربيتهم ونشأتهم على مكارم الأخلاق. فقد كانت تعتبر أولاد أسماء هم أولاداً لها؛ إذ حُرمت من الولد. ولقد كَنَّاها رسول الله ﷺ «بأم عبد الله» لتعلُّقها بعبد الله بن الزبير وحبِّها له.

فضائلها ومناقبها

والآن أعزائي فلنقترب أكثر من هذه الصحابية الجليلة لتتعرف على بعض من فضائلها ومناقبها:

فبالإضافة إلى المنقبة العظمى التي منحها إياها رسول الله ﷺ وبشَّرها بالجنة لتلقَّب بذات النطاقين - كما أسلفنا -؛ فقد كان لها العديد من الفضائل والمناقب، نذكر منها:

١ - خوفها وورعها

لقد كانت أسماء مثلاً عالياً في العبادة والطاعة والخوف من الله. فهي بنت الصديق الذي كان يسابق كل أصحاب رسول الله ﷺ إلى كل طاعة وفضيلة.

وهاك بعض الأمثلة:

صوامة قوامة

لقد كانت أسماء صوَّامة، قوامة، خائفة ورجلة.

يقول زوجها «الزبير بن العوام»: دخلت على أسماء وهي تصلي، فسمعتها تقرأ هذه الآية: {فَمَنْ لِّلّٰهِ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ} [الطور: ٢٧]. فاستعادت، فقمت وهي تستعيد، فلما طال عليّ أتيت السوق ثم رجعت وهي ما زالت في بكائها تستعيد.

صِليُّ أمك

كانت أسماء شديدة الحرص على تعاليم دينها، وفي نفس الوقت تريد أن تصل رحمها.

فقد روي أن أمها «قتيلة بنت عبد العزى» زارتها في المدينة وكانت على شركها - كما أسلفنا -، وقد حملت لابنتها الهدايا فأبت أن تقبلها منها حتى سألت رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن أمي قدمت إليّ بهدايا أفأصلها؟ فقال لها رسول الله ﷺ: «نعم صِليُّ أمك». ونزل فيها قول الحق سبحانه: {لَا يَنْهَاكُمُ اللّٰهُ عَنِ الدِّينِ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الممتحنة: ٨].

يقول ابن الزبير: نزلت هذه الآية في أسماء وأمها قتيلة، جاءتها بهدايا فلم تقبلها حتى تسأل رسول الله ﷺ.

٢- سخاؤها وكرمها

لقد كانت أسماء كريمة، وكان يُضرب بجودها وكرمها المثل. وكان كرمها لا يقف أمامه شيء، يستوي عندها الإنفاق في الفقر والغنى، فلا يمنعها الفقر، ولا يُبقي لها الغنى شيئاً.

وهاك بعض الشواهد:

* ذهبت يوماً إلى رسول الله ﷺ في أيام شدتها وعسرتها، وقالت: يا رسول الله ليس عندي شيء إلا ما أدخل الزبير عليّ، فهل أتصدق منه؟ فقال لها رسول الله ﷺ: «تصدّقي ولا تُوعي فيوعي عليك» -أي: لا تبخلي لئلا ينقطع عنك فضل الله وبركته-. فظلت تُنفق بسخاء ولم تنس وصية رسول الله ﷺ.

* كانت تقول لبناتها وأهلها: «أنفقن.. وتصدقن ولا تنتظرن الفضل، فإنكن إن انتظرن الفضل لم تُفضلن شيئاً، وإن تصدقن لم تجدن فقهه». والمعنى: أن تصدقن ولا تنتظرن الزيادة، لكن التصدق خير في الثواب والبركة وأجدى عند الله.

* ولما كثر الخير عندها، كانت إذا مرضت فتعتق في مرضها كل مملوك لها.
 * يقول عبد الله بن الزبير: «ما رأيت امرأة قط أجود من عائشة وأسماء وجودهما مختلف: أما عائشة فكانت تجمع الشيء إلى الشيء حتى إذا اجتمع عندها وضعتة مواضعه. أما أسماء، فكانت لا تدخر شيئاً لغد». هكذا كان كرم وسخاء بنات أبي بكر الذي كان يُنفق كل ماله في سبيل الله.

٣ - شجاعته

لقد كان أهم ما يُميز شخصية «أسماء بنت أبي بكر» هو الشجاعة والإقدام وتحمل الصعاب.

* وقد ذكرنا كيف أظهرت من الشجاعة الفائقة في الهجرة، وما كان من مواجهتها لأبي جهل، ثم موقفها مع جدها أبي قحافة. وتحمل المخاطر في ذهابها ليلاً وعودتها مع أخيها عبد الله لتحمل ما يحتاج إليه رسول الله ﷺ وأبيها من طعام وشراب إذ هما في الغار.

* وقد شهدت أسماء مع زوجها وابنها معركة اليرموك، وأظهرت فيها من الشجاعة والإقدام ما أدهش الكثيرين، حتى من الأعداء.

* ثم كان موقفها الذي لا يُنسى في مواجهة الطاغية «الحجاج بن يوسف الثقفي» - كما سيأتي ذكره -.

٤ - علمها

لقد وعت أسماء علماً غزيراً تلقته من رسول الله ﷺ ومن أبيها وزوجها، ومن خيرة الصحابة. فقد كانت عالمة محدثة فقيهة، وقد روت الكثير عن النبي ﷺ، وحدث عنها أبنائها عبد الله وعروة، وحفيدها عبد الله بن عروة، وعدد من التابعين.

وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت أسماء مُعبرة للرؤيا. فلقد ذكر أن سعيد بن المسيب كان أعبر الناس للرؤيا، وأنه أخذ ذلك من أسماء بنت أبي بكر، وأخذته أسماء عن أبيها.

ومن السمات في حياة أسماء أنها كانت فصيحة اللسان، حاضرة القلب، تقول الشعر، ولها الكثير من القصائد التي تُشير إلى بلاغتها.

٥ - صبرها

كانت أسماء صابرة مُحْتَسِبة، صابرة على آلامها الجسدية والنفسية، مُحْتَسِبة ذلك عند الله - سبحانه وتعالى -.

وهاك بعض الشواهد:

الأحزان تتوالى

فقد توالى عليها الأحزان واحدة تلوى الأخرى؛ فهات رسول الله ﷺ،

وحزنت عليه حزناً كاد يُمزق قلبها. وتولى أبوها أمر الخلافة بعد رسول الله ﷺ، ثم ما لبث أن لحق بحبيبه ليترك أسماء فريسة لحزنها. وتجددت الأحزان بعدها بمقتل عمر، ثم بمقتل عثمان، ثم بمقتل زوجها الزبير بن العوام.

فعاشرت أسماء حياة الصبر والاحتساب على تلك المحن.

آلام الجسد

عاشت أسماء مائة عام، وقد أصيبت بكثير من الأمراض، وفقدت بصرها. وكانت دائماً تصبر على آلامها. فقد كان في عنقها ورم فصبرت على آلامه، وكانت إذا صدعت تضع يدها على رأسها وتقول: «بذني، وما يغفر الله أكثر».

وهكذا عاشت بآلامها ومرضاها صابرة محتسبة.

صبرها على محنة ابنها «عبد الله بن الزبير»

وتأتي محنة ابنها «عبد الله بن الزبير» والتي أظهرت فيها «أسماء بنت أبي بكر» من القوة والصلابة والإيمان بالله، والصبر على قدره ما يعجز القلم

عن وصفه.

فلتستمع قلوبنا وعقولنا لما حدث، ولتتعلم من أسماء كيف يكون الصبر في أعلى مراتبه، والإيمان بالله في أبهى صورته.

فخر الأبناء

لقد كان «عبد الله بن الزبير» مصدر فخر وسعادة لأمه منذ يوم ولادته الذي كبر له المسلمون إذ كان أول مولود للمهاجرين في المدينة. ثم ما كان منه من ذكاء وشجاعة جعله موضع تقدير وإعجاب جده «أبي بكر» وعمر بن الخطاب وأبيه «الزبير بن العوام»، وغيرهم من كبار الصحابة.

وقد أظهر من الشجاعة منذ صغر سنّه لما اشترك في فتوحات العراق والشام ومصر. فأحبه أمه حبّاً شديداً كاد يزيد عن حبّها لأولادها الآخرين.

الخليفة «عبد الله بن الزبير» ===

وتدور الأيام والأحداث وتصبح الأمور بيد بني أمية، ويُعلن «عبد الله بن الزبير» معارضته لهم. ومن بعدها يموت معاوية بن أبي سفيان، ثم من بعده ابنه «يزيد بن معاوية»، فأعلنت البلاد مبايعتها لابن الزبير، فبايعه أهل الحجاز والعراق ومصر وخرسان وأكثر بلاد الشام، ليصبح «عبد الله بن الزبير» خليفة المسلمين.

وكان يمارس سلطانه بحكمة وحزم، وكان في كل ما يصدر عنه من مواقف

متأثراً بأمه «أسماء بنت أبي بكر» التي انتقلت من المدينة إلى مكة مركز حكمه وسلطانه، لتكون مستشاره الأول يأتيها مُستعِيناً بنصح رأيها وصواب نظرتها للأُمور.

بداية المحنة

ويظهر مروان بن الحكم على مسرح الأحداث، ويُمسك بزمام الأُمور لكي يظل الحكم في بني أمية. فاستطاع أن يستعيد معظم بلاد الشام ومصر لحكم الأمويين. ثم خلف من بعده ابنه «عبد الملك بن مروان» الذي استطاع إعادة العراق لحكم الأمويين بعد مقتل «مصعب بن الزبير» - أخو عبد الله من الأب - الذي كان من القادة المرموقين وهو الحدّث الذي هدّ أخاه عبد الله بن الزبير هدّاً، وأثر فيه تأثيراً شديداً، فقد كان مصعب يده التي يبطش بها، وقوته التي يحارب بها.

وتداعت الهزائم النفسية إلى جانب الهزائم المادية، وبدأ أفول النجم لتبدأ محنة «عبد الله بن الزبير».

حصار مكة

كان عبد الملك بن مروان قد سير جيشاً جراراً بقيادة قائد جبار عنيد هو

«الحجاج بن يوسف الثقفي» الذي كانت به قسوة وشدة، فظل يجارب «عبد الله بن الزبير»، وينتصر عليه حتى وصل إلى عاصمة حكمه «مكة المكرمة» بعد معارك طاحنة أظهر فيها ابن الزبير بطولات وشجاعة نادرة. غير أن أنصاره جعلوا ينفضون عنه شيئاً فشيئاً، إما تحت وطأة القتال، وإما رغبة فيما عند الأمويين الذين كانوا يعدونهم بنعيم الدنيا. ويستمر تقدم الحجاج حتى حاصر مكة من كل جانب ومنع عنها المؤن والزاد وظل يدقها بالمنجنيق.

إما النصر أو الشهادة

ويستمر الحصار وتخاذل الناس من حول ابن الزبير حتى لم يبق له إلا المسجد الحرام الذي يتحصن به. ثم دعاه الحجاج وقد تغلب عليه إلى الاستسلام وله ما يريد من الأرض والمال ومتع الحياة. فامتنع عبد الله وصمّم على مواصلة القتال، وأمامه أمرين لا ثالث لهما: إما النصر أو الشهادة.

لا يُضير الشاة سلخها بعد ذبحها

وفي يوم استطاع ابن الزبير التسلل خفية ليذهب إلى أمه التي يلجأ إليها في

الصعوبات والشدائد لعله يجد عندها الرأي والمشورة، ويستمد منها بعض القوة والحنان بعد أن خذله أقرب الناس إليه.

ويدخل عبد الله على أمه التي ما لبثت أن رحبت به وضمته إلى صدرها في حبّ وحنان، وحدّث عبد الله أمه بما حدّث له وبخذلان أصحابه وأقرب الناس إليه، وأخبرها بما عرض عليه الحجاج من صلح واستسلام مقابل نعيم الدنيا.

وهنا اعتدلت الأم في جلستها لتُظهر من القوة والصلابة ما يفوق الوصف. وقالت: «يا بني، أنت أعلم بنفسك، إن كنت على الهدى وتدعو إلى الحق فاصبر عليه، فقد قُتل أصحابك عليه. وإن كنت تريد الدنيا فلبئس العبد أنت، أهلكت نفسك وأهلكت من معك. فالقتل أحسن والله، ولضرب سيف في عزّ خيرٌ من ضربة سوط في مذلة».

قال عبد الله: إني لا أخاف الموت يا أماه، ولكنني أخاف إن متّ أن يُمثّلوا بجسدي. فقالت أسماء كلمتها الخالدة: «يا بني، لا يُضير الشاة سلخها بعد ذبحها».

الوداع الأخير

فقال عبد الله: هذا والله ما أرى، ولكنني أحببت أن أعلم رأيك، فزدتيني

بصيرةً. فانظري يا أمه، فإنني مقتول في يومي هذا، فلا يشتدّ حزنك وجزعك عليّ وسلمي الأمر لله. فضمّت أسماء ابنها إلى صدرها، وقالت: «اللهم إني قد سلمته لأمرك فيه، ورضيتُ بما قضيتَ، فقابلني في عبد الله بثواب الصابرين الشاكرين».

أفسدت عليه دنياه وأفسد عليك آخرتك

ويخرج عبد الله من عند أمه وقد ازداد قوة. وقاد البقية الباقية من جنوده، يضرب ولا يكل ويندفع اندفاعته الأخيرة، حتى سقط شهيداً. ولم يكتفِ الحجاج بقتله، بل أمر بأن يُصلب في جذع نخلة زيادةً وإمعاناً في التنكيل، وإرهاباً للناس وتخويفهم. فجاءت أسماء حتى وصلت إلى حيث يُعلّق جسد ابنها الشهيد، وجعلت تدعو له في رباطة جأش وقوة وبأس، وإن كان قلبها في حزن صامت عميق.

ويأتي الحجاج ليقول لها في شماته: كيف رأيتيني فعلت بعدوّ الله؟ فأجابت على الفور: «رأيتك أفسدت عليه دنياه، وأفسد عليك آخرتك».

فذهب عنها مخذولاً ولم يُراجعها.

الفصل الأخير

هكذا سَطَّرت «أسماء بنت أبي بكر» للتاريخ درسًا لا يُنسى في الصبر، وقوة الإيمان، واليقين فيما عند الله، والشجاعة في مواجهة الطغاة المفسدين، والصبر عند الشدائد.

ولما بلغ عبد الملك بن مروان ما فعله الحجاج من إغلاظه لأسماء، كتب إلى الحجاج يلومه في مخاطبته أسماء، وقال: «مالك ولابنة الرجل الصالح؟». وأمام قوة إيمانها وعظيم منطقتها، أمر الحجاج بإنزال جسد ابن الزبير، ودخلوا به على أمه فاشتركت في غُسله وصلَّت عليه وحدها قبل أن يُصلي عليه الناس، وتم دفنه.

وبعد قرن من الزمان، عاشته أسماء بأفراحه وأحزانه والتي خُتمت بقتل ولدها، وبعد أيام من دفنه نامت على فراش الموت لتُلبى نداء ربها. وتنتقل إلى دار الآخرة راضية مرضية.

وكان ذلك في عام ثلاثة وسبعين للهجرة، وكانت آخر المهاجرين والمهاجرات رحيلًا. بعد أن سَطَّرت على جبين التاريخ سطورًا من نور

فرحمة الله وبركاته عليك يا ذات النطاقين

يا مَنْ علَّمتِ البشرية دروسًا لا تُنسى في القوة والبأس والشجاعة

ورضى الله عنك وأرضاك يا «أسماء بنت أبي بكر».

آل ملحان رضي الله عنهم

أما الآن أعزائي فإننا لسنا على موعد مع ريحانة أو ريحانتين من رياحين الصحبة العطرة، بل نحن على موعد مع بستان صغير من الرياحين العطرة..

فهي عائلة كاملة مؤمنة، أسلمت كلها في يوم واحد، عائلة أحبَّت رسول الله ﷺ فأحبهم رسول الله ﷺ، وبشرهم بالجنة.. إنها عائلة «آل ملحان» رضي الله عنهم أجمعين.

الشجرة المباركة

فتعالوا أعزائي لتتعرف على أفراد هذه العائلة المباركة. فهي تتكون من: أخين وأختين.

أما الأخان: فهما «حرام بن ملحان»، و«سليم بن ملحان».

أما الأختان: فهما «أم حرام بنت ملحان»، وأم سليم «الغُميصاء بنت ملحان».

وهم جميعاً أبناء ملحان بن خالد بن زيد بن حرام بن جُندب من بني النجار.

فهي عائلة نجارية أنصاريّة، كانت تقيم في قُباء. وقد أسلم كل أفراد هذه العائلة في يوم واحد، وذلك قبل هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة. فكانوا بحقّ من السابقين الأولين. فلنقترب أكثر أعزائي لتتعرف على كل فردٍ من أفراد هذه العائلة المباركة.

الأخان الشهيدان

أما الأخان حرام وسُليم فقد أسلما وشهدا بدرًا وأُحدًا واستشهدا يوم بئر معونة.

فُزْتُ وربّ الكعبة

أما عن قصة استشهادهما؛ ففي السنة الرابعة من الهجرة، قدم أبو البراء «عامر بن مالك»، وهو من أشرف بني عامر، قدم إلى رسول الله ﷺ وطلب منه أن يُرسل معه بعض أصحابه إلى أهل نجد يدعونهم لدين الإسلام، ووعدّ بأنه سيدافع عنهم ويحميهم.

فبعث رسول الله ﷺ معه سبعين رجلاً من خيار الصحابة وقرائهم وفيهم الأخوان: حرام وسُليم ابنا ملحان. فساروا حتى نزلوا بئر معونة، وهناك

بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل - سيد بني عامر - فلم ينظر في الكتاب وأمر بقتل حرام بن ملحان الذي سقط على الأرض وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ظهر البشر والفرحة على وجهه، وقال مُبتسماً: «فُزْتُ وربَّ الكعبة»، وهو ما أذهل قاتله الذي ما لبث أن أسلم وأتبع دين الهدى.

ثم استنفر عامر بن الطفيل بني عامر لقتال الباقيين من الدعاة، فلم يجيئوه وذلك لجوار أبي البراء لهم. فاستنفر عليهم بني سليم فأجابته، فجاءوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله ﷺ فقاتلوا حتى قُتلوا عن آخرهم إلا رجلين هما: كعب بن زيد، وعمرو بن أمية الضمري. وكان من بين القتلى سليم بن ملحان.

وهكذا قدمت هذه العائلة المباركة الأخوان شهيدين في سبيل الله. وقد حزننا الأختان: أم حرام وأم سليم على أخويهما ولكنهما صبرا واحتسابا. وحزن كذلك رسول الله ﷺ على هذين الأخوين وأصحابهما حزناً عميقاً. وقد أحب رسول الله ﷺ هذه العائلة فكان دائم الزيارة والودِّ لهم - كما سيأتي ذكره -.

أم حرام بنت ملحان

ولتتعرف الآن أعزائي على الأخت الأولى «أم حرام بنت ملحان». فقد نشأت أم حرام في ذلك البيت المبارك الذي أسلفنا ذكره، وآمنت برسول الله ﷺ قبل أن تكتحل عيناها برؤيته.

استشهاد زوجها وابنها

كانت أم حرام زوجًا لعمرو بن قيس بن زيد، وكان لها منه ولد هو قيس بن عمرو بن قيس.

وفي غزوة أحد استشهد زوجها وابنها، فلما نعاها الناعي صبرت واحتسبت. ولما علمت أن رسول الله ﷺ بخير ولم يُقتل كما أشاع المشركون قالت: «كل مُصيبة دونك هيئة يا رسول الله».

عبادة بن الصامت زوجًا لها

وتمر الأيام وأم حرام تعلقو بإيمانها يوماً بعد يوم، حتى رزقها الله بالزواج من الصحابي الجليل «عبادة بن الصامت»، وكان سيِّدًا من سادات الخزرج وفارسًا مغوارًا.

* للاستزادة من حياة «عبادة بن الصامت» ارجع إلى الجزء الثالث «حياة الصحب الكرام» للمؤلف.

مناقبها وفضائلها

- * عاشت أم حرام تنهل من نور رسول الله ﷺ، فكانت تحفظ وتعي ما تسمع من أحاديث رسول الله ﷺ، فقد روت عنه خمسة أحاديث، وروى عنها زوجها «عبادة بن الصامت» وابن أختها «أنس بن مالك»، وغيرهما.
- * كانت أم حرام كثيرة البذل والعطاء والإيثار.
- * وكانت مثال الزوجة الصالحة، ترعى زوجها، وتخرج معه في الجهاد.
- * كان رسول الله ﷺ يُكِنُّ لأم حرام كل تقدير واحترام، وكان كثيرًا ما يزورها هي وأختها في بيتها في قُباء.

بُشْرَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

قصد رسول الله ﷺ ذات يوم قُباء، وأتى دار «عبادة بن الصامت» فرحَّب به هو وزوجته «أم حرام»، وكان رسول الله ﷺ يُحِبُّ هذه الأسرة ويأنس إليهم. وفي هذا اليوم يمنح رسول الله ﷺ أم حرام البشْرَى بالشهادة.

تقول أم حرام: إن رسول الله ﷺ قَالَ - أي: نام القيلولة - في بيتي ثم استيقظ وهو يضحك، فقلت: ما يُضحكك يا رسول الله؟ قال: «أناس من أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غَزَاةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَرْكَبُونَ ثَبَجَ الْبَحْرِ - أي: ظهر البحر -

كالمملوك على الأسيرة»، قلت: يا رسول الله، ادعُ الله أن أكون منهم. قال: «أنت من الأولين».

الفصل الأخير

الفوز بالشهادة

وتمر الأيام وتظل أم حرام على عهدها، صائمة، قائمة، عابدة لله وحده. تخرج مع زوجها في غزواته تداوي الجرحى، وتسقي العطشى. حتى جاء عصر عثمان بن عفان، وعلمت أن الخليفة قد أذن لواليه على الشام «معاوية بن أبي سفيان» بركوب البحر وغزو قبرص. فتذكرت رؤيا رسول الله ﷺ في بيتها وبشراه لها بأنها ستكون من الأولين. فأصرَّت أن تخرج مع زوجها عبادة بن الصامت في هذه الغزوة.

وركبت أم حرام البحر مع زوجها وعدد من الصحابة تحت قيادة معاوية بن أبي سفيان، وتم غزو قبرص. ولما نزلت القوات على شاطئ الجزيرة قُدمت لأم حرام دابة لتركبها، غير أن الدابة هاجت واضطربت فسقطت أم حرام من فوقها، فوكزتها الدابة في عنقها لتُسلم روحها الطاهرة وتصعد لبارئها، وتتحقق نبوءة رسول الله ﷺ.

قبر المرأة الصالحة

هكذا سقطت أم حرام شهيدةً لتكون أول شهيدة غزوة بحرية في تاريخ الإسلام، ودُفِنَتْ بقبرِ ص. وقبرها ما يزال قائماً وشاهداً ويُدعى «قبر المرأة الصالحة».

وقد كان ذلك في سنة سبع وعشرين للهجرة.

أم سليم

والآن أعزائي فلنعش اللحظات التالية مع الأخت الثانية في هذه العائلة المباركة؛ فهي امرأة عاقلة، خاشعة، صابرة، بشرها رسول الله ﷺ بالجنة.. إنها «الغميصاء بنت ملحان» والمكناة بأم سليم.

إسلامها

كانت أم سليم قد تزوجت من «مالك بن النضر»، وكان يحبها حباً شديداً، وكان أهل يثرب يغبطونه على رجاحة عقل وحسن تصرف زوجته. وقد رزقهما الله ابنهما «أنس بن مالك» خادم رسول الله ﷺ. ولما أهل الإسلام بنوره على الأرض، فما أن عُرض على أم سليم حتى كانت من

المسارعات في الدخول في دين الله مع باقي أفراد عائلتها. وكان زوجها «مالك بن النضر» غائبًا عن المدينة فلما عاد قابلته الزوجة بالترحاب وعرضت عليه الإسلام أملًا أن يشرح الله صدر زوجها الحبيب إلى الإسلام وينعم البيت بالأمن والأمان.

لا تُفسدي عليَّ ابني

لكن زوجها غضب غضبًا شديدًا على تركها لدين آبائها، وطلب منها أن تترك دينها وتبقى على دين الآباء والأجداد، فأبت وظلت تدعوه بكل ما أوتيت من عقل وحكمة، ولكن بلا طائل فظل على دينه ولم ينشرح صدره للإسلام.

فاتجهت أم سليم إلى ابنها «أنس بن مالك» الذي كان لم يبلغ الخُلم دون العاشرة من عمره، فجعلت تُلقِّنه الشهادة وتُعلمه دين الإسلام فيقول لها أبوه: لا تُفسدي عليَّ ابني. فتقول: لا والله، إني لا أفسده.

ولما احتدم الخلاف بينهما خرج مالك من البيت مُغاضبًا، فلقيه عدو له فقتله. فصبرت أم سليم واحتسبت وأخذت على نفسها عهدًا أن تُفرِّغ جهدها لتربية ولدها، ولا تُفكر في أمر الزواج حتى يشبَّ ابنها ويبلغ الرجال ويكون هو وليها الذي يأذن لها بالزواج.

أنس خادمًا لرسول الله ﷺ

وظلت أم سُليم على هذا الحال، ولا شاغل لها إلا تربية ابنها على الدين القويم، وغرس حب رسول الله ﷺ في قلبه. ويهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة لتكتحل عينا أم سُليم وولدها برؤية رسول الله ﷺ الذي طال اشتياقهما لرؤياه. وما أن استقر رسول الله ﷺ بالمدينة حتى جاءته أم سُليم بولدها وقالت: يا رسول الله، هذا أنيس ابني أتيته به ليعلمك، فتقبَّله رسول ﷺ بقبول حسن، وكان يُعامله معاملة حسنة.

ومنذ ذلك الوقت عُرف «أنس بن مالك» بخادم رسول الله ﷺ.

* للاستزادة من حياة «أنس بن مالك» ارجع إلى الجزء الثالث «حياة الصحب الكرام» للمؤلف.

الأكرم مهرًا

وما إن شاع في المدينة ترمل أم سُليم بعد مقتل زوجها - مالك بن النضر - حتى تشوَّق كثير من الرجال إلى الزواج منها، إلا أنهم كانوا يخشون أن تردَّهم لما بينهم وبينها من اختلاف في العقيدة.

غير أن «زيد بن سهل» المكنى بأبي طلحة طمع في رضاها وقبولها أن يكون لها زوجًا. فتقدم إليها خاطبًا وعرض عليها مهرًا غاليًا من الذهب والفضة.

فقلت له: «ما مثلك يُرَدُّ يا أبا طلحة، ولكنك امرؤ كافر وأنا امرأة مسلمة، ولا يحل لي أن أتزوجك. فإن تُسَلِّم فذاك مهري، ولا أريد منك ذهباً ولا فضة».

أبو طلحة مسلماً

فقال لها أبو طلحة: فمن لي بذلك. فقلت: لك بذلك رسول الله. فانطلق يريد النبي ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ وكان جالساً في أصحابه فقال: «جاءكم أبو طلحة وغرّة الإسلام بين عينيه» - أي: نور الإسلام مُشرق بين عينيه -، فلما جاء إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما قالت أم سليم وأسلم بين يديه.

وعاد إلى أم سليم وقال لها: أنا على ما أنت عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. فالتفتت أم سليم إلى ابنها أنس، وهي تقول بسعادة بالغة - أن هدى الله أبا طلحة على يديها-: قم يا أنس فزوج أبا طلحة، فزوجها وكان صداقها الإسلام، وتمّ الزواج المبارك.

فكان الناس يقولون: ما سمعنا بامرأة قط كانت أكرم مهراً من أم سليم، كان مهرها الإسلام.

أبو طلحة وأم سليم

وهكذا أسلم أبو طلحة وكان من طلائع أهل المدينة الذين استجابوا لله ورسوله. وعكف على تعلم القرآن والتفقه في الدين. وكان حليماً كريماً يألف الناس ويألفونه.

وتعيش أم سليم في كنف هذا الزوج المؤمن المحب لها ولابنها. وكانت هي مثال الزوجة الصالحة التي تقوم بحقوق الزوج أحسن قيام.

أبو عمير

وينعم أبو طلحة لهذه الحياة الزوجية السعيدة مع أم سليم، ثم زادت سعادته لما وضعت له ولدًا يُكنى «أبا عمير». وكان رسول الله ﷺ إذا زار أم سليم يلاعبه ويضحكه، وكان له طائر نُغير - أي: طائر صغير - يلعب به فمات الطائر منه فحزن حزناً شديداً، فدخل النبي ﷺ بيت أمه يوماً فوجده حزيناً فأخبر ﷺ بموت طائره. فأخذ رسول الله ﷺ يداعبه ليُدخل الفرحه على قلبه وكان كثيراً ما يقول له مُداعباً: «يا أبا عمير ما فعل النُغير؟». فيقص عليه خبره بأسلوبه الطفولي المضحك.

وكان رسول الرحمة ﷺ يحب الأطفال ويلاعبهم، ويضحكهم ويرشدهم

إلى ما فيه خيرهم بالأسلوب الذي يفهمونه، فكان صلى الله عليه وسلم نعمَ المرَبِّ الودود للكبار والصغار.

نعم الزوجة الصالحة

و شاء الله - سبحانه - أن يمتحن أم سليم وزوجها بهذا الطفل الجميل، فمرض مرضاً شديداً فأخذت أم سليم تُعَلِّله وتداويه. وكان أبو طلحة يتأهب لسفر من أسفاره، فجزع على ابنه جزعاً شديداً كاد يصرفه عن سفره. وكانت أم سليم تُشفق على زوجها، فكلما سأل عن الطفل فلا تُهَوِّل له الأمر ولكن تُعبِّر عن وصف حالته بما يُطمئنه ويُهَوِّن عليه ويُطيب نفسه. فخرج أبو طلحة إلى مقصده، وفي غيبته توفي الغلام، ثم ووري الثرى. فقالت أم سليم لأهلها: «لا تُخبروا أبا طلحة بموت ابنه حتى أخبره أنا».

ويعود أبو طلحة من سفره فتلقته أم سليم هاشةً مُستبشرة، رَغَم ما بها من حزن وألم لفقدان ولدها، فبادرها زوجها بالسؤال عن ولده فقالت: «دعه فإنه الآن أسكن ما عرفته، وأهدأ ما يكون»، فقربت إليه عشاءً، فأكل وشرب، ثم تصنَّعت له أحسن ما كانت تصنعُ قبل ذلك، فوقع بها. فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها، قالت: يا أبا طلحة! أرايت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيتٍ، فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا.

قالت: فاحتسبُ ابنك عند الله، إن الله أسترده وديعته.
فتلقى أبو طلحة قضاء الله بالرضا والتسليم. فنعمة الزوجة كانت أم سليم.

همسة إلى أخواتي المؤمنات

ولعليّ هنا أهدي هذا الموقف من الصحابية الجليلة «أم سليم» إلى أخواتي المؤمنات، ليتعلمن منها كيف تكون الزوجة سكيناً لزوجها، تُهون عليه المصائب والشدائد، وألا تكون هي مصدر همٍّ وغمٍّ لهذا الزوج الذي يعود إلى منزله بعد عناء يوم طويل أملاً أن يجد الراحة والسكون. فيجد قائمة طويلة من المشاكل تنتظره متى وطئت قدماه المنزل تقدمها له الزوجة.

فيا أيتها الأخت المؤمنة، اجعلي بيتك ملاذاً آمناً لزوجك يجد فيه الراحة والهدوء والسكينة. فتتالي رضا الله في الدنيا والآخرة. وتكوني ممن قال الله

- سبحانه - فيهم: { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا

إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [الروم:

[٢١].

الله يُعوضهما خيراً

فلما أصبح غدا أبو طلحة على رسول الله ﷺ وحدثه بما كان من أم سليم؛

فدعا له رسول الله ﷺ ولزوجته بأن يُعوضهما الله خيراً مما فقدا، وأن يُبارك لهما في العوض.

فاستجاب الله - سبحانه - لدعاء نبيه ﷺ، وحملت أم سليم. ولما أتمت حملها وكانت عائدة إلى المدينة من سفر هي وزوجها مع رسول الله ﷺ. فلما دنوا من المدينة جاءها المخاض فتوقف أبو طلحة وزوجه ومضى رسول الله ﷺ يريد دخول المدينة قبل أن يجن الليل. فرفع أبو طلحة يده إلى السماء وقال: إنك لتعلم يا رب أنه يُعجبني أن أخرج مع نبيك إذا خرج، وأن أدخل معه إذا دخل، وقد منعتني من ذلك ما ترى.

فقالت أم سليم: يا أبا طلحة إني والله لا أجد من أم المخاض لهذا المولود ما كنت أجد من قبل، فانطلق بنا ولا تتأخر عن صحبة رسول الله ﷺ، فانطلقا حتى إذا بلغا المدينة وضعت حملها. فإذا هو غلام فقالت لمن حولها: لا يرضعه أحد حتى تذهبوا به إلى رسول الله ﷺ.

فلما أصبح حمله أخوه «أنس بن مالك» إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه ﷺ قال: «لعل أم سليم ولدت»، فقال أنس: نعم يا رسول الله، ووضع الغلام في حجره. فدعا ﷺ بعجوة من عجوة المدينة ولاكها في فمه الشريف ووضعها في فم الصبي ثم مسح وجهه بيده الشريفة وسماه «عبدالله».

وعاش «عبد الله بن أبي طلحة» وكبر ليصبح ما في المدينة من شاب أفضل

منه صلاحًا وتُقى. وجاء من صلبه عشرة كلهم فقهاء وحُفَظاء ومن علماء الإسلام الأَخيار.
هكذا عَوَّض اللهُ أم سُلَيم وزوجها خيرًا مما فقدا.

فضائلها ومناقبها

لقد كان لأم سُلَيم العديد من المناقب والفضائل، نذكر منها:

١ - حبها لرسول الله ﷺ

لقد أَحَبَّتْ أم سُلَيم رسول الله ﷺ حُبًّا جَمًّا قد يعجز اللسان والقلم عن وصفه أو التعبير عنه.

ومن شواهد هذا الحبّ:

* ما كان من أم سُلَيم لما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة فأعطته ابنها «أنس بن مالك» ليكون خادمًا له - كما أسلفنا -.

* كانت أم سُلَيم تضع عرق رسول الله ﷺ على العطر ليزيده طيبًا، يقول أنس بن مالك: دخل علينا رسول الله ﷺ فقال -أي: نام القيلولة - عندنا، فعرق فجاءت أمي بقارورة فجعلت تَسْلُتُ العَرَقَ فيها. فاستيقظ رسول الله ﷺ فقال: «يا أم سُلَيم ماذا تصنعين؟». فقالت: «هذا عرقك نجعله في طيبنا، وهو من أطيب الطيب».

* كان لابنها أنس ذؤابة - أي: خصلة من الشعر في مقدمة الرأس - تتمايل على جبينه، فأراد زوجها أن يقصّها له بعد أن طالت، فأبت ذلك؛ لأن النبي ﷺ كان كلما أقبل عليه أنس مسح رأسه بيده الشريفة ومسّ ذؤابته المدلاة على جبينه.

* عندما أعرس رسول الله ﷺ بزَيْنَب بنت جحش صنعت أم سليم له طعامًا من تمر وسمن وبعثت به مع ابنها «أنس بن مالك» إلى رسول الله ﷺ فأكل منه وأكل عددًا كبيرًا من الناس أيضًا.

٢ - حبّ رسول الله ﷺ لها

كما أحبته أم سليم، كان رسول الله ﷺ يُبادل أم سليم، وكل أفراد عائلتها حبًّا بحبّ. فقد كان كثيرًا ما يزورهم وينام القيلولة عندهم - كما أسلفنا - ويدعو لهم بالخير.

فعن أنس بن مالك قال: دخل النبي ﷺ على أم سليم فأتته بتمر وسمن. فقال: «أعيدوا سمنكم في سقائه وتمركم في وعائه، فإني صائم»، ثم قام إلى ناحية من البيت فصلّى غير المكتوبة، ثم دعا لأم سليم وأهل بيتها. فقالت: يا رسول الله، خادمك أنس ادعُ له فقال ﷺ: «اللهم ارزقه مالاً وولدًا وبارك له»، فكان أنس كثير المال، كثير العيال ببركة دعاء رسول الله ﷺ.

٣ - جهادها في سبيل الله

لقد كان لأم سليم دور عظيم في الجهاد في سبيل الله، ومن شواهد ذلك:

* كانت تخرج مع زوجها في الغزوات تداوي الجرحى وتسقي العطشى.

* في غزوة أحد، كانت هي وزوجها أبو طلحة مع رسول الله ﷺ ودأبت هي وأم المؤمنين عائشة على نقل قِرب الماء على ظهرهما وإفراغها في أفواه العطشى من القوم.

* في يوم حنين، كانت هي وزوجها ممن ثبتوا حول رسول الله ﷺ، وكان معها خنجر تدافع به عن نفسها. فلما رآها زوجها «أبو طلحة»، قال: يا رسول الله هذه أم سليم ومعها خنجر. فقال لها رسول الله ﷺ: «ما هذا يا أم سليم؟» قالت: خنجر اتخذته حتى إذا دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه. فتبسم رسول الله ﷺ من قولها.

٤ - بشرى بالجنة

وتأتي المنقبة العظمى لأم سليم والبشرى بالجنة من فم الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى.. يقول رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة فسمعت خشفة -أي: صوت حركة مشي- فقلت من هذا؟ قالوا: هذه الغميصاء بنت ملحان، أم أنس بن مالك».

الفصل الأخير

وعاشت أم سُليم ما قُدِّر لها أن تعيش، صائمةً، قائمةً، تُحِبُّ رسول الله ﷺ وتجاهد في سبيل الله، مُجَبَّةً لزوجها مُحْلِصَةً له. حتى نامت على فراش الموت لتلقى ربها راضية مرضية.

فرحمة الله وبركاته عليكم آلِ مِلْحَانَ:

حرام بن مِلْحَانَ، سُليم بن مِلْحَانَ.

أم حرام بنت مِلْحَانَ، أم سُليم «الغُمَيْصَاء» بنت مِلْحَانَ

ورضى الله عنكم وأرضاكم؛ فإن موعدكم الجنة.

حليمة السعدية رضي الله عنها

والآن أعزائي فلنقض هذه اللحظات مع نسيمات من عبير هذه الزهرة من أزاهير الصحبة العطرة.

إنها العزيزة على قلب كل مؤمن، فمن لبنها نبت خير خلق الله صلى الله عليه وسلم، وعلى صدرها المفعم بالمحبة غفا، وفي حجرها المملوء حناناً درج، ومن فصاحتها وفصاحة قومها «بني سعد» نهل.

إنها أم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرضاع «حليمة السعدية» رضي الله عنها.

مراضع رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواضنه

لقد نال شرف إرضاع النبي صلى الله عليه وسلم بعد أمه آمنة بنت وهب «ثوية» جارية أبي لهب. وكانت بركة «أم أيمن» حاضنته وهو في بيت آمنة، وظلت حاضنته بعد وفاتها.

إلا أن أشهر من أرضعته هي «حليمة بنت أبي ذؤيب» من قبيلة بني سعد، والمعروفة بـ «حليمة السعدية».

حليمة أمَّا لرسول الله ﷺ

ولنبداً القصة من أولها، وكيف نالت حليمة السعدية هذا الشرف الذي لا يدانيه شرفاً لتصبح أمًّا في الرضاع لأكرم وأطهر وأشرف خلق الله، سيد ولد آدم، سيدنا محمد رسول الله ﷺ.

البحث عن رضيع له شأن

كان من عادة أشرف مكة أن يلتمسوا المراضع لأولادهم، ابتعاداً بهم عن أمراض الحواضر ولتقوى أجسامهم. وكانت «حليمة السعدية» قد قدمت إلى مكة في عشر نسوة من بني سعد يلتمسن بها الرضعاء. وكان عام جذب وجفاف، وقد جاءت على ناقة ضعيفة مُسِنَّةً ومعها زوجها وصبي لها، قد لا يجد في ثديها قطرة لبن فكان يبكي من الجوع.

وتصل حليمة إلى مكة متأخرة لأنهم أبطأوا الركب بسبب هُزال الناقة. وكل واحدة من صويجاتها تبحث عن رضيع له شأن، فما منهن إلا وعُرِضَ عليها رسول الله ﷺ، فتركه إذا علمت أنه يتيم وتقول: ما عسى أن تنفعنا أم صبي لا أب له؟ وما عسى أن يصنع لنا جده؟ فلما وصلت حليمة كانت

كل امرأة قد ظفرت بواحد من الرضعاء وهي فريحة مستبشرة بأن نالت رضيعاً له شأن، ولم يبق إلا هذا اليتيم مولود عبد المطلب. وهن لا يعلمن أنهن تركزن من هو أعظم شأنًا، وأكبر قدرًا، وأعز مقامًا، ورحمة الله للعالمين ﷺ.

تحمل خير الدنيا والآخرة

وكادت حليلة أن تتركه هي الأخرى كما فعلت صويجاتها، إلا أنها قالت لزوجها «الحارث بن عبد العزى»: والله إني لأكره أن أرجع بين صواحيبي وليس معي رضيع، والله لأنطلقنَّ إلى ذلك اليتيم ولأخذنه. فذهبت لتحمله، وما أن وقعت عيناها على هذا اليتيم إلا وقد امتلأ قلبها حبًا له. وهي لا تعلم أنها تحمل خير الدنيا والآخرة. وأن هذا الطفل اليتيم هو رحمة الله للعالمين.

الرحمات تنزل على حليلة

فما أن حملته إلا وبدأت الرحمات تنزل عليها.

* فامتلاً ثديها الجاف بلبن غزير، فشرب رسول الله ﷺ حتى روي،

وأرادت أن تعطيه ثديها الآخر فرفض، وكأنه يريد أن يدخره لأخيه «عبد الله» فشرب هو الآخر حتى روي.

* وإذا بالناقة المُسننة العجفاء وقد امتلأ ضرعها، فحلب زوجها وشرب هو وزوجته حتى ارتويا.

* وفي طريق عودتهم إذا بالناقة المُسننة تجري وتسبق من خرجوا قبلها، وإذا صواحبه يتعجبون ويقولون: ويحك يا بنت أبي ذؤيب، أهذه ناقتك التي خرجت عليها معنا؟ فتقول: بلى والله إنها هي. فيقولن: والله إن لها لشأنا. وتصل حليلة زوجها إلى بني سعد والرحمات ما تزال تنزل عليهما.

* تروي لنا حليلة بعضاً من بركات رسول الله ﷺ عليها فتقول: «كانت غنمي تسرح وتروح شباعاً فتحلب لنا لبناً ما شئنا، وما حولنا أحدٌ يجلب قطرة لبن، وإن أغنامهم لتروح جياغاً، حتى إنهم يقولون لرعاتهم: ويحكم، انظروا حيث تسرح غنم بنت أبي ذؤيب فاسرحوا معهم، فيسرحون مع غنمي؛ حيث تسرح، فتروح أغنامهم جياغاً وتروح أغنامي شباعاً».

التمسك بالرحمة المهداة

ويظل رسول الله ﷺ في بني سعد، وكان يشبّ شاباً لا يشبه الغلمان حتى

أتم ستين وكان ميعاد فطامه وعودته إلى أمه.
ولكن هل يُفَرِّط في مثل هذه البركة وهذا الخير؟، فذهبت حليلة إلى أمه وهي أحرص الناس على مُكثه فيهم. فكلمت أمه وقالت: ليتك تتركين ابني عندي حتى يزداد قوة، فإني أخشى عليه وباء مكة. ولم تنزل بها تُقنعها وتُربغها حتى وافقت، وردَّته معها فرجعت به فرحة مُستبشرة.

إخوة رسول الله ﷺ في الرضاع

ويعيش رسول الله ﷺ، في بني سعد، ينعم بحنان أمه حليلة، ويلعب مع إخوته في الرضاع وهم:
«عبد الله بن الحارث»، و«أنيسة بنت الحارث»، و«حُذافة بنت الحارث»، وهي «الشيءاء» وقد غلب ذلك على اسمها فلا تُعرَف إلا به.

حادثة شق الصدر

وظلت حليلة وزوجها يسعدان بهذا الغلام المبارك حتى وقع أمرٌ أفزع الجميع..
فلقد خرج رسول الله ﷺ، مع أخيه «عبد الله» في غنمات يرعيها خلف

بيتهم، فما هو إلا قليل حتى أقبل عبد الله مُسرَّعًا فزعًا ويقول لو الديه: أخي محمد القرشي قُتِلَ، أخذاه رجلان عليها ثياب بيض فأضجعاه وشقا بطنه. فخرجت حليلة وزوجها مُسرعين نحوه فوجداه مُمتقع اللون مُرتجفًا، فضمته حليلة إلى صدرها، وقالت: ما لك يا بُني؟ فقال «جاءني رجلان عليها ثياب بيض فأضجعاني وشقا صدري، ثم استخرجا منه شيئًا فطرحاه ومضيا».

القرار الأصعب وألم الفراق

ألقت هذه الحادثة بظلالها على حليلة وزوجها، فبعد أن أخذاه وعادا إلى بيتها قال زوجها: يا حليلة، لقد خشيت أن يكون الغلام أصابه الجن فانطلق بنا نردُّه إلى أمه. وتقاوم حليلة مشاعرهما، فرغم صعوبة القرار وآلام الفراق، توافق زوجها على عودة الابن الحبيب إلى أمه. فاحتملا الغلام، وأتى به إلى أمه في مكة، فما أن رأيتها حتى حدَّقت في وجه ولدها وقالت: ما أقدمك بمحمد يا حليلة وكنت شديدة الرغبة في مكثه عندك؟ قالت: لقد قوي عوده واكتملت فتوته، وقضيت الذي عليَّ نحوه، وتحوَّفت عليه من الأحداث فأدَّيته إليك. فقالت: اصدقيني الخبر فما أنت

بالتى ترغب عن الصبي لهذا الذى ذكرته. ثم ما زالت تلح عليها حتى أخبرتها بما حدث.

ما للشيطان عليه من سبيل

فقلت: وهل تخوفت عليه من الشيطان يا حليلة؟ قلت: نعم. قلت: كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لابني هذا شأنًا. فدعني عنك وانطلقى راشدة.

فانصرفت حليلة وزوجها، وقد امتلأ قلبها حُزنًا وأسى على فراق ابنها الحبيب، ولم يكن غلامها «عبد الله» بأقل حُزنًا وأسى ولوعة على فراق أخيه.

حب ووفاء

ويعيش رسول الله ﷺ ويشد عوده، وتمر الأيام ويتزوج من خديجة، وتأتيه حليلة تشكو الجذب وهلاك الزرع. فما أن أخبر رسول الله ﷺ خديجة التي كانت قد أحببت قبل أن تراها من كثرة حديث رسول الله ﷺ الدائم عنها وعن حنانها وعطفها عليه. حتى قامت خديجة وأعطتها أربعين شاة وبعيرًا،

فانصرفت حليلة فرحة مُستبشرة.

وعاشت حليلة حتى رأت ابنها ذلك اليتيم الذي أرضعته غدا للعرب سيِّداً، وللإنسانية مُرشداً، وللبشرية رسولاً. وفي يوم من الأيام تذهب حليلة إلى رسول الله ﷺ وقد آمنت به وصدّقت بالكتاب الذي أنزل عليه. فما أن رآها حتى استطار فرحاً وسروراً، ثم خلع رداءه وبسّطه لها لتجلس عليه، وأكرم وفادتها وأبلغ الإكرام وسط تعجّب بعض الصحابة الذين لا يعرفونها، فيقول لهم: «إنها أُمِّي التي أرضعتني».

وهكذا كان وفاء سيد الأوفياء الحبيب المصطفى ﷺ لحليمة وحبّه لها، وتقديره لأمّه الرحيمة الحليلة؛ «حليمة السعدية».

الفصل الأخير

وتعيش حليلة ما قُدِّر لها أن تعيش. وبعد حياة طويلة تنام على فراش الموت، لتلقى بارئها راضية مرضية.

فرحمة الله وبركاته عليك يا أم رسول الله ﷺ

يا من نبت رسول الله ﷺ من لبنك

ورضى الله عنك وأرضاك يا «حليمة السعدية».

أم أيمن رضي الله عنها

والآن أعزائي فلنعش اللحظات التالية مع هذه الزهرة ذات العبير الخاص.
إنها حاضنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانت له أمًّا بعد أمه.

فقد عاشت مراحل النبوة كلها منذ يوم مولده حتى وفاته صلى الله عليه وسلم بكل ما فيها
من جراح وأفراح. إنها زوجة حبِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم «زيد بن حارثة»، وأمَّ
الحبِّ بن الحبِّ «أسامة بن زيد».

إنها أم أيمن «بركة» رضي الله عنها.

نسبها ونشأتها

هي: بركة بنت ثعلبة بن عمرو بن حصن، والمعروفة بأم أيمن الحبشية.
وقعت أسيرة في السبي الذي كان في جيش أبرهة «صاحب الفيل» بعد
انهزامهم، فأخذها عبدالمطلب «جدُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم» فكانت عنده وصيفة ثم
وهبها لابنه عبد الله «والد رسول الله صلى الله عليه وسلم»، ثم ورثها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن
أبيه.

حاضنة رسول الله ﷺ

لما مات عبد الله «والد رسول الله ﷺ» ظلت أم أيمن مع أمّنة بنت وهب «أم رسول الله ﷺ» خادمة مخلصه لها. فلما كان ميلاد النبي ﷺ كانت أم أيمن حاضنته، وهو في بيت أمه، فشملته بحبّها وعطفها خاصّة وأنه كان يتيم الأب؛ فقد مات أبوه وهو مازال في بطن أمه.

أمي بعد أمي

وتخرج أمّنة بنت وهب مع ولدها اليتيم وخادمتها أم أيمن من مكة إلى يثرب لتزور قبر زوجها، ومكثت هناك شهرًا في ضيافة أخواله من بني النجار.

وفي طريق عودتها ألحَّ عليها المرض، وماتت بالأبواء وهي قرية بين مكة ويثرب، وهي إلى يثرب أقرب. وفي هذا الموقف الأليم برزت أم أيمن لتحتضن هذا الطفل الذي أصبح يتيم الأب والأم وهو داعم العينين باكي القلب. تلقّته «أم أيمن» ليس فقط بين ذراعيها، لكن بكل ذرة حبّ وحنان في كيائها.

وفي سجل المودة الإنسانية الناصع تظهر أم أيمن لتسجّل أبداع الأعمال في

حضانة النبي ﷺ وعنايتها الفائقة به. وكان طفلاً لم يبلغ السادسة من عمره، لتكون كما قال عنها رسول الله ﷺ حقاً: «هي أُمِّي بعد أُمِّي».

بقية أهل بيتي

وتعود أم أيمن بالطفل اليتيم الذي أثقلته الأحزان، وقد غمرته بحنانها وعطفها عليه، تعود به إلى مكة ليكون في رعاية جده «عبد المطلب» الذي غمره هو الآخر بحبه وعطفه وأغرم به غراماً شديداً.

ولما مات عبد المطلب انتقل رسول الله ﷺ إلى بيت عمه أبي طالب وزوجته فاطمة بنت أسد ليجد منها العطف والحنان.

أما أم أيمن فكانت معه في تلك المرحلة من حياته وهي فترة شديدة الحساسية، لها متطلباتها ولها ظروفها ولها متاعبها. فما قصرت ولا تهاونت. وقد زرع الله - سبحانه - في قلبها الكبير ما يُشبه عاطفة وحنان الأمومة نحو هذا الطفل اليتيم.

وكان رسول الله ﷺ من ناحيته يأنس إلى ذلك ويستريح فكان يناديها بقوله: «يا أُمَّهُ»، وهو شرف لم تناله أيًا من النساء اللاتي كان لهن شرف رعايته في يَتْمِهِ وصِغَرِهِ.

فكان رسول الله ﷺ إذا نظر إليها يقول: «هذه بقية أهل بيتي»، وأهل بيته الذين يعينهم ﷺ هم: والده الذي لم يره، وأمه آمنة وبركة. ولم يبقَ له منهم سوى بركة «أم أيمن» التي رافقته طفلاً، وعاشته شاباً، وآمنت به رسولاً ونبياً. وكانت في كل هذه المراحل نِعَمَ الحاضنة ونِعَمَ الأم.

في بيت خديجة.. النبي ﷺ يعتقها

وتظل أم أيمن ترعى رسول الله ﷺ رعاية الأم لولدها في طفولته وصباه وشبابه لا تفارقه أبداً.

فلما تزوج رسول الله ﷺ من خديجة، وأصبح مستقلاً بأمره والإنفاق على نفسه، آوى إليه بركة «أم أيمن» وأعتقها من غير استغناء ومن غير انقطاع لتكون حُرَّةً مستقلةً، وتأخذ سبيل الحياة الأُسْرِيَّةَ بالزواج فيكون لها زوج وأسرة. ولكنها ما تزال في رعاية رسول الله ﷺ كما كانت ترعاه في طفولته.

فما لبثت أن تزوجت من «عبيد بن الحارث الخزرجي» الذي كان رجلاً من أهل يثرب وفد إلى مكة راغباً في الزواج من أهل الحرم. فكانت بركة هي الزوجة. وبارك رسول الله ﷺ هذا الزواج وأيده وفرح به. ثم حملت بركة ووضعت ابنها «أيمن»، وهو الذي أصبحت تُكْنَى به «أم أيمن». ولكن

الحياة لم تطل بزوجها «عبيد بن الحارث» فتوفّي عنها.

إسلامها

وتشرق الأرض بنور الإسلام، فلم تتأخر «أم أيمن» عن الاستجابة لدعوة الحق، وتكون من السابقين الأولين في الإسلام. فقد آمنت مع أهل بيت رسول الله ﷺ؛ خديجة، وعليّ وزيد بن حارثة.

امرأة من أهل الجنة

وكان رسول الله ﷺ كثيرًا ما يزور أم أيمن فيرى على وجهها مسحة من الحزن والكآبة ولكنها كانت تداري ذلك. وفي ذات يوم وقد ضمّه مجلس من الصحابة إثر عودته من عندها، وكانت قد وفّت عِدّتها بعد وفاة زوجها «عبيد بن الحارث»، فقال ﷺ: «مَنْ سرّه أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن». فكان هذا الترغيب في الزواج من امرأة من أهل الجنة، ومن فم رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى؛ كان مدعاةً لإقبال وتنافس من السامعين والحاضرين. ولقد كان أول المستجيبين هو «زيد بن حارثة» فتزوجها وبارك رسول الله ﷺ هذا الزواج. فحملت من زيد

ووضعت له مولودًا هو «أسامة بن زيد».

فضائلها ومناقبها

١ - حبّها لرسول الله ﷺ وحبّ رسول الله ﷺ لها

لقد تبوّأت «أم أيمن» مكانة عظيمة في قلب رسول الله ﷺ، فلم ينس أبدًا أنها كانت أمّه بعد أمّه، وأنها كانت تُؤثره على نفسها، وتشمله بعطفها وحنانها - كما أسلفنا -.

فكان لها هذا الشرف الذي لا يدانيه شرف، وهذه المكانة التي لا تُعدها مكانة في قلب رسول الله ﷺ.

وهاك بعض الشواهد:

* كانت المرأة الوحيدة التي لقبها رسول الله ﷺ بأمي وكان يناديها: «يا أمّه»، ويقول عنها: «هي أمي بعد أمي»، وقال عنها: «هي بقية أهل بيتي» - كما أسلفنا -.

* كان رسول الله ﷺ لا ينقطع عن زيارتها ورعايتها، وقال: «من سرّه أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن» - كما أسلفنا -.

* كان عطاء رسول الله ﷺ لها بلا حدود.

يقول أنس بن مالك: كان الرجل من الأنصار يجعل للنبي ﷺ النخلات، حتى فُتِحَتْ عليه قُرَيْظَة والنضير، فجعل يرد بعد ذلك -أي: يرد على هؤلاء ما قد خصَّصُوا له-، فكلمني أهلي أن أسأله الذي أعطوه أو بعضه، وكان النبي ﷺ أعطاه أم أيمن. فأتيت النبي ﷺ فأعطانيه، فجاءت أم أيمن فجعلت تلوح بالثوب، وتقول: كلا والله لا يعطيكهن وقد أعطينهن. فقال لها رسول الله ﷺ: «يا أم أيمن اتركيه ولكِ كذا وكذا»، وتقول: كلا. والذي لا إله إلا هو جعل يقول: كذا وكذا، حتى أعطها عشرة أمثاله.

* كان رسول الله ﷺ يحب أم أيمن وذريتها الذين رأهم - أيمن وأسامة - والذين لم يرهم.

يقول حرملة مولى أسامة بن زيد: بينما أنا وعبد الله بن عمر إذ دخل الحجاج بن أيمن فصلِّي ولم يُتِمَّ ركوعه ولا سجوده. فقال له ابن عمر: أعد، فلما ولى قال لي ابن عمر: من هذا؟ قلت: الحجاج بن أيمن ابن أم أيمن. فقال ابن عمر: لو رآه رسول الله ﷺ لأحبه. فذكر حبه ﷺ لأم أيمن وزوجها وذريتها.

تفرح لفرح رسول الله ﷺ وتحزن لحزنه

كانت أم أيمن تفرح بأيّ شيء يُدخِل السعادة والبهجة على قلب رسول الله ﷺ، وتحزن إذا ما حدث شيء يُدخِل الحزن على قلبه.

ومن شواهد ذلك:

- * فيها هي تشارك رسول الله ﷺ فرحته بزواج عليّ وفاطمة، فتقوم مع أسماء بنت عميس بتجهيز فاطمة لزوجها عليّ.
- * عند وفاة زينب بنت رسول الله ﷺ قامت بالمساعدة في الغُسل والتكفين، وقد امتلأ قلبها حزناً لفراقها ولحزن رسول الله ﷺ عليها.
- * في حادثة الإفك قامت لتدافع عن أم المؤمنين «عائشة».

٢- البركات تنزل على «بركة»

إن الله - سبحانه - يصطفي من عباده الأخيار من يختصهم بكرامات قد يعجز العقل عن تصورهما، ويعجز القلم عن وصفها. ولكنه فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده.

وقد حدث لأم أيمن كرامة من هذه الكرامات، وهي في طريق هجرتها من

مكة إلى المدينة.

يقول عثمان بن القاسم: «لما هاجرت أم أيمن، أمست بالمنصرف دون الروحاء - مكانين بين مكة والمدينة - فعطشت وليس معها ماء، وهي صائمة وجهدت، فدُلِّيَ عليها من السماء دلوٌّ فيه ماء برشاء -أي: بحبل- أبيض فأخذته فشربت منه حتى رويت. فكانت تقول: ما أصابني بعد ذلك عطشٌ، ولقد تعرَّضتُ للعطش بالصوم في الهواجر فما عطشتُ». هكذا تنزلت البركات على «بركة»، وشربت من الجنة قبل أن تدخلها. نحسبها كذلك ولا نزكي على الله أحدًا.

٣ - جهادها

وكانت أم أيمن من المجاهدات الصابرات المحتسبات.

تحمُّلها أذى قريش

لاقت أم أيمن كغيرها من أوائل المؤمنين والمؤمنات من العذاب والأذى من كفار قريش ما لاقت، وهاجرت المهجرتين إلى الحبشة ثم إلى المدينة.

موقفها يوم أُحُد

خرجت أم أيمن مع من خرج من النساء في يوم أُحُد لمداوة الجرحى، وسقاية العطشى من المجاهدين. ولما دارت الدائرة على المسلمين، وقفل منهم الكثير، وانهمز البعض الآخر. فكانت أم أيمن تحثو التراب في وجوههم وتقول: هاك المغزل فاغزل به، وهَلْم سيفك، ثم اتجهت نحو رسول الله ﷺ تستطلع أخباره في نسوة معها فاطمأنت عليه، وحمدت الله.

في غزوة خيبر

خرجت أم أيمن تدور بسقائها على المقاتلين تُفرغ ما في جوفه في أفواههم، وتضمّد جراحهم.

وقد تخلف عن هذه الغزوة ابنها «أيمن» فعيرته بالجبن، وهي لا تعلم أنه لم يستطع الخروج لمرضٍ أصابه.

غزوة حُنين واستشهاد ابنها أيمن

ويوم حُنين خرجت «أم أيمن» مع ولداها: أيمن وأسامه، وكان ولداها من الذين صبروا وثبتوا حول رسول الله ﷺ، وسقط أيمن شهيدًا في هذه

المعركة. ولما نعى الناعي إلى أمّه خبر استشهاده، تلقتة بنفس راضية، وصبرت واحتسبت.

٤ - صبرها على المحن

كانت «أم أيمن» ممن ضربن أروع الأمثلة في الصبر والاحتساب:

* ففي سرية مؤتة كان زوجها «زيد بن حارثة» أميراً على جيش المسلمين، وكان أول الشهداء، وتلقت نبأ استشهاده بنفس راضية صابرة مُحْتَسِبَة.

* كذلك كان حالها يوم استشهاد ابنها «أيمن» يوم حنين - كما أسلفنا -.

* أما المصاب الأكبر والألم الأعظم هو ما أصابها يوم وفاة رسول الله ﷺ؛ فقد كان لها بمثابة الابن الأكبر، والأب والراعي، وفوق كل ذلك كان الرسول والمعلم الذي صدّقتَه وآمنت به. فكان شأنها شأن كل الصحابة من حزن وألم لا يُوصَف. ولكنها صبرت واحتسبت.

٥ - مكانتها في قلوب الصحابة

وظلت «أم أيمن» تحتل مكانة عالية في قلوب الصحابة، فكانوا يزورونها ليطمئنوا عليها.

فلما كان بعد وفاة رسول الله ﷺ، قال أبو بكر لعمر: انطلق بنا نزور أم أيمن كما كان رسول الله ﷺ يزورها. فلما دخلا عليها بكت فقالا: ما يُيكِك؟ ما عند الله خيرٌ لرسوله! قالت: أعلم أن ما عند الله خيرٌ لرسوله، ولكن أبكي لأن الوحي قد انقطع من السماء. فهَيَّجَتْهُمَا على البكاء فجعلا يبكيان معها. وظل الودَّ قائمًا بينها وبين أبي بكر وعمر، وكانت تجد فيهما بعض العزاء عن فقد رسول الله ﷺ. فلما مات أبو بكر حزنه عليه حزنًا شديدًا. ولما قُتل عمر بكت أم أيمن، وقالت: «اليوم وَهِيَ الإسلام - أي: ضعف شأنه -».

٦ - علمها وفقهها

كانت «أم أيمن» على ما كان لها من لُكْنَة أعجمية - فهي من الحبشة - إلا أنها كانت على علم وفقه بأمور الدين، فقد روت عن رسول الله ﷺ خمس أحاديث، وروى عنها أنس بن مالك، وغيره من الرواة.

الفصل الأخير

وبعد عمر طويل مليء بالأحداث والبذل والتضحية والفداء، ترقد «أم أيمن» على فراش الموت لتفيض روحها الطاهرة إلى بارئها، لتلحق بحبيبها

رسول الله ﷺ في الجنة التي وعدّها إيّاها.
وكان ذلك بعد مقتل عمر بقليل، وفي بداية خلافة عثمان بن عفان رضي الله
عنه.

فرحمة الله وبركاته عليكِ يا حاضنة رسول الله ﷺ
يا من كنتِ له أمًّا بعد أمِّه
ورضي الله عنكِ وأرضاكِ يا «أم أيمن».

صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها

ومع هذه الزهرة من أزاهير الصحبة العطرة نعيش اللحظات القادمة.
فهي عمّة خير الأنام رضي الله عنه، وأم حواريّ رسول الله صلى الله عليه وآله، وأحد العشرة
المبشرين بالجنة. إنها المرأة الشجاعة الصلبة «صفية بنت عبد المطلب» رضي الله عنها.

نسبها

هي: صفية بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب
القرشية الهاشمية.. فما أشرفه نسبًا.

فقد جمعت المجد من كل جانب:

فأبوها: عبد المطلب بن هاشم، جد النبي صلى الله عليه وآله، وزعيم قريش وسيدها
المطاع.

وأُمها: هالة بنت وهب، أخت أمّنة بنت وهب، والدة رسول الله صلى الله عليه وآله.

وزوجها الأول: الحارث بن حرب، أخو أبي سفيان بن حرب، زعيم بني
أمية، وقد تُوفّي عنها دون أن تنجب منه.

وزوجها الثاني: العوام بن خويلد، أخو خديجة بنت خويلد، سيدة نساء
العالمين وأولى أمهات المسلمين.

وشقيقتها: أسد الله وأسد رسوله «حمزة بن عبد المطلب».

وابنها: «الزبير بن العوام» حوارِيّ رسول الله ﷺ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة.

فأبّي شرف بعد هذا الشرف تطمح إليه النفوس غير شرف الإيَّمان، وقد نالته وكانت من أوائل المؤمنين بالله ورسوله.

نشأتها

لقد نشأت صفيّة في بيت عبد المطلب، وما أدراك ما عبد المطلب؟، سيّد قريش وزعيمها بلا منازع، حكيم مكة، ورأس الأمر فيها. كما اجتمعت له بالإضافة إلى كل تلك الأمجاد سقاية الحج من بئر زمزم التي قُدِّر له أن يُعيد حفرها بعد أن ردمتها الرمال والأتربة وعوامل الطبيعة.

ولقد تأثرت صفيّة بكلّ تلك العوامل، ومن خلالها تكوّنت شخصيتها القويّة النافذة. فكانت فصيحة، بليغة، قارئة، عالمة، شجاعة، فارسة تمتطي صهوة الخيل كأبرع الفرسان، وتُقاتل بالسيف والرمح كأمره الشجعان.

إسلامها

لما بعث الله نبيه ﷺ بدين الحق والهدى، وأشرقت شمس الإسلام على الجزيرة أمر الله رسوله ﷺ بدعوة قومه وعشيرته وذوي قُرباه فقال - سبحانه -: { **وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** } [الشعراء: ٢١٤].

فجمع رسول الله ﷺ بني عبد المطلب رجالهم ونساءهم، كبيرهم وصغيرهم وخاطبهم قائلاً: «يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، إني لا أملك لكم من الله شيئاً. سلوني من مالي ما شئتم». ثم دعاهم إلى الإيمان بالله والتصديق برسالته. فأقبل على دعوته منهم من أقبل، وأعرض من أعرض. أما صفية بنت عبد المطلب فكانت من السابقين للإسلام، فقدّف الله نور الحق في قلبها. وكان ابنها «الزبير بن العوام» قد سبقها للإسلام.

في رحاب الإسلام

انضمّت صفية إلى موكب النور، وعانت ما عاناه المسلمون السابقون من بأس قريش وعنتها وطغيانها. ولكنها كانت تتعايش بقلبها وجوارحها مع هذا الدين، فتراها تصوم النهار وتقوم الليل ولسانها رطب بذكر الله، بل

كانت دائماً تفكر كيف تنصّر هذا الدين؟ وماذا تقدم له؟
ولما اشتد إيداء الكفار لأصحاب رسول الله ﷺ، فخشي عليهم أن يفتنوا في دينهم؛ أذن ﷺ لهم بالهجرة إلى يثرب. وخرجت عمته «صفية بنت عبد المطلب» مع هؤلاء المهاجرين، وخلفت وراءها مكة بكل ما لها فيها من طيب الذكريات، تاركةً المال والأهل والديار راغبةً فيما عند الله.
وهناك عاشت صفية في رحاب الأنصار بعيداً عن بطش المشركين وتعتتهم.

مجاهدة من الطراز الأول

إذا أردنا وصف صفية بنت عبد المطلب في كلمات.. فهي: مجاهدة من الطراز الأول، تحمل في طياتها قلب فارس مغوار، قد يحسب لها الرجال ألف حساب.

وهاك بعض الشواهد على ذلك:

١ - تربيتها لابنها الزبير بن العوام

لقد تجلّت صفات شخصية صفية بنت عبد المطلب القوية المجاهدة الثائرة في تربيتها لابنها «الزبير بن العوام» الذي مات أبوه وتركه طفلاً صغيراً، فنشأته أمه على الخشونة والبأس، وربّته على الفروسية والحرب. فشبّ بطلاً

مغوارًا. فكان أول فارس سلَّ سيفًا في سبيل الله، وكان له من البطولات والمواقف ما سجَّلها له التاريخ في أروع صفحاته، حتى إن الفاروق عمر عدَّله بألف من الرجال.

* للاستزادة من حياة الزبير بن العوام ارجع إلى الجزء الثاني «حياة العشرة المبشرين بالجنة» للمؤلف.

٢ - يوم أُحُد... الاختبار الأصب

فلما كان يوم أُحُد، وكانت صفية بنت عبد المطلب قد بلغت الستين من عمرها، فلم يُعْفِها كِبَرُ سنِّها من تأدية ما رأته واجبًا في حماية الدين ونصرة المسلمين وقتال المشركين.

فخرجت مع جند المسلمين في ثلَّة من النساء وجعلت تنقل الماء وتروي العطاش، وتضمِّد الجراح. وكانت ترقب المعركة بكلِّ جوارحها ومشاعرها. ولا غرور فقد كان في ساحتها:

* ابن أخيها: رسول الله ﷺ.

* أخوها الشقيق: «حمزة بن عبد المطلب».

* ابنها: «الزبير بن العوام».

وقبل ذلك كله مصير الإسلام الذي اعتنقته وجاهدت وضحت من أجله.

فلما انهزم المسلمون بعد أن خالف الرماة أمرَ رسول الله ﷺ بالثبات في مواقعهم؛ سواءً أكان النصر أم كانت الهزيمة. وانفضَّ الناس من حول رسول الله ﷺ، ولم يبقَ حوله إلا نفرٌ قليل من الصحابة فأتت صفية وبيدها رُمحٌ تضرب به في وجوه المنهزمين عن رسول الله ﷺ، وتقول لهم: «انهزمتم عن رسول الله؟».

لأصبرنَّ وأحتسبنَّ

وتتعرَّض صفية إلى الاختبار الأصعب، الذي قد يكون من الصعب بل من المستحيل على أيِّ إنسان أن يتحمّله.

فلما انتهت المعركة، ورآها رسول الله ﷺ مُقبلةً خشي عليها أن ترى أخاها «حمزة» وهو صريع وقد مثَّل به المشركون أبشع تمثيل. فقال ﷺ للزبير: «القها فأرجعها حتى لا ترى ما بشقيقتها حمزة». فلقيتها الزبير وقال: يا أمَّه إن رسول الله يأمرُك أن ترجعي. فقالت: ولم؟ فقد بلغني أنه مثَّل بأخي وذلك في الله قليل، فما أرضانا بما كان من ذلك، والله لأصبرن ولأحتسبن إن شاء الله. وعاد الزبير إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما قالت صفية فقال ﷺ: «خلَّ سبيلها».

فأتت صفية إلى حيث جثمان أخيها «حمزة» فنظرت إليه، وصلت عليه، واسترجعت واستغفرت. ثم أمر رسول الله ﷺ بدفنه وبقية الشهداء. هكذا كانت قوة وصلابة وصبر واحتساب «صفية بنت عبد المطلب».

٣ - يوم الخندق .. شجاعة نادرة

ولما كان يوم الخندق، وقفت صفية بنت عبد المطلب موقفاً يُظهر شجاعة نادرة وبطولة فذة، قد لا تجدها في كثير من الرجال. فقد كان من عادة رسول الله ﷺ إذا عزم على غزوة من الغزوات أن يضع النساء والذراري في الحصون المنيعة، حتى لا يتعرَّضن لغدرٍ غادر. فلما كان يوم الخندق جعل ﷺ النساء والذراري في حصن لحسان بن ثابت، وكان من أمنع حصون المدينة، وكان من بينهم صفية بنت عبد المطلب، وقد جعلت من نفسها رقيباً يرصد من يحوم حول الحصن من الأعداء ومن يناصرهم.

وبينما صفية ترقب الحصن أبصرت شبحاً يتحرك في عتمة الفجر، فأرهفت له السمع وأحدت البصر؛ فإذا هو يهودي أقبل على الحصن وجعل يطيف به. فأدركت أنه عين لبيبي قريظة جاء ليعلم أن في الحصن رجالاً يدافعون

عمن فيه، أم أنه لا يضمُّ غير النساء والأطفال. فقالت في نفسها: إن يهود بني قريظة قد نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ من عهد، وظاهروا قريشاً وأحلافها. ولا يوجد من المسلمين أحد يدافع عنا. فرسول الله ومن معه مرابطون في نحور العدو؛ فإن استطاع هذا اليهودي أن ينقل إلى قومه حقيقة أمرنا، سبى اليهود النساء واسترقوا الذراري، وكانت الطامة الكبرى على المسلمين.

أول امرأة تقتل عدوًّا في الإسلام

فأخبرت حسان بن ثابت بذلك، وبما يجيش في نفسها نحو هذا العدو، وطلبت منه أن يخرج ليقته. فقال لها حسان: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا. - أي: ما أنا بالذي يقدر على قتله.

فما كان منها إلا أن واجهت الموقف بشجاعتها المعهودة، فبادرت إلى خمارها فلفته على رأسها، وعمدت إلى ثيابها فشدتها على وسطها، وأخذت عموداً ونزلت إلى باب الحصن، وجعلت ترقب اليهودي في يقظة وحذر، حتى إذا أيقنت أنه غدا في موقف يمكنها منه حملت عليه حملة حازمةً وضربته على

رأسه ضربةً أردته قتيلاً.

فلما علم اليهود المتربصون بالحصن بمقتل عينهم الذي أرسلوه ليستطلع الأمر، قال بعضهم لبعض: لقد علمنا أن محمداً لم يكن ليترك النساء والأطفال من غير حماة ثم عادوا أدراجهم.

هكذا استطاعت «صفية بنت عبد المطلب» بشجاعتها النادرة أن تحمي نساء وأطفال المسلمين من هلاك محقق.

٤- يوم خيبر

وظلت صفية على العهد مجاهدة صابرة، فلم تُفوت فرصة غزاة مع رسول الله ﷺ إلا غزت معه.

فلما كان يوم خيبر انطلقت مع بعض النسوة، يشدون أزر المجاهدين. فأتخذت مع رفيدة بنت كعب الأسلمية خيمة في مكان قريب من ميدان المعركة يداوين بها المصابين، وقمن على خدمتهم. لذا جعل رسول الله ﷺ لهؤلاء المجاهدات نصيباً من الغنائم تكريماً لهن.

الفصل الأخير

وتعيش صفية بنت عبد المطلب تؤدي واجبها نحو دينها في شجاعة وإقدام، حتى مات رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنها. وقد كانت أكثر الناس جزعاً وحزناً على وفاته.

وعاشت على منهج رسول الله ﷺ تسير على سُنَّته، عابدة، قائمة، صائمة، خاشعة لله. وكانت معززة مكرَّمة يعرف لها الخلفاء والصحابة قَدْرَها ومكانتها. وفي خلافة عمر بن الخطاب في سنة عشرين للهجرة، وكانت قد بلغت من العمر بضعا وسبعين سنة، ترقد صفية على فراش الموت لتصعد روحها الطاهرة إلى بارئها راضية مرضية، ودُفِنَتْ بالبقيع.

فرحمة الله وبركاته عليك يا عممة رسول الله ﷺ

يا من كنتِ مثالا للشجاعة والإقدام

ورضي الله عنك وأرضاكِ يا «صفية بنت عبد المطلب».

أسماء بنت عميس رضي الله عنها

ومن بستان الصحابيات الجليلات، نقتطف هذه الزهرة التي ملأ غيرها الدنيا. فهي الصحابية التي تزوجت ثلاثة من أهل الجنة، صاحبة الهجرتين، مثال للزوجة والأم المؤمنة المخلصة. إنها «أسماء بنت عميس» رضي الله عنها.

نسبها

هي: أسماء بنت عميس بن معد بن الحارث بن تيم بن كعب بن مالك الخثعمية.

وهي إحدى الأخوات التي قال فيهن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الأخوات المؤمنات».

فأختها لأمها: «ميمونة بنت الحارث» أم المؤمنين، و«أم الفضل» زوج العباس.

وأختها شقيقتها: سلمى بنت عميس زوج حمزة بن عبد المطلب.

زواجها من جعفر بن أبي طالب

لما تقدّم السنّ بأبي طالب، ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمّه العباس وحدثه بحال

أخيه أبي طالب وما به من قلة المال وكثرة العيال، واقترح ﷺ أن يأخذ العباس ولدًا من أولاد أبي طالب ورسول الله ﷺ ولدًا، ينفق عليه ويربيه؛ تخفيفًا عن أبي طالب. فاستجاب العباس لطلب ابن أخيه وكان جعفر من نصيب العباس، وعليّ من نصيب رسول الله ﷺ.

ونشأ جعفر في بيت العباس، ولما استقلَّ بحياته وراح يزاول العمل الذي يتكسَّب منه، رأى عمه العباس أن يزوجه من أسماء بنت عميس، وهي أخت زوجته «أم الفضل» لأمها - كما أسلفنا -
وتَمَّ الزواج وسعدَ كلُّ من العروسين بصاحبه.

السابقون الأولون

فلما كان نور الحق، ودعا رسول الله ﷺ الناس للإسلام كان جعفر وزوجته «أسماء بنت عميس» من أوائل الذين استجابوا، ودخلا الإسلام في وقتٍ واحدٍ. وكان ذلك قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم. فكانا بحق من السابقين الأولين.

وعاشت أسماء مع زوجها في رحاب الإيمان، وفي ظلِّ رسول الله ﷺ الذي كان يعلمهم ويهديهم إلى طريق الرشد والفلاح.

الهجرة إلى الحبشة

وتتعرّض أسماء وزوجها جعفر لأذى كفار قريش ونكالها، ويتحملا ما لا يتحمله بشر كدأب كل الأوائل من المسلمين.

فلما رأى رسول الله ﷺ ما يُصيب أصحابه من البلاء؛ فقال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها مَلِكًا لا يُظلم عنده أحدٌ، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا فيما أنتم فيه».

فخرجت أسماء مع زوجها إلى الحبشة.

في رحاب الملك العادل

وتعيش أسماء وزوجها وباقي المهاجرين في رحاب الملك العادل «النجاشي» يَنْعَمُونَ بالأمن والأمان.

ولما أرسلت قريش إليه رجلين بالهدايا ليردَّ إليهم المهاجرين ليفتنوهم في دينهم، فأبى أن يفعل ذلك إلا بعد سماع المسلمين. وكان لجعفر بن أبي طالب جهدٌ مشكورٌ في إقناع النجاشي ومن حوله من الرهبان بعد ما كلمهم بالحجَّة والبرهان عن الدين الذي جاء به رسول الله ﷺ وعرض عرضًا موجزًا بليغًا في أدبٍ جمٍّ. فقبل النجاشي دعوته وأعرض عن

مبعوثي قريش، وردَّ عليها هداياهما. وأسلم النجاشي وأسلم معه من الرهبان عددٌ كثيرٌ، وأسلم من الأحباش عددٌ غير يسير. وعاشت أسماء وزوجها عشر سنوات في الحبشة آمنين مطمئنين. وهناك ولدت لجعفر عبد الله، ومحمدًا، وعونًا.

أصحاب الهجرتين

ولما استقر الأمر للمسلمين، وبعد صلح الحديبية رأى رسول الله ﷺ أن يعود المهاجرون من الحبشة إلى المدينة. وفي السنة السابعة من الهجرة أمر رسول الله ﷺ بعودتهم. وانطلقت أسماء مع زوجها وأولادها وبقية المهاجرين على متن سفينة تشقُّ بهم عرض البحر، قاصدين شاطئ الحجاز تستخفهم فرحة اللقاء المنتظر برسول الله ﷺ بعد سنوات الغياب والشوق. ولما وصلوا المدينة تصادف وصولهم بعودة رسول الله ﷺ من فتح خيبر، فكانت فرحته عظيمة بقدم ابن عمه «جعفر بن أبي طالب» وزوجته «أسماء بنت عميس» وأولاده. فما أن رآه رسول الله ﷺ حتى ضمَّه إلى صدره وقال: «لا أدري بأيها أفرح، بفتح خيبر أم بقدم جعفر؟».

ولما تكلم الناس وقالوا لأصحاب السفينة -المهاجرين الذين أتوا من

الحبشة-: نحن سبقناكم بالهجرة. فقالت أسماء: كتتم مع رسول الله ﷺ يُطعمم جائفكم، ويعلّم جاهلكم. وكنا نحن البعداء والطرءاء. ثم أتت رسول الله ﷺ وقالت له: يا رسول الله، إن رجالاً يفخرون علينا ويزعمون أنا لسنا من المهاجرين الأولين. فقال ﷺ: «لهم هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان، هاجرتم إلى النجاشي وهاجرتم إليّ».

عمرة القضاء

وأقامت أسماء في المدينة مع زوجها «جعفر» تنهل من رسول الله ﷺ المعرفة والتقى، وتقوم على رعاية بيتها كأحسن ما تكون الزوجة وربة البيت. ولما خرج رسول الله ﷺ من المدينة قاصداً مكة في عمرة القضاء خرجت أسماء مع زوجها «جعفر بن أبي طالب»، وباقي المؤمنين وأدت العمرة.

مؤتة والفراق الأليم

ولم ينعم الزوجان طويلاً بفرحة الرجوع إلى الأهل واللىق برسول الله ﷺ سوى عام وبضعة أشهر. فبعد عودته من عمرة القضاء أرسل رسول الله ﷺ بجيش إلى مؤتة، واستعمل عليهم زيد بن حارثة، وقال ﷺ: «إن

أُصِيبَ زَيْدٌ فَجَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَإِنْ أُصِيبَ جَعْفَرُ، فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ؛
 فَلَمَّا دَارَتْ رَحَى الْمَعْرَكَةِ وَاشْتَدَّ وَطِيسُهَا، اسْتُشْهِدَ زَيْدٌ، فَأَخَذَ الرَّايَةَ جَعْفَرُ
 بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَاتَلَ قِتَالًا مَرِيرًا، وَاقْتَحَمَ صَفُوفَ الْعَدُوِّ فَأَلْقَى فِي قُلُوبِهِم
 الرَّعْبَ بَعْدَ أَنْ قَتَلَ مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا. فَقُطِعَتْ يَمِينُهُ فَأَخَذَ الرَّايَةَ بِشِمَالِهِ،
 فَقُطِعَتْ شِمَالُهُ فَأَمْسَكَ الرَّايَةَ بَعْضِدِيهِ، وَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ. فَتَنَاوَلَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
 رَوَاحَةَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، فَوَلَّى الْمُسْلِمُونَ قِيَادَةَ الْجَيْشِ لِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ.
 * للاستزادة من حياة «جعفر بن أبي طالب»، ارجع إلى الجزء الثالث «حياة الصحب الكرام»
 للمؤلف.

رسول الله ﷺ يبكي جعفرًا

ذهب رسول الله ﷺ إلى بيت ابن عمه، فلما أقبل عليهم رأَت أسماء بنت
 عُمَيْسٍ عَلَى وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْحَزْنَ فَحِيَا، وَقَالَ: «أَتَتْنِي بِأَوْلَادِ جَعْفَرٍ».
 فَجَاءَ وَهُوَ فَأَكَبَّ عَلَيْهِمْ وَأَخَذَ يَشْمَهُمْ وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ مِنَ الدَّمْعِ. فَقَالَتْ
 أَسْمَاءُ: يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا يُبْكِيكَ؟ أَبْلَغُكَ عَنْ جَعْفَرٍ
 وَأَصْحَابِهِ شَيْءٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ، لَقَدْ اسْتُشْهِدُوا الْيَوْمَ». فَبَكَتْ أَسْمَاءُ بَكَاءً
 شَدِيدًا وَبَكَى أَطْفَالُهَا.
 فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَسْمَاءُ، لَا تَقُولِي هُجْرًا، وَلَا تَضْرِبِي صَدْرًا».

فسمعت وأطاعت رضا بقضاء الله وقدره. ثم قال لها ﷺ: «يا أسماء ألا أبشرك؟» قالت: بلى بأبي أنت وأمي يا رسول الله. فقال: «فإن الله جعل لجعفر جناحين يطير بهما في الجنة».

ثم مضى رسول الله ﷺ وهو يكفكف عبراته ويقول: «اللهم أخلف جعفرًا في أهله بخير ما خلفت عبدًا من عبادك الصالحين». ثم قال ﷺ: «لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعامًا، فإنهم شغلوا بأمر صاحبهم».

صبر واحتساب

لقد كانت الفاجعة بفقدان الزوج والحبيب في لحظاتها الأولى أقوى من احتمال أسماء فخالجها حزن شديد اعتصر فؤادها، لكنها لاذت بإيمانها وصبرت على بلواها، واحتسبته عند الله شهيدًا، وفوّضت أمرها وأمر بنيتها إلى الله - سبحانه وتعالى -.

وظلت على عهدا عابدة، صائمة، قائمة، ترعى أولادها وتُنشئهم تنشئة فاضلة، وتؤدبهم بأدب الإسلام.

أسماء زوجة لأبي بكر الصديق

فلما انقضت عدتها جاء أبو بكر الصديق لخطبة أسماء، فرضيت به. وكان ذلك ما درج عليه العرب في تكريم المتوفى بالزواج من أرملة، دليلاً على محبة الرجل لصاحبه، ثم الاقتران بشخصية لها مكانتها تكريمًا لها حتى لا تبقى أرملة.

فأبرم رسول الله ﷺ ذلك الزواج وباركه. ونعمت أسماء بالعيش مع أبي بكر، فكان لها خير خلف لخير سلف. وولدت له محمدًا حين خرجت مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع. فقد جاءها المخاض بذي الحليفة، فهَمَّ أبو بكر بردها إلى المدينة فسأل رسول الله ﷺ في ذلك فقال: «مرها فلتغتسل ثم تُحرم وتُهَلِّ بالحج».

زوجة خليفة رسول الله ﷺ

وتمر الأيام سريعًا ويتولى أبو بكر الصديق أمر الخلافة بعد وفاة رسول الله ﷺ، وتعيش أسماء مع الصديق أيام خلافته. وشهدت الأحداث الكبرى من جَمْع القرآن، وحرب المرتدين. ورأت كيف كان أبو بكر يدافع عن حمى الإسلام وحرمة المسلمين. وكانت له نعم العون، تشد أزره وتُحيطه برعايتها.

الوفاء بالوصية

ولما أحس أبوبكر بدنو أجله أوصى أسماء بنت عميس أن تُغسَّله بنفسها. فلما كان يوم وفاته وكانت صائمة فعزم عليها -أي: أقسم عليها- أن تُفطر لتقوى على ما أوصاها به. فظلت صائمة حتى دنت الشمس من الغروب فدعت بماء فشربت قبل أن تغيب الشمس برًّا لقسم زوجها وقالت: والله لا أجعله يحنث في يمينه، وغسَّلته كما أوصى.

وهكذا أطاعت زوجها بعد وفاته كما كانت تطيعه أثناء حياته، فهذا هو عين الوفاء.

أسماء زوجة لعليّ بن أبي طالب

وظلت أسماء تُعاني من الحزن على فقدان زوجها أبي بكر. فلما انقضت عدتها تزوّجها عليّ بن أبي طالب، فعاشت معه قريرة العين لا تجد منه إلا خيراً، فقد كفَّلها وكفل أولادها. وكانت تحبه وتُحِّله كحبها لزوجها السابقين جعفر وأبي بكر.

درس للأمهات في تربية الأولاد

وفي يوم من الأيام يدور حوار في بيت عليّ بن أبي طالب بين محمد بن جعفر ومحمد بن أبي بكر فيه تفاخر وإعزاز. فقال أحدهما للآخر: أنا أكرم منك وأبي خير من أبيك، فرد عليه الثاني بمثل ما قال الأول، وكادا يختصمان. وكان عليّ وأسماء يسمعان، فقال عليّ لأسماء: اقضِ بينهما. وذلك لعلمه بنضجها ووعيها، فقالت: «ما رأيت شاباً من العرب خيراً من جعفر، ولا رأيت كهلاً خيراً من أبي بكر»، فسكت الغلامان محمد بن جعفر ومحمد بن أبي بكر. وقال عليّ في تودد: ما تركت لنا شيئاً، ولو قلت غير ذلك لمقتك -أي: لأبغضتُك-.

وهنا تعطي أسماء للأمهات درساً عظيماً في تربية أولادهن، والعدل بين الأولاد، وترضية مشاعرهم، حتى يظلوا إخوة متحابين متآلفين مترابطين.

عاشت الأحداث والآلام

وظلت أسماء بنت عميس وقيّة لزوجها عليّ بن أبي طالب ترعاه وترعى أولادها، حتى أصبح خليفة للمسلمين، وتدخل أسماء دار الخلافة كزوجة لخليفة المسلمين للمرة الثانية.

وتعيش مع الخليفة «علي بن أبي طالب» الأحداث بحلوها ومُرَّها، والفتنة الكبرى التي أطلت برأسها على المسلمين، وما دار من سجال وحروب. وكانت فاجعتها الكبرى يوم مقتل ابنها «محمد بن أبي بكر» لما كان والياً على مصر من قِبَل علي بن أبي طالب. فلما بلغها مقتل ولدها، قامت إلى مسجد بيتها وكظمت غيظها وصبرت واحتسبت. ثم لم يلبث الإمام عليّ أن استشهد لتزيد أحزانها. وقد ربطت بين وفاة زوجها جعفر ثم أبو بكر ثم ابنها محمد بن أبي بكر وأخيراً علي. فاستيقظت في قلبها ذكريات الألم والحزن والمرارة، ولكنها صبرت واحتسبت.

فضائلها ومناقبها

وقبل أن نودّع هذه الصحابية الجليلة، فلنعرِّج على بعض من مناقبها وفضائلها. فبالإضافة إلى كونها الصحابية الوحيدة التي تزوجت من ثلاثة من أهل الجنة، شهيد وخليفين، إلا إنها كان لها من الفضل والمناقب الكثير.

نذكر منها:

١ - حبها لرسول الله ﷺ وأهله

لقد كانت أسماء مُجَبَّة لرسول الله ﷺ وأزواجه، وكانت تتقرب إليهن

لتتعلم منهن وخاصة بعد عودتها من الحبشة لتُحصل ما فاتها من تعاليم الدين.

فكانت وثيقة الصلة بأهل بيت رسول الله ﷺ ولا سيما فاطمة الزهراء. فلقد كانت أقرب النساء إلى فاطمة. وكانت فاطمة تتخرج من وصف جسد المرأة عندما تُشيع إلى قبرها. فلما أحست بدنوّ أجلها قالت لأسماء: إني استقبحت ما يُصنع بالنساء، إنه تُطرح على المرأة الثوب فيصنفها.

فقالت أسماء: يا ابنة رسول الله، ألا أريك شيئاً رأيته بأرض الحبشة؟، فدعت بجرائد رطبة فحنتها ثم طرحت عليها ثوباً. فقالت فاطمة: ما أحسن هذا وأجمله، فإذا أنا ميتٌ فلا يدخل عليّ أحد. فلما توفيت فاطمة صنعت لها أسماء ما وصّتها به.

وقد صنعت أسماء مثل ذلك للسيدة زينب بنت جحش، التي كانت أسرع نساء النبي لحاقاً به.

٢ - علمها وفقهها

لقد كانت أسماء مُعلمة وداعية؛ حيث نشرت علم رسول الله ﷺ.. فروت عنه الكثير من الأحاديث، وقد روى عنها الكثير من الصحابة والتابعين، منهم: ابنها عبد الله بن جعفر وغيره.

ويُروى أنها كانت تُحسّن تعبير الرؤى. فقد أرسل إليها عمر بن الخطاب في رؤيا رآها يريد تأويلها. فقد رأى ديكًا أحمر نقره ثلاث نقرات. فلما قصها على أسماء، قالت: ليقتلك رجل من العجم. فلما كان يوم الجمعة قام عمر على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: رأيت رؤيا لا أراها إلا تُنبئ بحضور أجلي. ثم قصَّ على الناس رؤياه وما أوَّلته أسماء بنت عميس. فجاء أبو لؤلؤة المجوسي قطعنه ثلاث طعنات وهو يصلي الفجر ومات بعدها بثلاثة أيام.

وتأويل الرؤى علم له أصوله وقواعده، وهو هبة من الله للأصفياء من عباده.

الفصل الأخير

وبعد حياة طويلة عاشتها «أسماء بنت عميس» طائعة لربها، مُناصرة لدينها، تواصل رعاية أبنائها. ترقد على فراش الموت لتلقى ربها راضية مرضية. وكان ذلك بعد وفاة الإمام عليٍّ بوقتٍ يسيرٍ.

فرحمة الله وبركاته عليك يا صاحبة المهجرتين

يا زوجة لثلاثة من أهل الجنة

ورضى الله عنك وأرضاك يا «أسماء بنت عميس».

الخنساء رضي الله عنها

والان أعزائي، نحن على موعد مع زهرة أخرى من أزاهير الصحبة العطرة. إنها صحابية جليلة أعطت درسًا للبشرية في قوة الإيمان بالله والصبر والاحتساب، إنها أم الشهداء الأربعة «الخنساء» رضي الله عنها.

نسبها

هي: الخنساء «تماضر» بنت عمرو بن الشريد بن عَصِيبة السُلَيْمِيَّة.

الشاعرة اللببية

لقد كانت الخنساء شاعرة، لببية، عاقلة. وكان الناس يعلمون قَدْرَها ومكانتها ومهارتها في الشعر، حتى أجمع أهل العلم بالشعر أنه لم تكن هناك امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها.

وكانت شهرتها كبيرة في شعر الرثاء، خاصة لما قُتِلَ أخوها «صخر». فقد تركت بعد موته ديوانًا كان الأول من نوعه في شعر المرثي.

وإلى جانب شاعريتها، كانت صاحبة شخصيَّة قوية تتمتع بالفضائل والأخلاق العالية والصبر والشجاعة.

إسلامها

لما أشرقت شمس الإسلام جاءت الخنساء مع قومها من بني سُليم فأسلمت معهم. وتركت الشعر جانبًا واشتغلت بتلاوة القرآن، وما كانت تنشد الشعر بعد إسلامها إلا في مناسبات خاصة. وعزمت على أن تستدرك كل ما فاتها، وأن تُضحِّي بكل ما تملك من أجل نُصرة هذا الدين.

يوم القادسية

أبنائها الأربعة في طليعة المجاهدين

فلما كان يوم القادسية، في عهد الفاروق عمر بن الخطاب، وخرج جيش المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص، تُقدِّم الخنساء للتاريخ درسًا لا يُنسى. فلم تُقدِّم ولدًا واحدًا من أولادها الأربعة ولا اثنين منهم، بل قدمت أولادها الأربعة كلهم ليكونوا في طليعة المجاهدين. ولم تدَّخر منهم أحدًا يعولها ويقوم بشأنها؛ لأنها أحسنت التوكل على الله، والثقة في فضله العظيم.

وصيتها لأبنائها

وقدمت الخنساء لأبنائها كل ما تستطيع من دعم مادي ومعنوي. وأفاضت عليهم بنصائحها الغالية. فكان مما قالت:

«يا بني، لقد أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله إلا هو، إنكم لبنو رجل واحد، كما إنكم بنو امرأة واحدة. واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية. فإذا أصبحتم فاغدوا إلى قتال عدوكم مُستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين. فإذا الحرب شمّرت عن ساقها، وجلّت نارًا على أوراقها، فيمّموا وطيسها، وجالّدوا رسيسها - أي: أصلها - نظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة».

يوم مشهود في تاريخ المسلمين

وتبدأ المعركة وتحت قيادة سعد بن أبي وقاص، وهو قائد مُلهم، وفارس مُعلّم. يُحسن التدبير، ويعرف كيف يتغلّب على كثرة عدوه وقوة سلاحه بحسن الحيلة وأخذ الحيلة.

وكان أبناء الخنساء الأربعة يُباشرون القتال بقلوب فتيّة، فإذا فتر أحدهم ذكره إخوته بوصية الأم العجوز فينطلق كالليث.

وبعد عدة جولات شديدة البأس انتصر المسلمون على عدوهم انتصارًا

عظيمًا في يوم مشهود في تاريخ المسلمين.. وقد قرَّ الأعداء منهزمين لا يلوي أحدٌ على أحد.

استشهاد الأبناء الأربعة

وبعد انتهاء المعركة الفاصلة سألت «الخنساء» عن أبنائها الأربعة فأخبروها أنهم استشهدوا جميعًا. فبعد قتال مرير وبطولات نادرة سقط الأبناء الأربعة واحدًا بعد الآخر شهيدًا في ساحة القتال والشرف.

الحمد لله الذي شرفني بقتلهم

وتتلقي الخنساء الخبر بصبر ورضا، وقد احتسبتهم عند الله -عز وجل-، وكفكفت دمعها، وخففت من حزنها، فلم ترثهم وهي التي ملأت الدنيا بكاءً وعويلًا على موت أخيها «صخر» في الجاهلية، وقالت فيه من الشعر ما قالت. فها هي تتقبَّل نبأ استشهاد أبنائها الأربعة، فلم تلطم خدًا، ولم تشقَّ جيبًا، ولكنها استقبلت النبأ بإيمان الصابرين، وصبر المؤمنين، وقالت: «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته».

الفصل الأخير

وظلت «الخنساء» عازفة عن الحياة الدنيا، زاهدة في متاعها الفاني، مشغولة بذكر الله وتلاوة القرآن، حتى نامت على فراش الموت بعد ما قدمت للتاريخ والبشرية درسًا في الصبر والاحتساب، وقوة الإيمان بالله، لتلقى ربها راضية مرضية.

فرحمة الله وبركاته عليك يا من كنتِ مثالاً للصبر وقوة الإيمان

يا أم الشهداء الأربعة

ورضي الله عنك وأرضاك يا «خنساء».

أم معبد الخزاعية رضي الله عنها

والآن أعزائي فنحن على موعد مع صحابية جلييلة، ارتبط اسمها بأهم حدث في تاريخ الإسلام ألا وهو الهجرة النبوية المباركة. وهي التي وصفت رسول الله ﷺ وصفًا دقيقًا بليغًا، أصبح مرجعًا لكل كُتّاب السيرة. إنها «أم معبد الخزاعية» رضي الله عنها.

نسبها

هي: عاتكة بنت خالد بن مُنقذ الخزاعية، والمعروفة بـ «أم معبد الخزاعية».

الهجرة المباركة

لقد كانت الهجرة النبوية المباركة من مكة إلى المدينة من الأحداث المهمة والفارقة في التاريخ الإسلامي، إن لم تكن أهمها على الإطلاق. وكان من الذين ارتبط اسمهم بهذا الحدث العظيم ضيفتنا «أم معبد الخزاعية».

البركات تنزل على أم معبد

وفي طريق الهجرة المباركة، وعلى نحو ١٣٠ كيلو مترًا من مكة مرَّ رسول الله

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخيمة «أم معبد الخزاعية»، وكانت امرأة جلدة تحبني بفناء خيمتها، وتطعم وتسقي كلَّ مَنْ مرَّ بها. فسألها رسول الله ﷺ وصاحبه: «هل عندك شيء؟». فقالت: والله لو كان عندي شيء ما أعوزكم القرى - أي: الضيافة -، وكانت سنة شهباء.

فنظر رسول الله ﷺ، في جانب الخيمة فقال: «ما هذه الشاة يا أم معبد؟» قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم. فقال: «هل بها من لبن؟» قالت: هي أجهد من ذلك. فقال: «أتأذنين لي أن أحلبها؟» قالت: نعم، إن رأيت لها حلبًا فاحلبها. فمسح رسول الله ﷺ بيده الشريفة ضرعها وسمى الله ودعا فانفتح ضرعها ودرت لبنًا غزيرًا، فدعا بإناء فحلب فيه حتى علت الرغوة، فسقا أم معبد فشربت حتى رويت، ثم سقى أصحابه فشربوا حتى رووا، ثم شرب هو.. وحلب فيه ثانيًا حتى ملأ الإناء. فتركه عندها ثم ارتحلوا.

وصفٌ بليغٌ لرسول الله ﷺ

فما لبث أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنازًا عجافًا. فلما رأى اللبن عجب، وقال: من أين لك هذا والشاة عازب ولا حلوبة في البيت؟ فقالت: لا والله، إلا أنه مر بنا رجلٌ مبارك، وقصت عليه ما حدث. فقال: إني والله

لأراه صاحب قريش الذي تطلبه، صفيه لي يا أم معبد.
 فبدأت أم معبد في وصف رسول الله ﷺ وصفاً بليغاً، يعجز البلغاء وأهل
 الفصاحة أن يأتوا بمثله. وهو الوصف الذي يعتمد عليه معظم أصحاب
 السِّير في وصفهم لرسول الله ﷺ، والحبيب المصطفى فوق كل وصف.
 فقالت في وصفها لرسول الله ﷺ:

- * ظاهر الوضاعة، أبلج الوجه - أي: مشرق الوجه -.
- * حسن الخلق لم تبعه ثُلجة - أي: ضخامة البطن، ولم تُزِرْ به صُلعة - أي:
 صغر الرأس -.
- * وسيم قسيم، في عينيه دَعَج - أي: سواد العين -، وفي أشفاره وطف -
 أي: شعر أجفانه طويل -.
- * وفي صوته صَحَل، وفي عنقه سَطع، أحور، أكحل، أزج، أقرن، شديد
 سواد الشعر.

- * إذا صمت علاه الوقار، وإذا تكلم علاه البهاء.
- * أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنهم وأحلاهم من قريب.
- * حُلُو المنطق، فصل، لا نذر ولا هذر، كأن منطقَه خرزات نظم يتحدَّر به.
- * ربعة، لا تقحمة عين من قصر، ولا تشنؤه من طول، غصن بين غصنين،

فهو أنضر الثلاثة منظرًا وأحسنهم قدرًا.

* له رفقاء يحفون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا إلى أمره.

* محفود - أي: يخدمه أصحابه-، محشود - أي: يجتمع الناس إليه -، لا

عابس ولا مُفند - أي: لا يكثر لومه.

فقال أبو معبد: والله هذا صاحب قريش الذي ذكروا من أمره ما ذكروا،

ولقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً.

إسلامها

نفحات الإيمان تطرق قلبها

لقد أدهش أم معبد ما رأت من الحبيب ﷺ من بركات، وما سمعت من

حلو الكلام فطرت نفحات الإيمان قلبها. فلما مرَّ بها فتیان من قريش بعد

أن تركها رسول الله ﷺ وسألوها عنه لما كانوا يلاحقونه فأنكرت معرفتها

به، وقالت: إنكم تسألون عن شيء ما سمعت به قبل عامي هذا.

أم معبد وزوجها في رحاب الإيمان

فما أن استقر رسول الله ﷺ بالمدينة حتى أتته أم معبد وزوجها، فأسلمها

وبايعة النبي ﷺ. وعاشت أم معبد في رحاب الإيمان صائمة، قائمة، عابدة لله. وكانت تفرح إذا سمعت بنصر الله للمسلمين على أعدائهم. وتخزن إذا سمعت غير ذلك.

وظلت هكذا حتى مات رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنها.

مكانتها في قلوب الصحابة

وقد احتلت أم معبد مكانة عالية في قلوب الصحابة، خاصة الخلفاء الراشدين. فقد كانوا جميعًا يعرفون لها قدرها ومنزلتها، وما فعلته مع رسول الله ﷺ في رحلة هجرته المباركة.

الفصل الأخير

وبعد حياة طويلة مباركة تنام أم معبد على فراش الموت، لتلقى بارئها راضية مرضية.

فرحمة الله وبركاته عليك يا من ارتبط اسمك بالهجرة المباركة

يا مَنْ وَصَفْتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَصَفًا بليغًا

ورضى الله عنك وأرضاك يا «أم معبد الخزاعية».

خولة بنت حكيم رضي الله عنها

والآن أعزائي نحن على موعد مع هذه الريحانة من رياحين الصحبة العطرة. مع الصحابية الجليلة التي فقهت دينها، وحرصت على بيتها وأسرتها في إيمان ويقين وصدق مع الله. فكانت استجابة الله لها، بعد أن سمع قولها من فوق سبع سموات. إنها «خولة بنت حكيم» رضي الله عنها.

نسبها ونشأتها

هي: خولة بنت حكيم بن مالك بن ثعلبة، وهي من بني عمرو بن عوف. وبني عمرو بن عوف من أشرف يثرب وسادتها وأغنيائها، وقد كان لهم دور كبير في استقبال وضيافة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكثير من المهاجرين عند وصولهم إلى المدينة.

وقد وُلدت «خولة» ونشأت وترعرعت في هذه التربة الخصبة من الكرم والشرف والسؤدد. ثم تربت في بيت كريم على علم وفصاحة وأدب. فشبت عالمة، بليغة القول، فصيحة اللسان.

فلما بلغت سنّ الزواج، رغب فيها الكثير من شباب يثرب. إلا إنها في النهاية تزوجت من «أوس بن الصامت» وهو الأخ الأكبر للصحابي الجليل

«عبادة بن الصامت» - رضي الله عنهما -.

إسلامها

ولما أشرفت الأرض بنور الإسلام، كانت خولة وزوجها من أوائل المؤمنين به والسابقين لأتباعه. وقد تفقّعت في الدين لما كان لها من نضوج وفصاحة وبلاغة ولازمت بيوت أزواج النبي ﷺ، وخاصة أم المؤمنين عائشة لتتعلم منهن وتنهل مما علّمن رسول الله ﷺ.

كما شارك زوجها «أوس بن الصامت» في تحمّل تبعات الجهاد والنضال تحت راية رسول الله ﷺ.

قد سمع الله قولها

الزوجة الصابرة

ومرّت الحياة الزوجية بين أوس بن الصامت وخولة بنت حكيم في هدوء وسعادة. وكانت خولة لا تدخّر جهداً في إسعاد زوجها، وكانت تحبّه وتطيعه. وظلت الحياة على هذه الوتيرة، حتى تغيّر حال أوس وأصبح سريع الغضب، عصبي المزاج، حادّ الطبع، يثور لأي شيء ثم لا يلبث أن

يعود إلى حالته الطبيعية. ولعل ذلك لكبر سنِّه، أو أنه أصابه شيء من اللمم. -وهي حالة من حالات الهياج العصبي، وفقدان السيطرة فيبدو صاحبها هائجًا شديد الثورة على من حوله. أما خولة فكانت تتحمَّل بصبرٍ وإيمان كل هذا الذي أصاب زوجها. فكانت تُعالج الأمور بحكمةٍ وصبرٍ على البلاء، حرصًا منها على استمرار الحياة الزوجية، واستقرار بيتها وأولادها.

أنتِ عليّ كظهر أمي

وحدث في يوم من الأيام أن دخل أوس على زوجته خولة، وهو في أقصى حالة من حالات الغضب فأسمعها كلامًا قاسيًا جارحًا وهي محتملة في صبرٍ وجَلْد. لكنه اشتد في التقرُّع واللوم، فبدأت تردّ عليه ما يقول وتناقشه فيه. فما كان من أوس إلا أن تَمَادَى في ثورة غضبه وهياجه، وقال لها: «أنتِ عليّ كظهر أمي»، وهي صيغة من صيغ الطلاق عند العرب في جاهليتهم ومعناها: أنكِ مُحَرَّمَةٌ عليّ كحرمة أمي عليّ. وكان الرجل إذا قالها يفارق زوجته وتفارقه إلى الأبد.

ثم غادر أوس الدار فجلس في نادي قومه ساعة، ثم عاد بعد وقتٍ قصير،

وقد هدأت نفسه وذهب عنه الغضب. فدنا من زوجته، وراح يلاطفها، ثم أرادها فأبت وقالت له: كلا والذي نفسي بيده وقد قلت ما قلت، حتى يحكم الله ورسوله فينا.

خولة تشتكي إلى الله

وتخرج خولة من بيتها حتى أتت حجرة عائشة، ثم دخلت على رسول الله ﷺ وقالت له: يا رسول الله، إن أوسًا مني من عرفت، أبو ولدي، وابن عمي، وأحب الناس إليّ. وقد أصابه ما أصابه، ولقيت منه ما لقيت من سوء خُلِّقه. ولكنه اليوم قال لي: «أنت عليّ كظهر أمي»، فانظر ماذا ترى؟ فقال لها رسول الله ﷺ: «ما أراكِ إلا قد حرُمتِ عليه». فقالت خولة لرسول الله ﷺ وهي تحاوره: يا رسول الله، قد كبرت سني، ووهن عظمي، ولى منه أولاد، إن تركتهم إليه ضاعوا، وإن أبقيتهم معي جاعوا. ورسول الله ﷺ يسمع لها في شَغَفٍ ورَفَقٍ بحالها، لكنه لا يريد أن يحكم لها برأي من قبل أن يفصل في ذلك حكم الله وشرعه.

وعندئذ توجهت خولة بلسان ضارع، وقلب خاشع، ودعت ربها، وقالت: «اللهم إني أشكو إليك شدة وجدي، وما شقَّ عليّ من فراقه. اللهم أنزل

على لسان نبيك ما يكون لنا فيه فرج».

تقول السيدة عائشة عن هذه الواقعة: لقد بكيت، وبكى من معنا من أهل البيت، رحمةً بها ورقةً عليها.

الله - سبحانه - يسمع شكواها

وبينما خولة في تحاورها مع رسول الله ﷺ، وفي شكواها لله؛ إذ تغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاها إذا نزل عليه الوحي، ثم سرى عنه فقال: «يا خولة، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك» ثم تلا عليها قوله - تعالى -: { **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ * وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَنَاسَا ذَلِكَ تُوَعِّظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَنَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ** }

[المجادلة: ١-٤].

فكان ذلك استجابة من الله لشكوى هذه المرأة التي أخلصت النية لله، وأرادت الحفاظ على بيتها وأولادها، دون أن تخالف شرع الله. فهو -سبحانه- يعلم حالها، ويسمع قولها، وهو أرحم الراحمين بها من نفسها على نفسها. فأنزل هذه الآيات لتكون مخرجاً لها ولأمثالها من هذا المأزق الحرج.

شروط العودة عن الظهار

وفي هذه الآيات المحكمات أنزل الله -سبحانه- تشريعه على نبيه الكريم، ووضع فيه شروط العودة عن الظهار. وهي شروط ثلاثة تُنفَّذ هكذا بحسب الترتيب القرآني وبحسب القدرة والاستطاعة:

أولاً: تحرير رقبة:

فبعد أن تلا رسول الله ﷺ على خولة هذه الآيات، قال لها: «مُريه أن يعتق رقبة» فقالت: يا رسول الله، ما عنده ما يعتق به رقبة، فهو رجل فقير.

ثانياً: صيام شهرين متتابعين:

فقال رسول الله ﷺ: «فمُريه فليصُمَّ شهرين مُتتابعين». فقالت: يا رسول الله، إنه شيخ كبير، لا طاقة له على الصوم.

ثالثاً: إطعام ستين مسكيناً

فقال رسول الله ﷺ: «فمريه فليطعم ستين مسكيناً». فقالت: يا رسول الله، ما ذاك عنده. فقال ﷺ: «إنا سنُعِينك بعزق من تمر». فقالت: وأنا يا رسول الله سأعينه بعزق آخر.

فقال ﷺ: «قد أصبت وأحسنِ، فاذهبي فتصدقي به عنه، ثم استوصي بابن عمك خيراً».

مِنْحَةٌ بَعْدَ مِحْنَةٍ

وتعود خولة إلى دارها فَرِحَةَ مستبشرة، حامدةً شاكرة الله على فضله. فوجدت أوساً جالساً على الباب ينتظر عودتها فقال لها: ما وراءك يا خولة. قالت: خير وأنت ذميم -أي: في ذمتك دَيْنٌ لله تعالى-. وقصّت عليه ما دار من حوار مع رسول الله ﷺ، وما نزل فيهما من آيات الذكر الحكيم. ففرح أوس بما أتاه الله من فضله، وقام حاملاً التمر على ظهره، وكان عادةً لا يستطيع أن يحمل شيئاً. فجعل يُطعم منها المساكين حتى فرغ من إطعام الستين مسكيناً.

وهكذا قد جعل الله -سبحانه- من محنة خولة وما حدث لها مع زوجها

منحة لها وللمؤمنين، فكانت هذه الرخصة التي رفعت الحرج الذي كانت تعاني منه النساء في الجاهلية، وفي صدر الإسلام، ويعاني منه أولادهن. وكان الفضل بعد الله - سبحانه وتعالى - لخولة بنت حكيم. ونلاحظ أن الله - سبحانه - وإن كان قد منح الرخصة، إلا أنه جعل كفارتها شديدة غليظة. فعلى من يُقدم على هذا القول أن يعتق رقبة، فإن لم يستطع فيصوم ستين يوماً متتابعة، فإن لم يستطع فليُطعم ستين مسكيناً. وذلك حتى لا يكون الأمر هيناً على أي رجل أن يُظاهر من امرأته، فعليه أن يفكر جيداً قبل الإقدام على هذا العمل الذميمة. وفي ذلك محافظة على الأسرة وكيانها، وبالتالي على النشء من أبناء المؤمنين.

عمر بن الخطاب وخولة

وتمرّ الأيام وتمضي السنون على خولة وزوجها بما قدر الله لها أن تسير. وينتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى وهو راضٍ عنها. وقد عرف لها الصحابة، خاصة الشيخين «أبو بكر وعمر» عرفوا لها قدرها وفضلها. فكانوا يوقرونها، ويؤدون إليها ما تستحقه من احترام وإجلال. يُروى أن عمر بن الخطاب وأثناء خلافته كان خارجاً من المسجد ومعه

الجارودُ العبدى، فمرَّ في طريقه على عجوز استوقفته، فسلمَّ عليها فردَّت عليه السلام. ثم قالت له وهو مُصنَّعٌ مُبتسِمٌ: «هيه يا عمر، عهدتك وأنت تُسمَّى عُميرًا، تُصارعُ الفتيان في سوق عكاظ، فلم تذهب الأيام حتى سُمِّيتَ عمر، ثم لم تذهب الأيام حتى سُمِّيتَ «أمير المؤمنين» فاتق الله في الرعية، واعلم أنه من خاف الوعيد، قرب عليه البعيد، ومن خاف الموت خشى الفوت»، فبكى عمر.

فقال الجارودُ العبدى - وكان لا يعرفها -: لقد أكثرتِ على أمير المؤمنين وأبكيته يا امرأة. فقال له عمر: دعها، ألم تعرفها؟ هذه خولة بنت حكيم، التي سمع الله شكواها من فوق سبع سموات. فعمر والله أحق أن يسمع لها.

خولة بنت حكيم.. خولة بنت ثعلبة

الجدير بالذكر عزيزي القارئ، أنك قد تلاحظ أن بعض المراجع تُطلق عليها «خولة بنت حكيم»، والبعض الآخر «خولة بنت ثعلبة». فأينما قابلت خولة بنت حكيم أو خولة بنت ثعلبة، فأنت مع مَنْ سمع الله قولها من فوق سبع سموات.

الفصل الأخير

وتعيش خولة ما امتدَّ بها العمر، حتى حان وقت الرحيل، لترقد على فراش الموت، ولتصعد روحها الطاهرة إلى بارئها راضية مرضية.

فرحمة الله وبركاته عليكِ يا مَنْ سمع الله قولك من فوق سبع سموات

يا مَنْ كنتِ مثلاً للمرأة المؤمنة التي تحافظ على بيتها وأولادها

ورضي الله عنكِ وأرضاكِ يا «خولة بنت حكيم».

سُمِّيَتْ بِنْتُ حُبَّاطٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

والآن أعزائي، فلنعش اللحظات التالية مع زهرة أخرى من أزاهير الصحبة العطرة. زهرة كُتِبَ اسمها بأحرف من نور على جبين التاريخ. أعطت البشرية درسًا لا يُنسى في الثبات على العقيدة. إنها أول شهيدة في الإسلام «سُمِّيَتْ بِنْتُ حُبَّاطٍ» أم الصحابي الجليل «عمار بن ياسر».

نشأتها

لقد نشأت سُمِّيَتْ نشأة متواضعة في بيت من بيوت بني مخزوم، فقد كانت أُمَّةً لأبي حذيفة بن المغيرة، وكان سيدًا من سادات بني مخزوم. فكانت تعمل في خدمته وأهله. وشأنها كشأن كل الإماء والعبيد لا ذكر، ولا حياة، ولا رأي لهم، ولا يطمعون في أي شيء سوى خدمة ساداتهم وعمل كل ما يرضيهم. لكن سُمِّيَتْ لم تكن تعلم أنه سيكون لها شأن آخر، وأنها ستدخل التاريخ من أوسع أبوابه بل وأشرفها.

زواجها من ياسر

من اليمن إلى أم القرى

كان ياسر بن عامر رجلاً من أهل اليمن، وفد إلى مكة مع أخويه الحارث ومالك، ليبحثوا عن أخ لهم فقدوه منذ سنوات. فمكة أم القرى تجتمع فيها القوافل القادمة من الشام واليمن والحبشة، وهي أيضاً مقصد الحجيج يأتونها من كل فج عميق. وطال بحثهم عن أخيهم فلم يجدوه، فعاد الحارث ومالك وبقي ياسر الذي تعلق بمكة وأهل الحرم.

حلف مع أبي حذيفة بن المغيرة

وعلى عادة العرب، أنه إذا دخل غريب إلى بلد واستقر بها، فلا بد أن يُحالف سيِّداً من ساداتها ليمنعه من أذى الناس، وليعيش آمناً مطمئناً. فحالف ياسر أبا حذيفة بن المغيرة المخزومي.

زواج ياسر من سمية

فقبله أبو حذيفة بن المغيرة، وأنزله في رحابه، وقد أحبه من أعماق قلبه لما رأى فيه من نبل الخصال.

وأراد أبو حذيفة التقرب أكثر من ياسر فزوَّجه من سُمَيَّة بنت خُبَّاط التي كانت ما تزال أمةً عنده.

ثمار هذا الزواج

وأثمر هذا الزواج عن ميلاد غلام مبارك ألا وهو: عمار بن ياسر، واكتملت فرحتهم جميعاً يوم أن أعتقه أبو حذيفة وحرَّره من العبودية. وهو «الطيب المطيب» كما قال عنه رسول الله ﷺ.

* للاستزادة من حياة «عمار بن ياسر» ارجع إلى الجزء الثالث «حياة الصحب الكرام» للمؤلف.

وعاشت هذه الأسرة المباركة في سعادة ورضًا. ثم مات أبو حذيفة بن المغيرة، وظل أولاده من بعده يعرفون لياسر بن عامر وأهله حقهم، ويقومون بما كان يقوم أبوهم من حسن المعاملة وحفظ الوُدِّ. وتمر الأيام فإذا بياسر وزوجته سُمَيَّة يغدوان شيخين كبيرين مُعمَّرين، وإذا بعمار يُصبح شاباً يافعاً مخلوقاً.

إسلامها

لما أشرقت الأرض بنور الإسلام، ونزلت الرسالة على خير الأنام ﷺ، فقام يدعو الناس إلى ما فيه عز الدنيا والآخرة.

فلما سمع عمار بن ياسر أخبار الدعوة الجديدة، فتح لها سمعه وقلبه وعقله. إلا أن ذلك لم يرو ظمأه، فمضى إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم، وهناك سَعِد بلقاء رسول الله ﷺ، وسمع منه ما هزَّ فؤاده هزًّا، فبسط يده له وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك عبد الله ورسوله.

ويعود عمار إلى أمه سُمَيَّة يدعوها إلى الإسلام، فما أسرع أن استجابت لدعوته، ثم اتجه إلى أبيه ياسر فدعاه إلى ما دعا إليه أمه، فلم يكن أبوه أقل استجابةً من أمه.

السابقون السابقون

وأسلمت هذه العائلة المباركة، فكان إسلامهم مبكرًا شأن الأبرار الذين هداهم الله. ليس ذلك فحسب، بل كانوا من أوائل من أظهروا إسلامهم.

يقول عبد الله بن مسعود: «أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمّه سُمَيَّة، وصُهيب، وبلال، والمقداد».

تعذيبها

وشأن الأبرار المبكرين، أخذ آل ياسر نصيبهم الأوفى من عذاب قريش وأهوالها.

سُمية الأكثر تحملاً

فما أن طار خبر إسلامهم حتى استشاط بنو مخزوم غضباً. فصبوا عليهم العذاب ألواناً، فكانوا يأخذونهم، ويقيدونهم بالسلاسل ويجسونهم، ويمنعون عنهم الطعام والشراب.

وكل واحد من الثلاثة ينظر في إشفاق وحنان للآخرين، فلا يجزن على نفسه قدر أساه على الآخرين.

وكان الرجلان ياسر وولده عمار يظنان أنها أقدر على تحمّل الأذى، خاصة عمار الفتى، غير أن سُمية أثبتت أنها أشد وأصلب وأكثر تحملاً. فرغم أنوثتها وتقدم سنّها، إلا أنها كانت تطمئنّها، وتحثّها على الثبات. مما كان يزيدهما إصراراً على التحدّي واحتمال الأذى.

إلى بطحاء مكة

ولم يُفْلح السجن، ولا التعذيب، ولا القيد، ولا التجويع في زحزحة هذه

الأسرة المؤمنة عن موقفها. فرأى جلادوهم أن يخرجوا بهم إلى بطحاء مكة، ويُلْبَسُوهم درعًا من حديد، ويُصْهروهم بأشعة الشمس، ويمنعوا عنهم الماء، ويتعاقبوا عليهم بالضرب. حتى إذا جفَّت الخلق، ويبست العروق، وتشققت الجلود، وسالت الدماء تركوهم. لا رحمةً بهم، ولا شفقةً عليهم، إنما ليُعيدوا عليهم الكرَّة في اليوم التالي.

صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة

وكان رسول الله ﷺ يخرج إلى حيث علم أن آل ياسر يُعذَّبون مُحييًّا صمودهم وبطولتهم. ولم يكن ﷺ يومئذ يملك من أسباب المقاومة ما يدفع الأذى عنهم.

و ذات يوم وهو يعودهم ناداه عمار قائلًا: يا رسول الله، لقد بلغ العذاب منا كل مبلغ. فقال له رسول الله ﷺ: «صبرًا آل ياسر؛ فإن موعدكم الجنة». فنزلت كلماته ﷺ على قلوبهم بردًا وسلامًا. وكان قلب سُمية أكثر القلوب الثلاثة عطشًا لهذه القطرات النديات.

فهدأت النفوس المعدَّبة، وقرَّت العيون الشاحصة، وازداد آل ياسر قوةً على قوتهم، وإيمانًا على إيمانهم.

وما كان رسول الله ﷺ يواسيهم حين قالها، بل كان يُقرّر حقيقة يعرفها، ويؤكّد واقعاً يُبصره ويراه.

الفصل الأخير

أول شهيدة في الإسلام

لقد ظنّ أبو جهل أنه بهذا التعذيب قد كسب الموقف، ونجح أن يؤثر على آل ياسر ليكفروا بها آمنوا به. فجاء يوماً إلى سُميّة وهي تُعذّب وطلب منها أن تُسبّ رسول الله ﷺ، وتبرأ منه ومن دينه. لكن خاب ظنّه، فإذا بهذه العجوز المتهالكة التي أنهكتها التعذيب والتنكيل، تتحول إلى ندّ قويّ لجبروت هذا الطاغية، فردّت عليه ردّاً قاسياً، وأسمعت ما يكره، وتبرأت من الشرك وأهلّه وأعوانه.

هنالك فقد أبو جهل اتزان، وطاش صوابه، ونسي رجولته، وشهامة العرب التي تآبى أن يقتل رجل امرأة، خاصةً أنها عجوز مُسنّة، لاحول لها ولا قوة.

فحمل حربته وسدّها في صدرها لتخرج من ظهرها. وتسقط سُميّة على الأرض شهيدة، لتسطّر بدمها سطوراً من نور على جبين التاريخ، ولتكون أول شهيدة في الإسلام. ولتنعم بالجنة التي وعدّها إياها رسول الله ﷺ.

فرحمة الله وبركاته عليك يا من علمتي البشرية درسًا لا يُنسى

يا مَنْ كنتِ أول شهيدة في الإسلام

ورضي الله عنك وأرضاكِ يا «سُمية بنت خُباط»

أم الفضل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

ومع ريحانة أخرى من رياحين الصَّحبة العطرة فلنعش اللحظات التالية. إنها ممن لهن فضل سبق للإسلام، وكان لها الفضل في تربية وتنشئة «حَبْر الأمة» عبد الله بن عباس، الذي شرب من لبنها وتربَّى في حجرها. ونالت الفضل الكبير من رسول الله ﷺ، أن شهد لها ولأخواتها بالإيمان. فهي صاحبة كل الفضل «أم الفضل» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

نسبها ونشأتها

هي: لُبَّابة بنت الحارث بن حَزَن بن بُجير الهلالية الحرة الجلييلة. وكُنِيَتْ بِأُمّ الفضل نسبة إلى أكبر أبنائها «الفضل».

الشجرة المباركة

لقد نبتت «أم الفضل» من شجرة مباركة طيبة، تفرعت أغصانها وانتشر ظلها وفاح عبيرها:

* فشقيقتها: «ميمونة بنت الحارث» أم المؤمنين زوج رسول الله ﷺ.

* وشقيقتها الأخرى: «لُبَّابة الصغرى بنت الحارث» أم سيف الله المسلول

«خالد بن الوليد».

* وأخواتها من الأم:

- زينب بنت خزيمة «أم المساكين» زوج رسول الله ﷺ.

- أسماء بنت عميس: زوج جعفر بن أبي طالب، ثم تزوجها من بعده أبو بكر، ثم تزوجها من بعده علي بن أبي طالب.

- سلمى بنت عميس: زوج حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وأسد رسوله.

الأخوات المؤمنات

وقد شهد رسول الله ﷺ لأم الفضل وأخواتها بالإيمان. فقال ﷺ عنهن: «الأخوات المؤمنات».

فيا لها من منقبة عظيمة وشهادة فخر لأم الفضل وأخواتها تخرج من فم الصادق المصدوق ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى.

أكرم عجوز أصهارًا

أما أمها: «هند بنت عوف» فكان يُقال لها: أكرم عجوز في أرض الحجاز أصهارًا؛ أصهارها: رسول الله ﷺ وأبو بكر، والعباس وحمزة ابنا عبد

المطلب، وجعفر وعلي ابنا أبي طالب.

أولاد أم الفضل

لقد ولدت أم الفضل من الرجال النجباء ستة وهم: الفضل، وبه كانت تُكْنَى، وعُبيد الله، وقُثم، ومعبد، وعبد الرحمن، أما أشهرهم فهو حَبْر الأمة وترجمان القرآن، وفتى الكهول «عبد الله بن عباس». وهكذا فقد جمعت «أم الفضل» الفضل كله من جميع أطرافه.

إسلامها

ولما أشرقت شمس الإسلام، وتنزَّلت الرحمات على خير الأنام ﷺ، وبدأ الوحي. كان أول من أسلم «خديجة بنت خويلد»، وكانت أم الفضل تعرف رسول الله ﷺ الصادق الأمين حق المعرفة، وكانت صديقة لخديجة تزورها وتأنس إليها. فلما حدَّثتها خديجة بما كان من أمر النبوة وما نزل على رسول الله ﷺ من وحي من السماء، فبادرت أم الفضل وبلا تردُّد لتدخل في دين الله، ولتكون أول امرأة آمنت بعد خديجة. فكانت حقًّا من السابقين الأولين.

ولما علمت قريش بخبر إسلام أصحاب رسول الله ﷺ، فصَبَّت عليهم كل أنواع التعذيب والتنكيل؛ لكي يفتنوهم عن دينهم، وكانت أم الفضل ترى هؤلاء المستضعفين وهم يُعذَّبون فتبكي؛ لأنها كانت لا تملك من الأمر شيئاً.

فكان ابن عباس يقول: «كنت أنا وأمي من المستضعفين».

أم الفضل والعباس

لم تكن أم الفضل لتُخفي إسلامها عن زوجها «العباس»، ولم يكن هو ليمنعها أو يفارقها من أجل ذلك. فرغم أنه لم يستجب لدعوة ابن أخيه، إلا أنه كان له سندًا وعونًا. فقد كان يقوم بالدور الذي كان عليه «أبو طالب» يقف إلى جانب ابن أخيه بعصية الدم، ولا يتبعه في دعوته.

ويهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ولم تستطع أم الفضل أن تهاجر مع من هاجر؛ لأن زوجها العباس لم يكن أسلم بعد. وإن كانت بعض الروايات تقول: إنه أسلم قبل الهجرة، لكنه لم يُعلن إسلامه، وبقي بمكة ليكون عين رسول الله ﷺ هناك.

مناقبها وفضائلها

لقد كان لأم الفضل العديد من الفضائل والمناقب، نذكر منها:

١ - محفزة لزوجها العباس

كان للعباس الكثير من المواقف التي أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك أنه كان ينصر ابن أخيه ويمنعه قبل أن يُعلن إسلامه وبعدها. وليس أدلّ على ذلك من موقفه يوم العقبة وما تلاها من هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، ثم ما كان منه يوم أحد ويوم الخندق لما كان عيناً لرسول الله ﷺ في مكة يرقب الأحداث والتحرّكات ويبلغها لرسول الله ﷺ، وغيرها من المواقف التي كانت له قبل أن يُعلن إسلامه.

* للاستزادة من حياة «العباس بن عبد المطلب» ارجع إلى الجزء الثالث «حياة الصحب الكرام» للمؤلف.

وكانت أحاديث أم الفضل مع زوجها عن الإسلام ورسوله، وقد آمنت به وذات حلاوة الإيمان. فكان في أحاديثها التي لا تنقطع في صبر ودأب ما جعل من العباس عمًا عطوفًا وسندًا قويًا لابن أخيه.

أم الفضل وأم جميل

ولعلنا في هذا الصدد نجد أنفسنا في مقارنة بين أم الفضل، وأم جميل -زوج أبي لهب-. فكلاهما تربطها برسول الله ﷺ نفس الرابطة؛ حيث إن كلاً منهما زوجة لعم رسول الله ﷺ.

لكن كيف كانت أم الفضل وحبها لرسول الله ﷺ، وحثها لزوجها لدعم ابن أخيه؛ مقارنة بأم جميل، التي كان عداؤها السافر وحقدها على رسول الله ﷺ حافزاً لأبي لهب ألا يلين قلبه ويعادي ابن أخيه كل هذا العدا. إنه الفارق بين الإيثار والشرك الذي جعل لأم الفضل كل هذا الفضل، وجعل من أم جميل «حمالة الخطب».

٢ - شجاعة في مواقف الشدة

فبعد أن كتب الله النصر لعباده المؤمنين يوم بدر. وكان أبو لهب قد تخلف ولم يشترك في الغزوة ولكنه بعث مكانه رجلاً.

وكان أبو لهب أكثر الناس تشوقاً ليعرف ما انتهت إليه المعركة.

يروى أبو رافع مولى رسول الله ﷺ، والذي كان غلاماً للعباس، وكان قد أسلم، وكان رجلاً ضعيفاً: أنه بينما هو جالس ينحت الأقداح وعنده أم

الفضل جالسة، وقد سرَّهم ما جاءهم من أخبار نصره المسلمين. إذ أقبل أبو لهب وجلس إلى جوارهما، فبينما هو جالس إذ أتى من المدينة من أخبر أبا لهب بما أصاب قريش وصناديدها. فقال الرجل لأبي لهب: والله ما هو إلا أن لقينا القوم فممنحنهم أكتافنا، يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا. وأيم الله، مع ذلك ما لُمْتُ الناس؛ فقد لقينا رجالاً بيضاً على خيل بُلق بين السماء والأرض، والله ما يقوم لها شيء.

فقال أبو رافع: تلك والله الملائكة.

فاشتد غيظ أبي لهب وفقد صوابه ورفَع يده وضرب به وجه أبي رافع ضربة شديدة، ثم أوقعه على الأرض وبرك عليه يضربه. وكان أبو رافع رجلاً ضعيفاً لا يملك القوة ولا المنعة التي تحميه وتدافع عنه.

فقامت أم الفضل إلى عمود وضربت أبا لهب على رأسه فشجَّته، وقالت: استضعفته أن غاب سيده؟ فقام أبو لهب مولياً ذليلاً.

فيا لها من شجاعة تظهر في مواقف الشدة. فإنها لم تضرب رجلاً من عامة الناس، بل فارس قريش المغوار الذي كانوا يعدونه للنوائب والشدائد.

٣ - فضل الهجرة

ويُعلن العباس إسلامه، ويهاجر بأهله ومعهم أم الفضل إلى رسول الله ﷺ، بعد أن رأى أنه لم يعد هناك ضرورة لبقائه في مكة. وتفوز أم الفضل بفضل الهجرة، كما كان لها فضل السبق للإسلام. وتلازم رسول الله ﷺ، لتكتحل عينها برؤية وجهه الشريف لتتعلم منه وتقتدي بهديه.

٤ - تُرضع سيد شباب أهل الجنة

وها هي منقبة أخرى لأم الفضل، فقد أرضعت الحسين بن عليّ سبط رسول الله ﷺ، وسيد شباب أهل الجنة. فقد رُوي: أنها أتت يوماً إلى رسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله، رأيت فيما يرى النائم كأن عضواً من أعضائك في بيتي. فقال ﷺ: «تلد فاطمة غلاماً فترضعه بلبن ابنك قثم». وكانت فاطمة حاملاً، فلما وضعت ابنها الحسين أخذته أم الفضل لترضعه مع ولدها قثم الذي كان مولود حديثاً.

رحمك الله! أوجعت ابني

واستمرت أم الفضل تُرضع حُسينًا، حتى إذا تحرَّك ووعى، أتت به إلى رسول الله ﷺ، فأجلسه في حجره فبال في حجر رسول الله ﷺ، فتأذت أم الفضل من ذلك وشعرت بالخرج فقرصت الحُسين فبكى. فقال لها رسول الله ﷺ: «رحمك الله! أوجعت ابني».

٥- أم حَبر الأمة

ولعل من أهم وأشهر فضائل «أم الفضل» أنها أم لعبد الله بن عباس الذي كان له شأن عظيم.

فلما كانت حاملاً فيه وهم في الشَّعب وقت الحصار الذي فرضته قريش على بني هاشم، فمرت يوماً على رسول الله ﷺ، فقال لها: «يا أم الفضل، إنك حامل في غلام، فإذا وضعته فأنتني به». فلما وضعته أتت به إلى النبي ﷺ، فسماه «عبد الله» وحنَّكه بريقه وقال: «اذهبي به فلتجذنه كيِّسًا».

ولما كبر عبد الله ووصل إلى سنِّ الإدراك، كانت أم الفضل تدفعه إلى الالتصاق برسول الله ﷺ ومرافقته، ليكسب بركة وعلماً. وكان عبد الله غلاماً ذكياً فطناً. وقد ألفه رسول الله ﷺ، وأحبه وقربه وعلمه ووعظه

وأدبُه ودعاه له.

وهكذا، حتى بلغ عبد الله مرتبة العلم والفضل والفقهِ، حتى لُقِّبَ «حَبْرَ الأُمَّة».

* للاستزادة من حياة «عبد الله بن عباس» ارجع إلى الجزء الثالث «حياة الصحب الكرام» للمؤلف.

٦ - علمها وفقها

وعاشت أم الفضل تقتبس من هدي النبي ﷺ وعلمه وأخلاقه، حتى إنها روت عنه أكثر من ثلاثين حديثاً، وروى عنها ولدها عبد الله وأنس بن مالك، وغيرهما.

ولقد نالت شرف الحج مع رسول الله ﷺ هي وزوجها في حجة الوداع. وكان لها موقف عظيم يوم عرفة، يُنمَّ عن ذكاء وفطنة.

فقد كثر حديث الناس عن صيام رسول الله ﷺ وهو واقف بعرفة. فقال بعضهم: هو صائم، وقال آخرون: ليس بصائم. فأرسلت أم الفضل بقَدَحٍ من لبن إلى رسول الله ﷺ وهو واقف على بعيره بعرفة فشربه، فسكتت الألسنة وانتهى الجدل. وذلك بفضل ذكاء وفطنة أم الفضل.

الفصل الأخير

وعاشت أم الفضل حتى مات رسول الله ﷺ، وهو راضٍ عنها. ثم أمضت من العمر ما أمضت صائمة، قائمة، تالية للقرآن. وبعد حياة طويلة مليئة بالبذل والعطاء تنام «أم الفضل» على فراش الموت لتصعد روحها الطاهرة إلى بارئها راضية مرضية.

فرحمة الله وبركاته عليك يا من جمعت الفضل من كل جوانبه

يا أم حبر الأمة «عبد الله بن عباس»

ورضي الله عنك وأرضاك يا «أم الفضل».

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. فبفضل من الله ونعمة تمت هذه السلسلة المباركة «خير الأنام وصحبه الكرام» بأجزائها الأربعة:

١ - (حياة خير الأنام ﷺ). ٢ - (حياة العشرة

المبشرين بالجنة).

٣ - (حياة الصحب الكرام). ٤ - (حياة

الصحابيَّات).

والحمد لله لاقت استحساناً من القراء، وسُتَرجَم إلى اللغة الإنجليزية لنشرها في الدول الناطقة بالإنجليزية - إن شاء الله -.

{ **إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ** } [هود: ٨٨]

وأتمنى من الله - سبحانه - أن تصل كل كلمة في هذه السلسلة إلى قلوب وعقول الناس، ويكون فيها الفائدة والنفع العظيم لكل من يقرأها.

وإن كان هناك توفيق فيما كتبت فهو من الله، وإن كان هناك تقصير فهو مني، وأسأل الله أن يغفر لي فيما قصرت.

{ **رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا** }

أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ { [البقرة: ٢٨٦].

فيا إلهي، هذا عبدك وابن عبدك الذي لا حول ولا قوة له إلا بك، أسألك وأتوسل إليك أن تقبلنا، وتتقبل منا هذا الجهد المتواضع بقبول حسن. وألا تحرمنا من صحبة «خير الأنام وصحبه الكرام» في الدنيا والآخرة؛ إنك ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

د. حسن عشاوي

بولوايو - زيمبابوي

السبت: ١٨ صفر ١٤٤٠ هـ - الموافق: ٢٧ أكتوبر ٢٠١٨ م

المصادر والمراجع

- ١ . القرآن الكريم .
- ٢ . إحياء علوم الدين : الإمام الغزالي .
- ٣ . الاستيعاب في معرفة الأصحاب : ابن عبد البر .
- ٤ . أسد الغابة في معرفة الصحابة : لابن الأثير .
- ٥ . الإصابة في تمييز الصحابة : لابن حجر العسقلاني .
- ٦ . أطلس تاريخ الإسلام : حسن مؤنس .
- ٧ . البداية والنهاية لابن كثير .
- ٨ . تراجم سيدات النبوة : عائشة عبد الرحمن .
- ٩ . تفسير ابن كثير .
- ١٠ . تفسير الجلالين .
- ١١ . تفسير الشعراوي .
- ١٢ . تفسير القرطبي .
- ١٣ . حياة الصحابة : محمد يوسف الكاندهولي .
- ١٤ . حياة الصحب الكرام : حسن عشاوي .

١٥. حياة العشرة المبشرين بالجنة: حسن عشاوي.
١٦. حياة خير الأنام: حسن عشاوي.
١٧. رجال ونساء حول رسول الله: سعد يوسف أبو عزيز.
١٨. زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم.
١٩. زوجات الأنبياء: مصطفى مراد.
٢٠. السيرة النبوية لابن هشام.
٢١. صحايات حول الرسول: محمود المصري.
٢٢. صور من حياة الصحايات: عبد الرحمن رأفت الباشا.
٢٣. الطبقات الكبرى لابن سعد.
٢٤. قصص الصحايات: مصطفى مراد.
٢٥. محمد رسول الله والذين معه: عبد الحميد جودة السحار.
٢٦. مؤمنات هن عند الله شأن: محمد بكر إسماعيل.

٢٧. نساء النبي: عائشة عبد الرحمن.
٢٨. نساء أهل البيت: أحمد خليل جمعة.
٢٩. نساء حول الأنبياء: لمياء شومان.
٣٠. نساء مبشرات بالجنة: أحمد خليل جمعة.

تم بحمد الله تعالى.

فهرس المحتويات

٣	إهداء
٤	مقدمة فضيلة مفتي دولة زيمبابوي
٦	مقدمة الجزء الرابع
٩	من هي الصحابية؟
١٠	الهدف من سرد سيرة الصحابة
١٢	فضائل الصحابة
٢٣	خديجة بنت خويلد <small>رضي الله عنها</small>
٦٥	سودة بنت زمعة <small>رضي الله عنها</small>
٧٨	عائشة بنت أبي بكر <small>رضي الله عنها</small>
١١٨	حفصة بنت عمر <small>رضي الله عنها</small>
١٢٧	زينب بنت خزيمة <small>رضي الله عنها</small>
١٣١	أم سلمة <small>رضي الله عنها</small>
١٥٠	زينب بنت جحش <small>رضي الله عنها</small>

١٦٣	أم حبيبة <small>رضي الله عنها</small>
١٧٥	جويرية بنت الحارث <small>رضي الله عنها</small>
١٨٣	صفية بنت حيي <small>رضي الله عنها</small>
١٩٩	ميمونة بنت الحارث <small>رضي الله عنها</small>
٢٠٦	فاطمة الزهراء <small>رضي الله عنها</small>
٢٣٣	زينب الكبرى <small>رضي الله عنها</small>
٢٤٥	أمّامة بنت أبي العاص <small>رضي الله عنها</small>
٢٥٢	أم عمارة <small>رضي الله عنها</small>
٢٦٢	أسماء بنت أبي بكر <small>رضي الله عنها</small>
٢٨٩	آل ملحان رضي الله عنهم
٣٠٧	حليمة السعدية <small>رضي الله عنها</small>
٣١٥	أم أيمن <small>رضي الله عنها</small>
٣٢٨	صفية بنت عبد المطب <small>رضي الله عنها</small>
٣٢٨	أسماء بنت عميس <small>رضي الله عنها</small>
٣٥١	الخنساء <small>رضي الله عنها</small>

٣٥٦	أم معبد الخزاعيَّة <small>رضي الله عنها</small>
٣٦١	خولة بنت حكيم <small>رضي الله عنها</small>
٣٧١	سُميَّة بنت خُباط <small>رضي الله عنها</small>
٣٧٩	أم الفضل <small>رضي الله عنها</small>
٣٩٠	الخاتمة
٣٩٢	المصادر والمراجع
٣٩٥	فهرس المحتويات

للاتصال بالمؤلف

- 1 -  البريد الإلكتروني للمؤلف **hashmawy57@hotmail.com**
- 2 -  موقع المؤلف على **www.Hassanashmawy.Com** : شبكة الإنترنت
- 3 -  الصفحة الرسمية للمؤلف **mercytomankind2013** على الفيسبوك
- 4 -  القناة الرسمية **Dr Hassan Ashmawy** للمؤلف على اليوتيوب
- 5 -  واتساب **+٢٦٣ ٧١ ٢٤٠ ٠٩٢٢**

الإخراج الفنى والطباعة

دار روان

٠١٢٢٣٥١٨٤٧٤